التفكر

العبادة المجهولة

(العبادة التي نقضت الإلحاد من أصوله)

دليل لزيادة اليقين وتعريفك برب العالمين

جمع وتأليف:

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن حسان السوداني

الطبعة الأولى 1445 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمدلله رب المشارق والمغارب ، خلق الإنسان من طين لازب ، وأخرجه من بين الصلب والترائب ، وجعل له زوجه فجعل منها الأبناء والأقارب ، ولطف به فنوَّع له الطعام والمشارب ، وحمله في البر والبحر على الدواب والقوارب.

ثم الصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى وآله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين.

أما بعدُ عبدالله ...

" أرأيت الرياح كيف سُخِّرت ، فمنها الكريم ومنها المُعاقِب ؟!
أرأيت الأرزاق كيف دُبِّرت ، وهل في الطيور زارعٌ وكاسب ؟!
أرأيت النمل كيف خزن طعامه ، وهل للنمل كاتب أو حاسب ؟!
أرأيت الأنعام كيف ذُلِّلت ، فجادت بألبانها لكل حالب ؟!
أرأيت النحل كيف رشف رحيق الزهور فأخرج منها الشفاء مشارب ؟! "

من رحمة الله تعالى بعباده أن نوَّع لهم العبادات ، فالعبادات باعتبار ظهورها وخفائها تنقسم إلى عبادات ظاهرة كالصلاة وإعفاء اللحية وتقصير الإزار والحجاب للمرأة ، وعبادات باطنة كخشية الله وغيرها ، والعبادات باعتبار الجارحة المباشرة لها تنقسم إلى عبادات بدنية كالصلاة والطواف ، و عبادات لسانية كالذكر وقراءة القرآن، وعبادات قلبية كالرجاء وغيرها، كما أن هناك عباداتٌ مالية كالصدقة والزكاة .

تنويع هذه العبادات رحمةٌ وحكمةٌ ، فالمؤمن يتقلب سائر يومه وحياته بين العبادات ، من عبادة إلى عبادة ، فيكون سائر يومه عابداً " فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8) "[(1)] ، إذا فرغت من عبادة فانتقل إلى عبادةٍ أُخرى ، بل حتى اللقمة تضعها في فم زوجتك عبادة ! ، يقول تعالى:" قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) "[(2)] ، فتأمل لفظة " مَحْيَايَ " تشمل سائر حياتك ولحظاتها ، فتشمل معاملاتك الاجتماعية ، ومعاملاتك المالية بل سائر حياتك ، حتى النوم إن احتسبت فيه التقوِّي للعبادة أُجِرتَ عليه.

واعلم أن عليك أن تُراقِب معتقداتك وأقوالك وأفعالك وأن تُخضِعها للشرع ، فلا تعتقد بغير دليل ، فالعقيدة موقوفة على الكتاب والسنة ، ولا تقل ولا تفعل ما لا يرضاه الله ولا رسوله ، فعليك أن تكون بين الواجب والمباح دون أن تقترب من الحرام .

وكذلك من مظاهر الرحمة في تنويـع العبادات أن من لم يستطع على عبادةٍ معينة انتقل إلى غيرها ، فمن لم يستطع أن يكابد الليالي بالقيام ولا الأيام بالصيام وجد بالصدقةِ سبيلاً ، ومن لم يكن له مال يتصدق به فلا يزال لسانه رطباً من ذكر الله[(3)] ، فتنوع العبادات رحمة بالعباد .

---

(1) سورة الشرح . (2) سورة الأنعام .

(3) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ " رواه الترمذي.

كتب عبدَ الله بنَ عبد العزيز العُمرِيَّ العابدَ إلى الإمام مالك رحمه الله يحضُّه إلى الانفرادِ والعمل، وَيَرغَبُ به عن الاجتماع إليه في العلم، فكتب إليه مالكٌ:" إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قسَم الأعمالَ كما قسَم الأرزاق، فرُبَّ رجلٍ فُتِح له في الصلاةِ ولم يُفتَحُ له في الصوم، وآخرُ فُتِح له في الصدقةِ ولم يُفتَحْ له في الصيام، وآخرُ فُتِح له في الجهادِ ولم يُفتَحْ له في الصلاة، ونَشْرُ العلم وتعليمُه من أفضلِ أعمال البرِّ، وقد رَضِيتُ بما فتَح الله لي فيه من ذلك، وما أظنُّ ما أنا فيه بدونِ ما أنت فيه، وأرجو أن يكونَ كِلانا على خير، ويجبُ على كلِّ واحدٍ منّا أن يَرضى بما قُسِم له، والسلام "[1] .

ومما ذكره بعضهم من الحكمة في تنوع العبادات أن تندفع السآمة عن العبد ، ويتجدد شوقه ورغبته في العمل .

وللعبادات فوائد ومنافع وآثار مختلفة ، فمنها ما يقوّي البدن ويجعله جسماً صحياً سليماً كالصيام والمشي إلى الصلاة ، ومنها ما يُهذِّب الأخلاق كقول النبي صلى الله عليه وسلم :" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت "[2] ، ومنها ما يُطهِّر المال كالصدقة، ومنها ما يحفظ العلاقات الاجتماعية كصلة الرحم والسكوت عند الغضب وهكذا .

والعبادة التي نحن بصددها عبادة سهلة يسيرة على من يسرها الله عليه وساقها إليه ، وهي عبادةٌ عظيمة الأجر والأثر ، كما أنها عبادة صامتة يُستعمل فيها القلب ، عبادةٌ تحل الكثير من القضايا والإشكالات خصوصاً قضايا العلمنة والإلحاد .

---

(1) التمهيد لابن عبد البر .
(2) البخاري ومسلم.

مشكلة ضعف اليقين وعلاجها

كلنا - يا كرام - نعاني من مشكلة عظيمة - إلا من رحم الله - جميعنا يعترف بها ، ولا يكاد أحد ينجو منها إلا قليل ، وأكبر آثار هذه المشكلة أنها تظهر في أفعالنا وتصرفاتنا وأقوالنا ، ألا وهي الغفلة وضعف الإيمان واليقين ، " اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ "[1] ، فكثيرٌ من الناس يركبون سرج المعاصي ولا يبالون ، كأنّه لا موت ينتظرهم ، وكأنهم لن يُحاسبوا ، وهذا يدُلك على غربة اليقين عن أرض القلب .

وفي هذا الكتاب نسعى لعلاج هذه المشكلة علاجاً علمياً عملياً ، وهذا العلاج هو عبادة غفل عنها الكثير ، عبادة لا يعرف كثير من الناس أنها عبادة ، ألا وهي عبادة التفكر ، وبالرغم من أن هذه العبادة تكرر ذكرها في القرآن - وبالرغم من أنها سهلة يسيرة لا تحتاج إلى وضوء ولا استقبال قبلة ولا مال ولا جهد ، بل يمكنك فعلها وأنت على فراشك - بالرغم من كل هذا إلا أنها مجهولة عند كثيرٍ من الناس !! .

يقول ابن القيم رحمه الله عن هذه العبادة :" فالفكر هُوَ الَّذِي ينْقل من موت الغفلة إِلَى حَيَاة الْيَقَظَة "[2] ، والتفكر يزيد اليقين ، ويُعرِّفك على رب العالمين ، فالتفكر يورث العلم ، والعلم يُورث الخشية " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... (28) "[3] ، فالتفكر نورٌ يدخل القلب ، فالتفكر يعزز الإيمان واليقين ، ويتعرَّف به العبد على ربه ؛ فيتعلق به ، ويمتلئ قلبه به وحده سبحانه ، فيرجوه ويخافه ، ويحبه ويخشاه ، ويسأله ويعظمه.

والتفكر يعطي المؤمن حصانة قوية ضد كل الشبهات ، فلا تأتيه بعد ذلك شبهةٌ من الشبهات – في أي بابٍ من أبواب الدين ، وسواءً كانت هذه الشبهة في العقيدة أو في الحدود أو غير ذلك – إلا ردها قلبه ، " فسماء إيمانه قد حُرِست بالنجوم " [4].

وعسى هذا الكتاب أن يجد فيه أهل التخبط سكينتهم ، وعسى أن يجدِوا فيه من جوامع الأجوبة ما يزيل حيرتهم ، والله أسأله التوفيق والتيسير والإخلاص والقبول.

---

(1) سورة الأنبياء.
(2) مفتاح دار السعادة.
(3) سورة فاطر.
(4) الجملة بين علامتي التنصيص من كلام ابن القيم رحمه الله ، وهو في كتابه مدارج السالكين.

التفكر في آي الكتاب الحكيم

يقول الله تعالى :" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) "[1] .

من السنة قراءة خواتيم سورة آل عمران عند الاستيقاظ من النوم - ومنها هذه الآيات المتقدمة - وما أكثر ما قرأنا هذه الآيات دون أن نقف معها ، دون أن نقف في كلمة " وَيَتَفَكَّرُونَ "! ، نُمر على الآيات مروراً وقلوبنا غافلة ذاهلةٌ عن معانيها ! إلى الله المشتكى والله المستعان ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآيات:" ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها "[2] .

هؤلاء الذين أثنى الله عز وجل عليهم في هذه الآيات عندما تفكروا في خلق الأرض والسماوات وصلوا إلى غاية عظيمة فقالوا :" رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) " ، فتكشَّفت لهم حقيقةُ الدنيا وسبب الخلق ومآل من اتعظ بهذه الآيات والمخلوقات ومآل من أعرض عنها ، فاستعاذوا بالله من النار ، ويتضمن استعاذتهم بالله من النار طلبهم للجنة ، فمن لا يريد النار فهو يريد الجنة بلا شك ، وهذه هي الغاية ، وهذا هو المنى ، يقول تعالى في الآيات بعدها :" فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى " إلى أن قال :" وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195) " ، قال الحسن :" ما زالوا يقولون ربنا ربنا حتى استجاب لهم "[3].

وقال تعالى :" قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا "[4] .

وقال :" أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ "[5] .

وقال :" يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) "[6] .

وقال :" كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ "[7] .

وقال تعالى :" أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50) "[8].

---

(1) سورة آل عمران.
(2) صحيح الترغيب والترهيب.
(3) تفسير القرطبي.
(4) سورة سبأ.
(5) سورة الروم.
(6) سورة النحل.
(7) سورة البقرة.
(8) سورة الأنعام.

وقال تعالى :" فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) "[1] ، فيا خسران من كذّب بالآيات ولم يتفكر ويتعظ.

وقال تعالى :" اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) "[2] .

وقال :" وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69) "[3] .

وقال :" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) "[4] .

وقال :" اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42) "[5] .

وقال سبحانه وتعالى :" وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13) "[6] .

فصرَّح بلفظ التفكر صراحةً ، وجاء التفكر في آياتٍ أخرى بلفظ آخر دالٍ عليه كلفظ " النظر ".

كقوله تعالى :" فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) "[7] ، فأمر سبحانه بأن ينظر الإنسان إلى خلقته ونشأته، كما أن عليه أن ينظر إلى صورته، قال تعالى:"وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) "[8].

وقال تعالى :" فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32) "[9] .

---

(1) سورة الأعراف .
(2) سورة الرعد.
(3) سورة النحل.
(4) سورة الروم.
(5) سورة الزمر.
(6) سورة الجاثية.
(7) سورة الطارق.
(8) سورة الذاريات.
(9) سورة عبس.

وقد خاطب الله الكفار وحثّهم على التفكر في ملكوت السماوات والأرض ليعرفوه ، ويعرفوا تفرده واستحقاقه للحمد فيخلصوا له العبادة وتخبت قلوبهم له وتخضع وتكفر بما سواه من الشركاء العاجزين ، فقال تعالى:" قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ(101) "[1].

قال تعالى :" وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105) "[2].

قال عون بن عبدالله:"قلت لأم الدرداء: أي عبادة أبي الدرداء كانت أكثر؟ قالت: التفكر والاعتبار"[3].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال :" تفكر ساعة خيرٌ من قيام ليلة "[4] .

وقال الحسن البصري :" عاملنا القلوب بالتفكر فأورثها التذكر ، فرجعنا بالتذكر على التفكر وحركنا القلوب بهما فإذا القلوب لها أسماعٌ وأبصار "[5] .

وقال الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالرحمن منشداً :

تفكر ساعةٍ تخلو ببالي * أحبُ إليّ من أهلي ومالي[6]

وعن أبي سليمان الداراني أنه قال :" إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا ورأيت لله عليَّ فيه نعمة ولي فيه عبرة "[7].

قال وهب بن منبه :" ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم ، وما فهم امرؤ قط إلا علم ، وما علم امرؤ قط إلا عمل "[8].

وروي عن عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم أنه قال :" طوبى لمن قيله تذكراً ، وصمته تفكراً ، ونظره عبراً "[9] ، أي أنه إذا تكلم ذكر الله ، وإذا صمت تفكر ، وإذا نظر اعتبر.

---

(1) سورة يونس.
(2) سورة يوسف.
(3) الزهد والرقائق – لابن المبارك.
(4) الزهد – للإمام أحمد بن حنبل.
(5) شرح العقيدة الطحاوية – صالح آل الشيخ ، ووجدته بلفظٍ قريبٍ له في الفتاوى الكبرى لابن تيمية.
(6) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة – ابن حجر العسقلاني.
(7) تفسير ابن كثير.
(8) تفسير ابن كثير.
(9) تفسير ابن كثير.

كل ما حولك يدعوك إلى التفكر ، لكن أصابتك آفة التعود

لا تبحث عن الآيات بعيداً ، فهي حولك في كل مكان ، واعلم أن كثيراً من الناس صاروا لا يرون العظمة التي في الآيات - التي حولهم - بسبب آفة العادة (التعود) ، فالاعتياد آفة التفكر ، فالآيات من حولنا في كل مكان ، وما يدعو للتفكر كثير ، جلدك يدعوك للتفكر ، عيناك تدعوك للتفكر ، القمر يدعو للتفكر ، الأشجار تدعوا للتفكر ، الألوان تدعوا للتفكر ، الطيور تدعوا للتفكر ... الخ ، حتى الذبابة تدعوك للتفكر ، كل ما حولك يدعوك للتفكر ، ولكن سبب عدم انتباهنا لهذه الأشياء وعدم تفكرنا فيها هو أننا نشأنا فيها وهي حولنا ، وأنها تمر علينا المرة والمرتين والكثير حتى اعتدنا عليها وصارت عاديةً بالنسبة لنا ، فالإنسان عندما يعتاد على شيء ما فإنه يصير عنده في دائرة الطبيعيات ، فيكون أمراً طبيعياً لذلك الشخص حتى ولو كان غريباً على غيره ! أما عندما يجد أمراً جديداً بالنسبة له فإنه يراه غريباً فيتعجب منه ويستغرب ، سواءً كان هذا الأمر حيواناً أو عادةً أو حتى معلومة ! ، ولذلك ترسخ المعلومات الغريبة بسهولة إذ أنها لا تجد ما يزاحمها من الأمور التي تشابهها وتشاركها الدائرة ! ، فإذا ما مرت الأيام وجدت هذا الشخص قد أَلِف ذلك الشيء الذي كان يستغربه .

فمثلاً إذا سافر الإنسان إلى بلد جديد فإنه ينبهر بما يراه فيه من أمور لم يرها من قبل ، ولدينا في السودان مثلٌ شعبي معناه أن ما لا تراه في بيت أبيك يُدهِشُك .

وقد ذكر الدميري صاحب كتاب الحيوان مشكلة الاعتياد هذه عندما تكلم عن الإبل فقال:" والإبل من الحيوانات العجيبة وإن كان عجبها سقط من أعين الناس لكثرة رؤيتهم لها "[1].

وعلاج آفة التعود هذه (أي اعتياد الأشياء التي حولنا) هو أن نتعامل مع ما نريد أن نتفكر فيه وكأننا نراه أو نعرفه أو نسمع به لأول مرة ، فنتعامل مع ذلك الأمر كمعاملة الطفل الذي يستكشف الحياة والأشياء الجديدة.

وليُعلَم أن ليس كل التعود مذموم ، فالتعود على فعل الخيرات وترك المنكرات هو تعودٌ محمود ، لكن التعود الذي نتكلم عنه هنا هو تعود مذموم ؛ لأنه يُميت القلوب ويعطل التفكر ، ومن صور الاعتياد المذموم - بل هو من أقبحها - اعتياد الناس على المعصية فيستصغرونها وهي عند الله عظيمة ، فلذلك تجد كثيراً من الناس لا يحركون ساكناً عندما يحدث منكرٌ أمامهم بسبب أنهم صاروا يرونه عادياً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، فكم من ميتٍ يمشي بين الناس ، وكم من ميتٍ يسير بين الأحياء ، فموتُ القلبِ هو الموتُ الحقيقي ، وأما موتُ البدن فهو انتقالٌ من دارٍ إلى دارٍ.

فواعجباً كيف يُعصى الإله ؟! * أم كيف يجحده الجاحد ؟!
ولله في كل تحريكة * وتسكينة أبداً شاهدُ
وفي كل شيء له آيةٌ * تدل على أنه واحدُ[2]

---

(1) حياة الحيوان للدميري – وهو كتابٌ فيه الكثيرُ من الخرافة فاحذره.

(2) مفتاح دار السعادة – ابن القيم.

تلخيصٌ وتذييل

في هذا الكتاب أريد أن أُحلّق بك عالياً مع هذه العبادة العظيمة في تطبيقٍ عمليٍ لها وذلك من خلال محطات ومراحل ، فنتفكر في الآيات المرئية وهي المخلوقات ، ونتفكر في بعضِ التشريعات التي ظهرت لنا بعض الحِكم التي فيها ، كما نتفكر في الدار الآخرة كما ورد ذلك عن السلف .

في رحلتنا في التفكر في المخلوقات سنمر عبر محطات: أولى هذه المحطات هي عالم الأجرام والأفلاك فنتحدث فيها عن السماوات والأرض وبعض الآيات التي فيهما ، ثم ننتقل لعالم الحيوان ، ثم عالم النبات ، ثم هذا الضعيف وهو الإنسان.

وهذا الكُتيب كان في الأصل عبارة عن خُطب ودروس لملمت شملها من بين الكتب والمواقع المختلفة – ولعلي انقل نصاً من موقع أو كتاب ولا أذكر المصدر بسبب طول الزمان ونسياني له ، إضافةً إلى أنني قد اتصرف في بعض الاقتباسات والنقولات لتناسب السياق أو لتزداد وضوحاً وبياناً إذا وجدتها صعبة اللغة – ثم جمعت هذه الدروس والخطب في هذا الكتاب لعل الله أن ينفع به - أسأل الله الإخلاص والقبول - ولعله يكون هداية للملحدين وبرداً على المتخبطين المتشككين.

وإنني قد أكثرتُ النقل عن ابن القيمِ رحمه الله تعالى خصوصاً من كتابه مفتاح دار السعادة ، واكتفيت بكلامه عن كلامي - في كثيرٍ من المواضع - إذ هو الإمام البليغ الذي أُعطي سحراً من البيان ، وألواناً من البلاغة ، وقد أنقل عنه كلامه أحيانًا بتصرف ، فأصيغه صياغةً يسهلُ بها فهم الكلام ، وكلام الأولين أخصر وأنفع كما ذكر ذلك شيخنا العُصيمي حفظه الله .

فابن القيم رحمه الله كلامه قيم ، فمن أراد الكلام القيم فعليه بابن القيم ، ومن أراد السعادة فعليه بمفتاح دارِ السعادة.

كما أحث على تكرار قراءة هذا الكتاب وإدمانه ؛ فإن أثره على القلبِ كبير ، إذ يُورثُ إيماناً راسخ ، واستحضاراً لعظمة الله دائمة ، كما أحث على نشره وتعليم ما فيه للأهل - ولو خلال الحديث على مائدة الطعام - وتدريسه لأهل المساجد ، فإن " مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا "[1] ، فكل من عرف هذه العبادة عن طريقك فإن لك مثل أجره ، وهذا من فضل الله تعالى.

وأرجو أن يكون هذا الكتابُ كتاباً عملياً في بابه ، إذ أن عبادة التفكر عملٌ لا جُهد فيه ولا مشقة ، إلا أنه يحتاج لبصيرة مفتوحة وعقلٍ سليم، وإذا وجدت من يعطيك العلوم بلا مشقة فلا تتعب نفسك

وإن شاء الله - إن يسر الله - سأقوم برفع الكتاب على شكل مقاطع فيديو ، وقد يكون هناك اختلافات بين الكتاب والمقاطع بسبب أن الكتاب يُحرَّر ويُضاف فيه ويُحذف ، إلا أن مقاطع الفيديو قد تكون أمتع للسامع وأسهل خصوصاً في هذا العصر الذي طغى فيه العالم الرقمي ، وقد يكون فيها أخطاء وزلات، وأرجو ألا تألوا وتبخلوا عني بنصحكم وتوجيهكم، والله لا يؤاخذ المخطئ ويغفر للمذنب التائب .

---

(1) صحيح مسلم.

ويسرني أن تُرسِلوا لي ملاحظاتكم وإضافاتكم العلمية التي يُمكِن أن تُثري هذا الكتاب في طبعاته القادمة على الإيميل : mhmd.a.h.a.mudawi@gmail.com.

كما يمكنكم التواصل معي على الواتساب من خلال الرقم: 00249117035740.

وفي الختام لا أنسى شكر وإهداء هذا الجهد المتواضع لكلِ من ساهم وساعد وراجع ووجهّ ونصح ، واسأل الله أن يجمعنا في جناتٍ ونهر في مقعدِ صدقٍ عِند مليكٍ مُقتدر ، كما لا أنسى الدعاء للمسلمين في كل بقاع الأرض بأن يرفع عنهم البلاء وأن يرد المسلمين إلى دينهم الذي يعتزون به ، وأسأله أن يكشف الكرب عن أهل السودان وفلسطين ، وأن ينزل عليهم الأمان ، كما اسألكم الدعاء لجميع موتى المسلمين ، والدعاء لابن خالتي العزيز ياسر عمر رحمه الله والذي مات شاباً في الحرب الدائرة في السودان ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الأول: مدخل

تعريف التفكر

التفكرُ: هو إعمالُ الفكرِ والعقلِ في الشيء والتعمق فيه ، والانتقال من ظواهر الشيء إلى بواطنه التي قد تخفى.

والتفكر أعمق من مجرد ما يخطر على الذهن ، إذ التفكر يحتاج إلى إعمال العقل بخلاف الخاطرة التي تهجم على العقل دون إعمال ، كما أن التفكر يحتاج إلى مهلة من الوقت على خلاف الخاطرة التي لا تحتاج إلى وقت.

وحتى يؤجر الإنسان على تفكره فعليه أن يفعل ذلك على سبيل التعبد وأن يستحضر النية في ذلك ، " فإنما الأعمال بالنيات "[1] ، فالنية تفرِّق بين العادة والعبادة ، فإذا رأى المسلم بديع خلق الله قال : " سبحان الله " فيؤجر على ذلك ، وإذا ما أدهشته حكمة بعض الأشياء قال :" الله أكبر " ، فهكذا يُترجِم اللسان ما في القلب من استحضار عظمةِ الله وقدرته وحكمته وعلمه سبحانه وتعالى ، قال تعالى :" أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ... (26) "[2] ، ومعنى الآية " أي: تعجب من كمال بصره وسمعه وإحاطته بكل شيء "[3].

والعقلُ: هو آلةُ التفكير والإدراك والتمييز ، وهو آلة الاستدلال والتصور.

وقيل أن العقل سُميَّ عقلاً لأنه يعقل[4] صاحبه عن فعل القبيح كما يعقل العقال البعير.

والله أعلم.

---

(1) رواه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري.
(2) سورة الكهف.
(3) التفسير الميسر.
(4) يعقل بمعنى يمنع ، وعقل البعير إذا ربطه فمنعه من الهروب.

أنواع التفكر

كثيرٌ من الأشياء – إن لم يكن كلها – لها أقسامٌ وأنواع ، ومن الخطأ حصرُ أنواع الشيء في نوع واحد ، ومن ذلك التفكر ، فكثيرٌ من الناس عندما يسمع عن عبادة التفكر ينصرف ذهنه إلى التفكر في المخلوقات فحسب ، في حين أن باب التفكر أوسع من ذلك ويشمل عدة أنواع ، فمنها :

1) التفكر في المخلوقات (الآيات الكونية أو الآيات المرئية)
2) التفكر في القرآن (الآيات الشرعية أو الآيات المسموعة) ، وهذا هو التدبر
3) التفكر في الدار الآخرة ، وقد ورد ذلك عن بعض السلف كما سيأتي بيانه في بابه
4) التفكر في التشريعات ؛ إذ أن وراء التشريعات حِكمٌ عظيمة ، قد ندرك بعضها ويغيب عنّا الكثير

فوائد التفكر

ما من شيء إلا ويكون له فوائد ، ومعرفة هذه الفوائد تحثُّ النفس على الإقبال على الشيء لنيل هذه الفوائد ، وعند فواتها تتحسر على ذلك ، فحتى تُقبِل على الشيء عليك أن تعرِف فوائده ، وحتى تنفر من شيء عليك أن تعرف أضراره.

ومعرفة هذه الفوائد تجعل النفس تستسهل الصعاب في سبيل تحصيل تلك الفوائد ونيلها ، والجاهل بالشيء يزهد فيه ، بل قد يعاديه ، وكلما كنت أعرف بفوائد الشيء ومنافعه كنت أرغب فيه وأسعى إليه ، وزاد استحضارك له في بالك ، وكلما كان في بالك كنت أقدر على تنفيذه وانعكس على سلوكك ، وبالتالي يتحول من فكرة في ذهنك إلى عمل .

يقول ابن رجب رحمه الله :" من لم يعرف ثواب الأعمال ثقلت عليه في جميع الأحوال "

و قال ابن الجوزي :" من تخايل الثواب خف عليه العمل "

وللتفكر فوائد جمّة ، منها:

1) الامتثال لأمر الله تعالى ، وهو أعظمها ؛ إذ أنه تحقيقٌ للعبودية ، فتؤجر على ذلك مع أنه سهل ويسير.
2) التعرف على رب العالمين ، وسيأتي بيانُ ذلك مفصلاً في فصل التعرف على الله تعالى.
3) تعزيز الإيمان واليقين وإغلاق بوابة الإلحاد والتيارات الفكرية المنحرفة كالعلمانية وغيرها - التي صارت تعصِف بشباب المسلمين - بسدٍ منيع، وبالتالي يُصبح لدى الإنسان إيمانٌ ممتدةٌ جذوره في القلب وفرعه في السماء، فيكون راسخاً على بصيرةٍ، لا تهزه رياح الشبهات مهما عتت .
4) تحقيق التسليم لأوامر الحكيم العليم سبحانه .
5) تحقيق الخشية لله تعالى ، قال تعالى :" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... (28) " ، قال ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنه :" الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير "[1] ، فالتفكر يُعرِّف العبد بأن الله على كل شيء قدير ، وهذا - بدوره - يجعله يخشى الله تعالى ، وبالتالي يصير العبد من العلماء ، قال قتادة :" كان يقال: كفى بالرهبة علمًا "[1].

ما العلم حمل شهادةٍ مزخرفة * بزخرف القول من نثر ومنتظم
بل خشية الله في سر وفي علنٍ * هي العلم ، كل العلم ، فالتزمِ

6) شكر الله على نعمة العقل ؛ فإن من شكر النعم استعمالها في الطاعات.
7) رياضة العقل والفكر حتى لا يكون الإنسان من أصحاب الترهل العقلي و الكسل الفِكري.

---

(1) تفسير الطبري.

8) " والتفكر يُفِيد تَكْثِير الْعلم واستجلاب مَا لَيْسَ حَاصِلا عِنْد الْقلب "[1].

9) ألا يكون الإنسان ممن ذمهم الله بسبب عدم استعمالهم لعقولهم في الخير ؛ إذ مثلهم " كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ... (5)"[2] – وهي الكتب – وكانوا " كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44) "[3].

---

(1) مفتاح دار السعادة.
(2) سورة الجمعة.
(3) سورة الفرقان.

الفصل الثاني: التفكر في المخلوقات

المحطة الأولى: السماوات والأرض

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) "[1]
"وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... (191) "[2]

"وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29) "[3]

"وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22) "[4]

"إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) "[5]

"وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105 (
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) "[6]
"قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (101) "[7]

"أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186) "[8]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :" النظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكر والاعتبار مأمورٌ به مندوبٌ إليه "[9].

وجاء في أثر عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:" بينما رجلٌ مستلقٍ ينظر إلى السماء وإلى النجوم فقال :" والله إني لأعلم أن لك خالقاً ورباً، اللهم اغفر لي " ، فنظر الله إليه فغفر الله "[10].
وانتظام هذا الكون وسمائه وأرضه دليلٌ على وحدانية خالقه ، إذ " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا "[11] ، " مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91)"[12] ، ولو كانت السماوات والأرض تفسد بالشرك فكيف بالقلوب ؟ السماء على اتساعها والأرض على امتدادها تفسد بالشرك ، فكيف بقلوب العباد الضيقة الصغيرة ؟ .

---

(1) سورة آل عمران.
(2) سورة آل عمران.
(3) سورة الشورى.
(4) سورة الروم.
(5) سورة الجاثية.
(6) سورة يوسف.
(7) سورة يونس.
(8) سورة الأعراف.
(9) مجموع الفتاوى.
(10) الدر المنثور في التفسير بالمأثور – للسيوطي.
(11) سورة الأنبياء.
(12) سورة المؤمنون.

(1آية السماء

" وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) "[1]

" لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57) "[2]

" وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) "[3]

"أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) "[4]
أقسم الله عز وجل بالسماء في أكثر من موضع ، وفي ذلك دلالة على عظمة هذا المخلوق وحثٌ على تأمله والتفكر فيه ، فالله عز وجل لا يُقسِم إلا بعظيم ، والله عز وجل يُقسِم بما شاء ، أما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم إلا بخالقه ، فالحلف بغير الله شركٌ كما بيّنت الأحاديث ذلك.

وقد أقسم الله عز وجل بالسماء فقال:" وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) "[5]

وقال :" وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) "[6]

وقال :" وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) "[7]
وقال :" وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) "[8]
وقال :" وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) "[9]

"الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4) "[10] ، هذه السماء على اتساعها لا شقوق فيها ولا فُرجة ، قال تعالى :" أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) "[11] ، ثم تأمل سقف بيت الإنسان فإنه على صغره تصيبه الكثير من الشقوق.
نتحدث في ما يلي عن بعض الآيات التي في السماء لعلنا نعرف عظمتها.

---

(1) سورة الأنبياء.
(2) سورة غافر.
(3) سورة الذاريات.
(4) سورة النازعات.
(5) سورة الذاريات.
(6) سورة البروج.
(7) سورة الطارق.
(8) سورة الطارق.
(9) سورة الشمس.
(10) سورة الملك.

1-السحاب

" وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) "[(1)]

" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ
وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ
يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43)
يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44) "[(2)]

السماء مليئة بالآيات ، ومن تلك الآيات السحاب ، هذا السحاب المحلّق فوقنا هو عبارة عن خزانات مياه ضخمة مُعلَّقة في الهواء، وإني لم انتبه لقول الله تعالى:" وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) "[(1)] إلا بعد أن قرأت مقالاً على بعض المواقع يذكر أن بعض السُحب يصل وزنها إلى 500 طن !! ، رقمٌ مذهلٌ عجيب ، قد تستغرب هذا الرقم في بداية الأمر ، لكن إذا ما تأملت في كمية المياه التي تنزل من هذه السحب تيقنت أن ذلك السحاب في غاية الثقل ، وقد ذكر صاحب المقال أن ذلك السحاب يُسمى بالسحاب الركامي.

فتأمل كيف أخبرنا القرآن بهذه الحقيقة العلمية التي غفلنا عنها طوال السنين ، تأمل كيف أخبرنا بها منذ أكثر من 1400 سنة ، ألا يدلك هذا على أن القرآن تنزيلٌ من خالقٍ قديرٍ عليم حكيم .

---

(1) سورة الرعد.

(2) سورة النور.

-2آية القمر

"وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ
لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) "(1)

"كَلَّا وَٱلْقَمَرِ (32) "(2)
"وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨) "(3)
"وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا (٢) "(4)

الشمس والبدر من آيات قدرته * والبر والبحر فيضٌ من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجده * والموج كبَّره والحوت ناجاه
والنملُ تحت الصخور الصم قدَّسه * والنحل يهتف جهراً في خلاياه
والناس يعصونه جهراً فيسترهم * والعبدُ ينسى وربي ليس ينساه

القمر ، ذلك المخلوق العظيم الذي سُميّت سورة كاملةٌ في القرآن باسمه ، والقمرُ زوجُ الشمس ، قال تعالى :" وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) "(5) ، يقول البغوي رحمه الله :" " وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ " ، صِنْفَيْنِ وَنَوْعَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ كَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالسَّهْلِ وَالْجَبَلِ، وَالشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ، وَالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَالسَّعَادَةِ والشقاوة، والجنة والنار، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْحُلْوِ وَالْمُرِّ. " لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " ، فتعملون أَنَّ خَالِقَ الْأَزْوَاجِ فَرْدٌ "(6).

وتأمل كيف جُعِل القمر مناسباً لليل كما جُعلِت الشمس مُناسبة للنهار ، إذ النهار فيه معايش الناس فيحتاجون فيه للضوء القوي ، وأما الليل ففيه نوم الخلائق فجُعِل فيه القمر بضوء رقيق لطيف ، وتأمل البرودة التي في القمر ومقابلتها للحرارة التي في الشمس ، فالشمس والقمر يتكاملان مع بعضهما البعض ، ولكل واحد منهما من الفوائد ما يكمل به نقص الآخر ، وتأمل قول الله تعالى :" هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ... (5) "(7) فوصف الشمس بالضياء إذ أن الضياء حرارة كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم :" الصبر ضياء "(8) ، ووصف القمر بالنور ، إذ أن النور لا يستلزم الحرارة ، قال ابن عثيمين رحمه الله:" "وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ" ولم يقل: إنه نور، والصلاة قال: إنها نور ؛ وذلك لأن الضياء فيه حرارة، كما قال الله عزّ وجل: " جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً " ففيها حرارة ، والصبر فيه حرارة ومرارة ؛ لأنه شاق على الإنسان ، ولهذا جعل الصلاة نوراً ، وجعل الصبر ضياءً لما يلابسه من المشقة والمعاناة "(9).

---

(1) سورة فصلت.
(2) سورة المدثر.
(3) سورة الانشقاق.
(4) سورة الشمس.
(5) سورة الذاريات.
(6) تفسير البغوي.
(7) سورة يونس.
(8) رواه مسلم.
(9) شرح الأربعين النووية – ابن عثيمين.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :" ثمَّ تَأمل حَال الشَّمْس وَالْقَمَر فِي طلوعهما وغروبهما لإقامة دَوْلَتِي اللَّيْل وَالنَّهَار ، وَلَوْلَا طلوعهما لبطل أمْر الْعَالم ، وَكَيف كَانَ النَّاس يسعون فِي معائشهم ويتصرفون فِي أمورهم وَالدُّنْيَا مظْلمَة عَلَيْهِم ؟! ، وَكَيف كَانُوا يتهنون بالعيش مَعَ فقد النُّور ؟! .

ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة فِي غروبهما ؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا غروبهما لم يكن للنَّاس هدوء وَلَا قَرَار مَعَ فرط الْحَاجة إلى السبات وجموم الْحَواس وانبعاث القوى الْبَاطِنَة وَظُهُور سلطانها فِي النّوم الْمعِين على هضم الطَّعَام وتنفيذ الْغذَاء إلى الأعضاء .

ثمَّ لَوْلَا الْغُرُوب لكَانَتْ الأرض تَحْمِي بدوام شروق الشَّمْس واتصال طُلُوعهَا حَتَّى يَحْتَرِق كل مَا عَلَيْهَا من حَيَوَان ونبات ، فَصَارَت تطلع وقتاً بِمَنْزِلَة السراج يُرفع لأهل الْبَيْت ليقضوا حوائجهم ، ثمَّ تغيب عَنْهُم مثل ذَلِك ليقِرُّوا ويهدؤوا ، وَصَارَ ضِيَاء النَّهَار مَعَ ظلام اللَّيْل وحر هَذَا مَعَ برد هَذَا مَعَ تضادهما متعاونين متظاهرين بهما تَمام مصَالح الْعَالم "[1].



(1) مفتاح دار السعادة.

1. تغير شكل القمر

من الآيات والعجائب في القمر تغيُّر شكله ، فتارة يكون دائرة كاملة فيكون بدراً مكتمل ، وتارة يظهر نصفه فقط ! وتارة يظهر هلالاً ، وهكذا ، فهل تغيُّر شكل القمر هذا عبث ؟! لا والله ، وإنما " لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... (5) " ، والآية بتمامها :" هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6) "[1] ، وقال تعالى : " وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) "[2] ، ثم بعد ذلك توقف مع قوله تعالى : " وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) "[3] ، فالقمر له نمطٌ ثابت ، يبدأ هلالاً ثم يكتمل بدراً ثم يعود هلالاً وهكذا ، فمن أين له بهذا النمط الثابت ؟! ، يقيناً الصدفة لا تفعل ذلك أبدا.



(1) سورة يونس.
(2) سورة الأنعام.
(3) سورة يس.

2. ثبوت مسار القمر

تأمل سير القمر في مساره وعدم خروجه منه أبداً طوال كل هذه السنين ، فلا يحيد عن مساره أبداً لا يميناً ولا يساراً ، وتأمل خضوعه لربه فلا يخرج عن أمره ، وهذا درسٌ لي ولك ولكل من يخرج عن أمر الله إذ أن هذا القمر رغم ضخامته وعظمته إلا أنه خاضعٌ لله منقادٌ لأمره ، فلماذا أنا وأنت نخرج عن أوامر الله يمنةً ويسرة ؟! ، أين خضوعنا وانكسارنا وخشيتنا لله ؟!

قال سبحانه وتعالى :" ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) "[1] ، وتذكر أنك ما دمت عبداً لله فأنت في حرية فإذا ما أَبَقْتَ صرت أسيراً للهوى والذنب، واعلم أن " أول مادة في قانون الحرية هي " تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ... (229) "[2] "[3].

فاخرج في هذه الليلة، وارفع رأسك إلى السماء، وانظر إلى القمر تلك الآية العظيمة الدالة على خالقها، إذ أنه علامة تدل العباد على خالقهم، وقدرته، وعظمته، وعلمه، وحكمته .

ثم اسأل نفسك واسأل الملحد : من الذي وضع هذا القمر في هذا المسار الثابت ؟! أهي الصدفة ؟! ، سبحان الله ، هذا القمر موضوعٌ في موضعٍ يتناسق فيه مع جاذبية الأرض ، فلو كان هذا القمر أقرب إلى الأرض لكانت الجاذبية عليه أقوى وبالتالي يسقط ويلتصق بالأرض ، ولو كان أبعد لكانت الجاذبية أقل فيخرج عن نطاق الأرض ، فمثلُ الجاذبية كأنك ممسكٌ بحبل ، وفي طرف هذا الحبل جسمٌ مربوط ، وأنت تدور وتُمسك بالحبل فيكون موضعك في مركز الدائرة ، ويكون الجسم دائراً حولك ، فاشتداد هذا الحبل هو كقوة الجاذبية إذ أنها تربط بين الجسمين ، فإذا ما شددت هذا الحبل تجاهك اقترب الجسم منك واصطدم بك ، وإذا أرخيت قبضتك على الحبل وخففت الضغط عليه انزلق الحبل من بين يديك وطار الجسم المربوط بطرف الحبل بعيداً .

هذا مثالٌ لتقريب وتسهيل وتبسيط مفهوم الجاذبية ، وبعد ذلك أخبرني كيف للصدفة أن تضع هذا القمر في هذا المسار الدقيق بحيث تكون قوة الجاذبية معتدلة فلا يسقط القمر على الأرض ولا يبتعد عنها ؟! ، من زعم أن الصدفة فعلت ذلك فهو يستحمر نفسه ويستحمر بالعقول.

---

(1) سورة فصلت.
(2) سورة البقرة.
(3) مقتبس من الأستاذ ياسر الحزيمي.

3. استدارة القمر

ثم تأمل جمال استدارة هذا القمر ، وتأمل نعومة حوافه وسلاسة أطرافه ، بل تأمل ضبط هذه الدائرة وإتقانها والذي هو منتهى الضبط والإتقان ، فإنك لو حاولت أن ترسم دائرة منتظمة كالقمر ما استطعت ذلك إلا بصعوبة وأدوات معينة - كالفرجار أو البرجل - فكيف لصدفة عمياء أن ترسم هذه الدائرة المتقنة ؟ ، بل كيف لها أن تجعل للقمر منازل ؟! ، وكيف لها أن تجعل شكله يتغير بنمطٍ ثابت ليؤدي وظائف معينة كمعرفة السنين والحساب ؟! ، سبحانك هذا بهتان عظيم.



3-آية الشمس

" وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) "[1]

" وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ ... (38) "[2]

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :" ثمَّ تَأمل بعد ذَلِك أحوال هَذِه الشَّمْس فِي انخفاضها وارتفاعها لإقامة هَذِه الأزمنة والفصول وَمَا فِيهَا من الْمصَالح وَالْحكم ؛ إِذْ لَو كَانَ الزَّمَان كُله فصلاً وَاحِدًا لفاتت مصَالح الْفُصُول الْبَاقِيَة فِيهِ ، فَلَو كَانَ صيفاً كُله لفاتت مَنَافِع مصَالح الشتَاء ، وَلَو كَانَ شتاءً لفاتت مصَالح الصَّيف ، وَكَذَلِكَ لَو كَانَ ربيعاً كُله اَوْ خَرِيفاً كُله ؛ فَفِي الشتَاء تغور الْحَرَارَة فِي الأجواف وبطون الأرض وَالْجِبَال ، فتتولد مواد الثِّمَار وَغَيرهَا ، وتبرد الظَّوَاهِر ، ويستكثف فِيهِ الْهَوَاء ؛ فَيحصل السَّحَاب والمطر والثلج وَالْبرد الَّذِي بِهِ حَيَاة الأرض وَأَهْلهَا ، واشتداد أبدان الْحَيَوَان وقوتها ، وتزايد القوى الطبيعية ، واستخلاف مَا حللته حرارة الصَّيف من الأبدان .

وَفِي الرّبيع تتحرك الطبائع ، وَتظهر الْموَاد المتولدة فِي الشتَاء ، فَيظْهر النَّبَات ، ويتنور الشّجر بالزهر ، ويتحرك الْحَيَوَان للتناسل.

وَفِي الصَّيف يحتد الْهَوَاء ويسخن جداً ؛ فتنضج الثِّمَار ، وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط الَّتِي انْعَقَدت فِي الشتَاء ، وتغور الْبُرُودَة وتهرب الى الأجواف ؛ وَلِهَذَا تبرد الْعُيُون والآبار ، وَلَا تهضم الْمعدة الطَّعَام الَّتِي كَانَت تهضمه فِي الشتَاء من الأطعمة الغليظة ؛ لأنها كَانَت تهضمها بالحرارة الَّتِي سكنت فِي الْبُطُون ، فَلَمَّا جَاءَ الصَّيف خرجت الْحَرَارَة الى ظَاهر الْجَسَد وَغَارَتْ الْبُرُودَة فِيهِ . فَإِذا جَاءَ الخريف اعتدل الزَّمَان ، وَصفا الْهَوَاء وَبرد ، فانكسر ذَلِك السمُوم وَجعله الله بِحِكْمَتِهِ برزخا بَين سموم الصَّيف وَبرد الشتَاء لِئَلَّا يتنقل الْحَيَوَان وهلة وَاحِدَة من الْحر الشَّديد الى الْبرد الشَّديد فيجد أذاه ويعظم ضَرَره ؛ فَإِذا انْتقل إِليه بتدريج وترتب لم يصعب عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ عِنْد كل جُزْء يستعد لقبُول مَا هُوَ أشد مِنْهُ حَتَّى تَأْتِي جَمْرَة الْبرد بعد استعداد وَقبُول حِكْمَة بَالِغَة وَآيَة باهرة ، وَكَذَلِكَ الرّبيع برزخ بَين الشتَاء والصيف ينْتَقل فِيهِ الْحَيَوَان من برد هَذَا الى حر هَذَا بتدريج وترتيب ، فَتَبَارَكَ الله رب الْعَالمين واحسن الْخَالِقِينَ "[3].

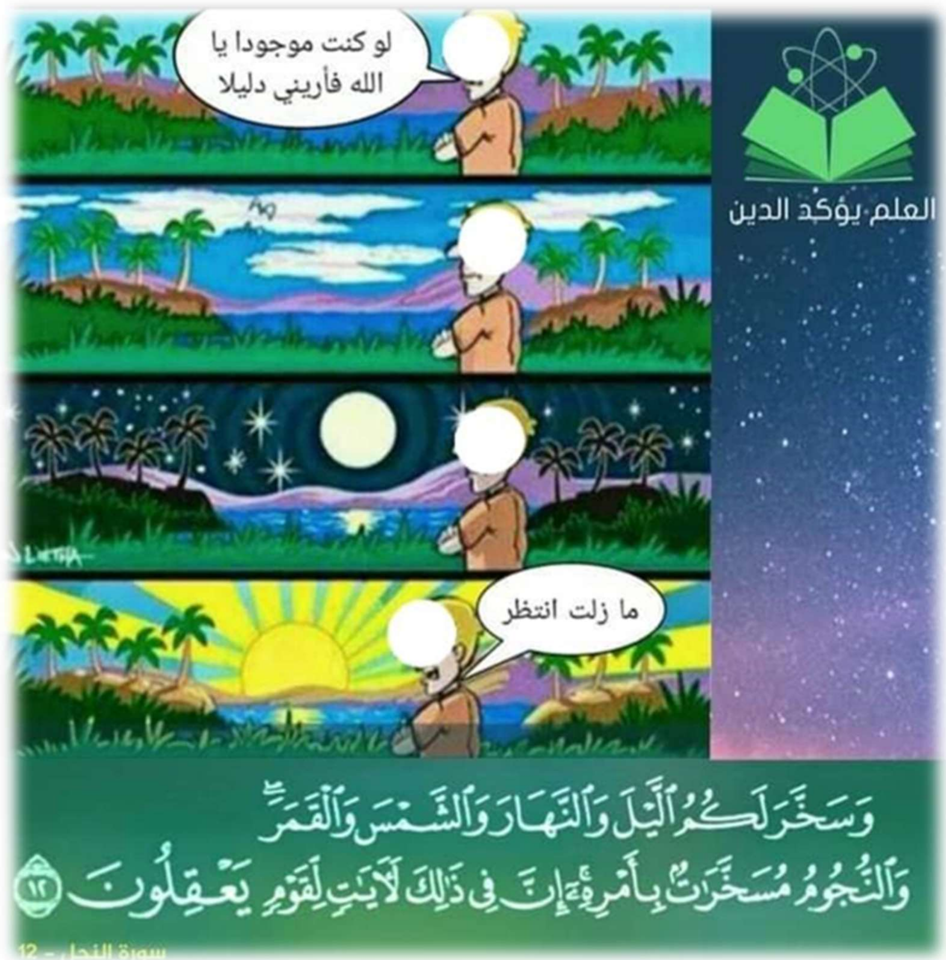
وتنوع الفصول هذا دليل على أن الله على كل شيء قدير.

وقال ابن القيم رحمه الله تعال :" ثمَّ تَأمل حَال الشَّمْس وَالْقَمَر وَمَا أودعاه من النُّور والإضاءة وَكَيف جعل لَهما بروجاً ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السّنة وَتَمام مصَالح حِسَاب الْعَالم الَّذِي لَا غناء لَهُم فِي مصالحهم عَنهُ ، فبذلك يعلم حِسَاب الأعمار والآجال المؤجلة للديون والإجارات والمعاملات وَالْعدَد وَغير ذَلِك ، فلولا حلوك الشَّمْس وَالْقَمَر فِي تِلْكَ الْمنَازل وتنقلهما فِيهَا منزلَة بعد منزلة لم يعلم شَيْء من ذَلِك ، وَقد نبه تَعَالَى على هَذَا فِي غير مَوضِع من كِتَابه كَقَوْله :" هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) " ، وَقَالَ تَعَالَى :" وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... (12) " "[4].

---

(1) سورة الشمس.
(2) سورة فصلت.
(3) مفتاح دار السعادة.
(4) مفتاح دار السعادة.

وقال ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة فِي طُلُوع الشَّمْس على الْعَالم كَيفَ قدره الْعَزِيز الْعَلِيم سُبْحَانَهُ ؛ فَإِنَّهَا لَو كَانَت تطلع فِي مَوضِع من السَّمَاء فتقف فِيهِ وَلَا تعدوه لما وصل شعاعها إِلى كثيرٍ من الْجِهَات ؛ لَأن ظلّ أحْدُ جَوَانِب كرة الارض يحجبها عَن الْجَانِب الآخر ، وَكَانَ يكون اللَّيْل دَائِماً سرمداً على من لم تطلع عَلَيْهِم ، وَالنَّهَار سرمداً على من هِيَ طالعة عَلَيْهِم ، فَيفْسد هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاء ، فاقتضت الْحِكْمَة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طُلُوعهَا من أول النَّهَار من الْمشرق فتشرق على مَا قابلها من الأفق الغربي ، ثمَّ لَا تزَال تَدور وتغشى جِهَة بعد جِهَة حَتَّى تَنْتَهِي الى الغرب فتشرق على مَا استتر عَنْهَا فِي أول النَّهَار فيختلف عِنْدهم اللَّيْل وَالنَّهَار فتنتظم مصالحهم "[1].



---

(1) مفتاح دار السعادة.

-4الليل والنهار

"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ
أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71 (
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72 (
وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73) "[(1)]

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :" خص سُبْحَانَهُ النَّهَار بِذكر الْبَصَر ؛ لأنه مَحَله ، وَفِيه سُلْطَان الْبَصَر وتصرفه ، وَخص اللَّيْل بِذكر السّمع ؛ لأن سُلْطَان السّمع يكون بِاللَّيْلِ وَتسمع فِيهِ الْحَيَوَانَات مَا لا تسمع فِي النَّهَار ؛ لأنه وَقت هدوء الأصوات وخمود الحركات وَقُوَّة سُلْطَان السّمع وَضعف سُلْطَان الْبَصَر ، وَالنَّهَار بِالْعَكْسِ ، فِيهِ قُوَّة سُلْطَان الْبَصَر وَضعف سُلْطَان السّمع ، فَقَوله :" أَفَلَا تَسْمَعُونَ " رَاجع إِلَى قَوْله " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ " ، وَقَوله :" أَفَلَا تُبْصِرُونَ " رَاجع الى قَوْله :" قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة. " ِ

وَقَالَ تَعَالَى :" تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62) "[(2)] ، فَذكر تَعَالَى خلق اللَّيْل وَالنَّهَار ، وإنهما خلفة أَي يخلف أحدهما الآخر لَا يجْتَمع مَعَه ، وَلَو اجْتمع مَعَه لفاتت الْمصلحَة بتعاقبهما واختلافهما ، وَهَذَا هُوَ المُرَاد باخْتلَاف اللَّيْل وَالنَّهَار كَون كل وَاحِد مِنْهُمَا يخلف الآخر لَا يجامعه وَلَا يحاذيه ، بل يغشى أحدهما صَاحبه فيطلبه حثيثا حَتَّى يُزِيلهُ عَن سُلْطَانه ، ثمَّ يَجِيء الآخر عَقِيبه فيطلبه حثيثا حَتَّى يهزمه ويزيله عَن سُلْطَانه ، فهما دَائِما يتطالبان وَلَا يدْرك أحدهما صَاحبه "[(3)]. (

يقول الله تعالى :" وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) "[(4)].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة فِي مقادير اللَّيْل وَالنَّهَار تجدها على غَايَة الْمصلحَة وَالْحكمَة ، وأن مِقْدَار الْيَوْم وَاللَّيْلَة لَو زَاد على مَا قدر عَلَيْهِ أَوْ نقص لفاتت الْمصلحَة وَاخْتلفت الْحِكْمَة بذلك ، بل جعل مكيالها أربعة وَعشْرين سَاعَة ، وَجعلا يتقارضان الزِّيَادَة وَالنُّقْصَان بَينهمَا ، فَمَا يزِيد فِي أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده مِنْهُ ، قَالَ الله تَعَالَى :" يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ... (13) " ، وَفِيه قَولَانِ ، أحدهما : أن الْمَعْنى يدْخل ظلمَة هَذَا فِي مَكَان ضِيَاء ذَلِك ، وضياء هَذَا فِي مَكَان ظلمَة الآخر ، فَيدْخل كل وَاحِد مِنْهُمَا فِي مَوضِع صَاحبه ، وعَلى هَذَا فَهِيَ عَامَّة فِي كل ليل ونهار.

وَالْقَوْل الثَّانِي أنه يزِيد فِي أحدهما مَا ينقصهُ من الآخر ، فَمَا ينقص مِنْهُ يلج فِي الآخر لَا يذهب جملَة ، وعَلى هَذَا فالاية خَاصَّة بِبَعْض سَاعَات كل من اللَّيْل وَالنَّهَار فِي غير زمن الِاعْتِدَال ، فَهِيَ خَاصَّة فِي الزَّمَان وَفِي مِقْدَار مَا يلج فِي أحدهما من الآخر ، وَهُوَ فِي الأَقاليم المعتدلة غَايَة مَا تَنْتَهِي الزِّيَادَة خمس عشرَة سَاعَة فَيصير الاخر تسع سَاعَات ، فَإِذا زَاد على ذَلِك انحرف ذَلِك الإقليم فِي الْحَرَارَة أَوْ الْبُرُودَة إِلَى أن يَنْتَهِي إِلَى حد لا يسكنه الإنسان وَلَا يتكون فِيهِ النَّبَات .

---

(1) سورة القصص. (3) مفتاح دار السعادة.

(2) سورة الفرقان. (4) سورة إبراهيم.

وكل مَوضِع لَا تقع عَلَيْهِ الشَّمْس لَا يعِيش فِيهِ حَيَوَان وَلَا نَبَات لفرط برده ويبسه ، وكل مَوضِع لا تفارقه كَذَلِك لفرط حره ويبسه ، والمواضع الَّتِي يعِيش فِيهَا الْحَيَوَان والنبات هِيَ الَّتِي تطلع عَلَيْهَا الشَّمْس وتغيب ، وأعدلها الْمَوَاضِع الَّتِي تتعاقب عَلَيْهَا الْفُصُول الأربعة ، وَيكون فِيهَا اعتدالان خريفين وربيعين "[1].

وقال رحمه الله :" ثمَّ تَأمل إنارة الْقَمَر وَالْكَوَاكِب فِي ظلمَة اللَّيْل وَالْحكمَة فِي ذَلِك ، فَإِن الله تَعَالَى اقْتَضَت حكمته خلق الظلمَة لهدوء الْحَيَوَان وَبرد الْهَوَاء على الأبدان والنبات فتعادل حرارة الشَّمْس فَيقوم النَّبَات وَالْحَيَوَان ، فَلَمَّا كَانَ ذَلِك مُقْتَضى حكمته شَاب اللَّيْل بِشَيْء من الأنوار ، وَلم يَجعله ظلمَة داجية حندساً لَا ضوء فِيهِ أصلاً فَكَانَ لَا يتَمَكَّن الْحَيَوَان فِيهِ من شَيْء من الْحَرَكَة وَلَا لأعمال .

وَلما كَانَ الْحَيَوَان قد يحْتَاج فِي اللَّيْل الى حَرَكَة ومسير وَعمل لايتهيأ لَهُ بِالنَّهَارِ لضيق النَّهَار اَوْ لشدَّة الْحر اَوْ لخوفه بِالنَّهَارِ - كَحال كثير من الْحَيَوَان - جعل فِي اللَّيْل من أضواء الْكَوَاكِب وضوء الْقَمَر مَا يَتَأَتَّى مَعَه أعمال كَثِيرَة كالسفر والحرث وَغير ذَلِك من أعمال اهل الحروث والزروع ، فَجعل ضوء الْقَمَر بِاللَّيْلِ مَعُونَة للحيوان على هَذِه الحركات ، وَجعل طلوعه فِي بعض اللَّيْل دون بعض مَعَ نقص ضوئه عَن الشَّمْس لِئَلَّا يستوى اللَّيْل وَالنَّهَار فتفوت حِكْمَة الِاخْتِلَاف بَينهمَا والتفاوت الَّذِي قدره الْعَزِيز الْعَلِيم .

فَتَأمل الْحِكْمَة الْبَالِغَة وَالتَّقْدِير العجيب الَّذِي اقْتضى أن أعان الْحَيَوَان على دولة الظلام بجند من النُّور يَسْتَعِين بِهِ على هَذِه الدولة الْمظْلمَة ، وَلم يَجْعَل الدولة كلهَا ظلمَة صرفاً ، بل ظلمَة مشوبة بِنور رَحْمَة مِنْهُ وإحسانا ، فسبحان من أتقن مَا صنع وأحسن كل شَيْء خلقه "[2] .

---

(1) مفتاح دار السعادة .
(2) مفتاح دار السعادة.

-5سقفٌ بلا عمد

" اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... (2) "[(1)]

يقول ابن القيم رحمه الله :" فَتَأمل خلق السَّمَاء وارجع الْبَصَر فِيهَا كرة بعد كرة كَيفَ ترَاهَا من أعظم الآيات فِي علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها ، بِحَيْثُ لَا تصعد علواً كالنار ، وَلَا تهبط نازلةً كالأجسام الثَّقِيلَة ، وَلَا عمد تحتهَا وعلاقة فَوْقهَا ، بل هِيَ ممسوكةٌ بقدرة الله الَّذِي يمسك السَّمَوَات والارض أن تَزُولَا ، ثمَّ تَأمل استواءها واعتدالها فَلَا صدع فِيهَا وَلَا فطر ، وَلَا شقّ وَلَا أمت وَلَا عوج "[(2)] .

قال تعالى:" قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (40) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41)"[(3)].

---

(1) سورة الرعد .
(2) مفتاح دار السعادة.
(3) سورة فاطر.

(2آية الأرض

" أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) "[(1)]

" قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ... (11) "[(2)]

" وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) "[(3)]

" وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) "[(4)]

" وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) "[(5)]

" وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48) "[(6)]

" وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8)"[(7)]

" قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) "[(8)]

" قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4) "[(9)]

" وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... (14) "[(10)]

"تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) "[(11)] ، قال السعدي :" فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم ، وعظموه نهاية التعظيم "[(12)].

---

(1) سورة الحج.
(2) سورة الأنعام.
(3) سورة الذاريات.
(4) سورة الطارق.
(5) سورة الرحمن.
(6) سورة الذاريات.
(7) سورة ق.
(8) سورة فصلت.
(9) سورة الأحقاف.
(10) سورة الفتح.
(11) سورة طه.
(12) تفسير السعدي.

1-تنوع بقاع الأرض

تأمل هذه الأرض وما فيها من العجائب والغرائب ، فهي مختلفة البقاع ، مختلفة الألوان ، فتجد هذه يابسة وهذا بحر ، هذه مروجٌ خضراء وهذه صحاري صفراء ، هذا جبلٌ وهذا وادٍ ، فهي مختلفة الطبائع ، مختلفة الخصائص ، متعددة المنافع ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير سبحانه .

ومن رحمة الله وحكمته سبحانه أن جعلها متنوعة حتى يستفاد من كل واحدةٍ منها في ما يحتاج إليه ويحصل منها ما خُلِقت له ، فللرمال منافع ليست في الجبال ، وفي الجبال منافع ليست في الأرض ، وفي البحار منافع ليست في اليابسة ؛ إذ حيوانات البحر تعيش فيه ، وفي اليابسة منافع ليست في البحر ؛ فالإنسان يحتاج للمياه للشراب ، لكن لو كانت كل الأرض مياه لما استطاع الإنسان أن يتخذ بيتاً ، ، وكما قال عيسى بن مريم " من ذا الذي يبني على موج البحر داراً ؟! ، تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً "[1] ، فجُعِلت الأرض للحرث والبناء ، وجُعلت البحار للمياه والغذاء ، وفيهما من الحكم والفوائد أكثر من ذلك.

وتأمل دخول الأشياء من الأرض وخروجها منها ، فإنك تغرس فيها البذور فتخرج منها الأشجار ، بل ويموت البشر فيدفنون فيها ثم يخرجون منها ، يقول ابن القيم رحمه الله :" صَارَت - أي الأرض - كالأم الَّتِي تحمل فِي بَطنهَا أنواع الأولاد من كل صنف ، ثمَّ تخرج الى النَّاس وَالْحَيَوَان من ذَلِك مَا أذن لَهَا فِيهِ رَبهَا أن تخرجه إما بعلمهم وَإِمَّا بِدُونِهِ ، ثمَّ يُردُّ إليها مَا خرج مِنْهَا ، وَجعلهَا سُبْحَانَهُ كفاتاً فالأحياء مَا داموا على ظهرهَا فَإِذا مَاتُوا استودعتهم فِي بَطنهَا فَكَانَت كفاتا لَهُم ، تضمهم على ظهرهَا أحياء وَفِي بَطنهَا أمواتاً ، فَإِذا كَانَ يَوْم الْوَقْت الْمَعْلُوم وَقد أثقلها الْحمل وحان وَقت الْولادَة ودنو الْمَخَاض أوحى إليها رَبهَا وفاطرها أن تضع حملهَا وَتخرج أثقالها فَتخرج النَّاس من بَطنهَا الى ظهرهَا وَتقول :" رب هَذَا مَا استودعتني " ، وَتخرج كنوزها بإذنه تَعَالَى ثمَّ تحدث أخبارها وَتشهد على بنيها بِمَا عمِلُوا على ظهرهَا من خير وَشر "[2] .

---

(1) جامع العلوم والحكم لابن رجب.

(2) مفتاح دار السعادة.

2-اتزان جاذبية الأرض

ثم تأمل كيف أن جاذبية هذه الأرض مناسبةٌ للإنسان ، إذ هي بمثابة المغناطيس ، فلو كانت هذه القوة التي تجذب الإنسان عالية القوة والتأثير لكان الإنسان ملتصقاً بالأرض لا حراك له ، ولو كانت ضعيفةً قليلة التأثير على الإنسان والأشياء لوجدته يطير في الهواء وتصعب معيشته لعدم استقرار الأشياء و تطايرها في الهواء ، لكنها - أي الجاذبية - بقدرٍ معلوم ، مناسبة للإنسان ؛ فيرفع رجله في ارتياح ويضعها في ارتياح دون عناءٍ ولا مشقة ، فمن الذي جعلها بهذا المقدار غير الرحيم العليم القدير ؟!.

-3تهيئتة الأرض لاحتياجات الإنسان

"هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ... (29) "[1]

تصور أنك دخلت إلى شقةٍ جديدة فوجدت في تلك الشقة كل ما تحب وكل ما تريد وكل ما يناسبك ، فوجدت حذاءً على مقاسِ قدمك ، ووجدت الأكل الذي تُحبه في الثلاجة ، ووجدت الفِراش الذي يُعجِبُك شكله ، وهكذا ، من المؤكد أنك ستجزم أن هناك أحداً هيئً لك هذه الأشياء ، هل تصورت ذلك ؟

حسناً ، تعال الآن راجعاً بتصورك هذا واسحبه على ما حولك من المخلوقات والأمور المهيئة للإنسان ، فهذا الهواء الذي تستنشقه كان من الممكن أن يكون أي غازٍ آخر ، كان من الممكن أن يكون غازاً ساماً أو ثاني أكسيد الكربون الذي لا يصلح للتنفس أو غيره ، لكنه صار أكسجيناً يصلح لك لتتنفسه ، ويصلح للنباتات كي تعيش ، وتأمل لو كان هذا الهواء ذا لونٍ أخضرٍ أو غيره ! لأضر ذلك برؤيتك ولصارت صعبةً وغير واضحة ، لكنه سبحانه وتعالى جعله شفافاً لا لون له حتى ترى بوضوح ، فما أرحمه من إله ، فكل ما تراه من حولك هو من " رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ "[2].

بل ليس ذلك فقط ! إذ أن لهذا الهواء وظائف أخرى عظيمة ومهمة كنقل الأصوات ، فتأمل لو كانت هذه الأرض خاليةً بلا هواء كيف كنا سنتكلم ؟ وكيف ينتقل الحديث ؟ ، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :" وَفِيه تطرد هَذِه الأصوات ، فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد ، كالبريد وَالرَّسُول الَّذِي شَأْنه حمل الأخبار والرسائل ، وَهُوَ الْحَامِل لهَذِهِ الروائح على اختلافها ينقلها من مَوضِع الى مَوضِع ، فتأتي العَبْد الرَّائِحَة من حَيْثُ تهب الرّيح ، وَكَذَٰلِكَ تَأْتِيه الاصوات . وَهُوَ أيضاً الْحَامِل للْحرّ وَالْبرد اللَّذين بهما صَلَاح الْحَيَوَان والنبات . "[3] .

إلى أن قال رحمه الله :" فَلَو كَانَ أثر هَذِه الحركات والأصوات يبْقى فِي الْهَوَاء كَمَا يبْقى الْكتاب[4] فِي القرطاس لامتلأ الْعَالم مِنْهُ ، ولعظم الضَّرَر بِهِ ، واشتدت مُؤْنَته ، وَاحْتَاجَ النَّاس إلى محوه من الْهَوَاء والاستبدال بِهِ أعظم من حَاجتهم الى استبدال الْكتاب المملوء كِتَابَة ؛ فإن مَا يلقى من الْكَلَام فِي الْهَوَاء أضعاف مَا يوضع فِي القرطاس ، فاقتضت حِكْمَة الْعَزِيز الْحَكِيم أن جعل هَذَا الْهَوَاء قرطاساً خفِياً يحمل الْكَلَام بِقدر مَا يبلغ الْحَاجة ، ثمَّ يمحى بإذن ربه فَيَعُود جَدِيدا نقياً لَا شَيْء فِيهِ فَيحمل مَا حمل كل وَقت"[3].

وتأمل الماء الذي يمثل ثلاثة أرباع الأرض ، إذ أنه كان من الممكن أن يكون أي سائلٍ آخر ، كان من الممكن أن يكون حُمماً بُركانية ، أو سائلاً لا يصلح للشرب ، لكنه صار ماءً يصلح للإنسان وللحيوان والنبات ، بل تأمل أنه لمّا احتاجت إليه كل هذه المخلوقات صار هو أكثر الأرض ! فسبحان الحكيم الرحيم ، الرؤوف بعباده ، المتكفل بمصالحهم .

---

(1) سورة البقرة .
(2) سورة الفاتحة.
(3) مفتاح دار السعادة.
(4) الكتاب أي الكتابة.

وتأمل كيف أن هذه الأرض منبسطةٌ ممهدة ، وتأمل كيف ألقى فيها رواسي كي لا تضطرب بأهلها ، فهذه الجبال لها جذور في داخل الأرض تثبتها كما يثبت الوتد الخيمة ، ولذلك سميت الجبال أوتاد " أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) "[2] ، يقول ابن القيم رحمه الله :" وَلَو كَانَت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرهَا قراراً وَلَا هُدُوءاً ، وَلَا ثَبت لَهُم عَلَيْهَا بِنَاء ، وَلَا أمكنهم عَلَيْهَا صناعَة ، وَلَا تِجَارَة وَلَا حراثة وَلَا مصلحَة ، وَكَيف كَانُوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تَحْتهم ، وَاعْتبر ذَلِك بِمَا يصيبهم من الزلازل على قلَّة مكثها كَيفَ تصيرهم إِلَى ترك مَنَازِلهمْ والهرب عَنْهَا "[1].

ولا يتعارض كلام ابن القيم رحمه الله – هذا – عن ثبات الأرض وعدم ارتجاجها مع الزلازل التي تحدث ؛ إذ أن ثبات الأرض هو الأصل ، وهو الحالة الطبيعية للأرض ، أما الزلازل فهي أحداثٌ عارضة ، تحدث من وقتٍ لآخر ، ولو كان الأمر بالعكس – بأن كانت الأرض دائمة الاهتزاز والاضطراب ، وكان استقرار الأرض وسكونها هو الأمر العارض الذي يحدث من حينٍ لآخر – لفسدت الأرض ، ولصار العيش عليها لا يُطاق ، ولتدمرت المساكن ، بل لما استطاع الإنسان أن يتخذ فيها سكناً ، فتأمل رحمة الله عز وجل ونعمته علينا ؛ إذ جعل الجبال رواسي ، وتأمل كيف أن الزلازل صارت لنا تذكيراً بنعمة الله علينا بسكون الأرض.

ثم يقول ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة الْبَالِغَة فِي ليونة الأرض مَعَ يبسها ؛ فإنها لَو أفرطت فِي اللين كالطين لم يسْتَقرّ عَلَيْهَا بِنَاء وَلَا حَيَوَان ، وَلَا تمكنا من الِانْتِفَاع بهَا ، وَلَو أفرطت فِي اليبس كالحجر لم يُمكن حرثها وَلَا زَرعهَا وَلَا شقها وفلحها وَلَا حفر عيونها وَلَا الْبناء عَلَيْهَا ، فنقصت عَن يبس الْحِجَارَة ، وزادت على ليونة الطين ، فَجَاءَت بِتَقْدِير فاطرها على أحسن مَا جَاءَ عَلَيْهِ مهاد للحيوان من الِاعْتِدَال بَين اللين واليبوسة فتهيأ عَلَيْهَا جَمِيع الْمصَالح "[1].

وتأمل امتداد هذه الصحارى ، فهي بمثابة الحاجز بينك وبين العدو ، وحاجزٌ بين بلدٍ صحيح وبلدٍ نزلت به مصيبة أو وباء ، فلا تنتقل هذه المصيبة أو ذاك الوباء من ذاك البلد إلى هذا ، فالصحارى برزخ.

قال ابن القيم رحمه الله :" وَمن ذَلِك سَعَة الأرض وامتدادها ، وَلَوْلَا ذَلِك لضاقت عَن مسَاكِن الإنس وَالْحَيَوَان وَعَن مَزَارِعهمْ ومراعيهم ومنابت ثمارهم وأعشابهم.

فإن قلت فَمَا حِكْمَة هَذِه القفار الخالية والفلوات الفارغة الموحشة ؟ ، فَاعْلَم أن فِيهَا معايش مَا لا يُحْصِيه إلا الله من الوحوش وَالدَّوَاب ، وَعَلَيْهَا أرزاقهم ، وفيهَا مطردهم ومنزلهم كالمدن والمساكن للإنس ، وفيهَا مجالهم ومرعاهم ومصيفهم ومشتاهم ، ثمَّ فِيهَا بعد متسع ومتنفس للنَّاس ، ومضطرب إذا احتاجوا إلى الِانْتِقَال والبدو والاستبدال بالأوطان ، فكم من بيداء سملق صَارَت قصوراً وجناناً ومساكن ، وَلَوْلَا سَعَة الأرض وفسحها لَكَانَ أهلها كالمحصورين والمحبوسين فِي أماكنهم ، لَا يَجدونَ عَنْهَا انتقالا إِذا فدحهم مَا يزعجهم عَنْهَا ويضطرهم إلى النقلَة مِنْهَا.

وَكَذَلِكَ المَاء لَوْلَا كثرته وتدفقه فِي الأودية والأنهار لضاق عَن حَاجَة النَّاس إليه ، ولغلب القوي الضَّعِيف واستبد بِهِ دونه ، فَيحصل الضَّرَر وتعظم البلية مَعَ شدَّة حَاجَة جَمِيع الْحَيَوَان إليه من الطير والوحوش وَالسِّبَاع ، فاقتضت الْحِكْمَة أن كَانَ بِهَذِهِ الْكَثْرَة وَالسعَة فِي كل وَقت "[1].

---

(1) مفتاح دار السعادة. (2) سورة النبأ.

4-الجبال

" لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ
وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21) "(1)

" وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ
قَالَ لَنْ تَرَانِي ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي
فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا
فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) "(2)

" لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90)
أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) "(3)

" وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ
إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88) "(4)

" إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا
وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72) "(5)

" وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) "(6)

" وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) "(7)

" وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) "(8)

" وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33) "(9)

ذكر ابن القيم رحمه الله بعض فوائد الجبال ، نوردها باختصار وتصرف:

1) من مَنَافِعهَا مَا ذكره الله فِي كِتَابه أن جعلهَا للْأَرْض أوتاداً تثبتها ، ورواسي بِمَنْزِلَة مراسي السفن .
2) ومن منافعها أن مغاراتها وكهوفها بمثابة الحصون ، فهي أكنانٌ للناس والحيوانات.
3) ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن المختلفة.

---

(1) سورة الحشر.
(2) سورة الأعراف.
(3) سورة مريم.
(4) سورة النمل.
(5) سورة الأحزاب.
(6) سورة فاطر.
(7) سورة سبأ.
(8) سورة النبأ.
(9) سورة النازعات.

4) ومن منافعها أنها تردُّ الرياح العاصفة وتكسر حدتها ، ولهذا فالساكنون تحتها فِي أمانٍ من الريح وكذلك تردُّ عنهم السيول إذا أقبلت عليهم ، فتصرفها عنهم ذات اليمين والشمال ، فهي بمنزلة السد لهم.

5) ومن منافعها أنها أعلامٌ يُستدلُّ بها في الطرقات ، فَهِيَ بمنزلَة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطّرق ، وَلِهَذَا سَمَّاهَا الله أعلاماً فَقَالَ :" وَمن آيَاته الْجَوَارِي فِي الْبَحْر كالأعلام "[1] ، وسُميَ الْجَبَل علماً من الْعَلَامَة والظهور.

6) وَمن مَنَافِعهَا أيضا مَا ينْبت فِيهَا من العقاقير والأدوية الَّتِي لَا تكون فِي السهول والرمال ، كَمَا أن مَا ينْبت فِي السهول والرمال لَا ينْبت مثله فِي الْجبَال.

قال ابن القيم رحمه الله عن الجبال :" وفيهَا من الْمَنَافِع مَا لا يُحْصِيه إلا خَالِقهَا وناصبها "[2].

ويقول ابن القيم رحمه الله عن شكل الجبال وصورتها :" وَإِذا تَأَمَّلت خلقتها العجيبة البديعة على هَذَا الْوَضع وَجدتهَا فِي غَايَة الْمُطَابقَة للحكمة ؛ فإنها لَو طَالَتْ واستدقَّت كالحائط لتعذر الصعُود عَلَيْهَا وَالِانْتِفَاع بهَا ، وسترت عَن النَّاس الشَّمْس والهواء فَلم يتمكنوا من الِانْتِفَاع بهَا ، وَلَو بسطت على وَجه الأرض لضيقت عَلَيْهِم الْمزَارِع والمساكن ، ولملأت السهل ، وَلما حصل لَهُم بهَا الِانْتِفَاع من التحصن والمغارات والأكنان ، وَلما سترت عَنْهُم الرِّيَاح ، وَلما حجبت السُّيُول، وَلَو جعلت مستديرة - شكل الكرة - لم يتمكنوا من صعودها ، وَلما حصل لَهُم بهَا الِانْتِفَاع التَّام ، فَكَانَ أولى الأشكال والأوضاع بهَا وأليقها وأوقعها على وفْق الْمصلحَة هَذَا الشكل الَّذِي نصبت عَلَيْهِ .

وَلَقَد دَعَانَا الله سُبْحَانَهُ فِي كِتَابه إلى النّظر فِيهَا وَفِي كَيْفيَّة خلقهَا فَقَالَ :" أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) "[3] فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة بارئها وفاطرها وَعلمه وحكمته ووحدانيته .

هَذَا مَعَ أنها تسبح بِحَمْدِهِ وتخشع لَهُ وتسجد وتشقق وتهبط من خَشيته ، وَهِي الَّتِي خَافت من رَبهَا وفاطرها وخالقها على شدتها وَعظم خلقهَا من الأمانة إِذْ عرضهَا عَلَيْهَا ، وأشفقت من حملهَا .

وَمِنْهَا الْجَبَل الَّذِي كلم الله عَلَيْهِ مُوسَى كليمه ونجيه .

وَمِنْهَا الْجَبَل الَّذِي تجلى لَهُ ربه فساخ وتدكدك .

وَمِنْهَا الْجَبَل الَّذِي حبب الله رَسُوله وأصحابه إليه ، وأحبه رَسُول الله وَأَصْحَابه .

وَمِنْهَا الجبلان اللَّذَان جَعلهمَا الله سوراً على نبيه ، وَجعل الصَّفَا فِي ذيل أحدهما ، والمروة فِي ذيل الآخر ، وَشرع لِعِبَادِهِ السَّعْي بَينهمَا ، وَجعله من مناسكهم وتعبداتهم .

---

(1) سورة الشورى.
(2) مفتاح دار السعادة.
(3) سورة الغاشية.

وَمِنْهَا جبل الرَّحْمَة الْمَنْصُوب عَلَيْهِ ميدان عَرَفَات ، فَللَّه كم بِهِ من ذَنْب مغْفُور ، وعثرة مقَالَة ، وزلة مَعْفُو عَنْهَا ، وحاجة مقضية ، وكربة مفروجة ، وبلية مَرْفُوعَة ، ونعمة متجددة ، وسعادة مكتسبة ، وشقاوة ممحوة ، كَيفَ وَهُوَ الْجَبَل الْمَخْصُوص بذلك الْجمع الأعظم والوفد الأكرم الَّذين جاؤا من كل فج عميق وقوفاً لرَبهم ، مستكينين لعظمته ، خاشعين لعزته ، شعثاً غبراً ، حاسرين عَن رُؤُسهمْ يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم ، فيدنو مِنْهُم ، ثمَّ يباهي بهم الْمَلَائِكَة ، فَللَّه ذَاك الْجَبَل وَمَا ينزل عَلَيْهِ من الرَّحْمَة والتجاوز عَن الذُّنُوب الْعِظَام .

وَمِنْهَا جبل حراء الَّذِي كَانَ رَسُول الله يَخْلُو فِيهِ بربه حَتَّى أكرمه الله برسالته وَهُوَ فِي غَاره ، فَهُوَ الْجَبَل الَّذِي فاض مِنْهُ النُّور على أقطار الْعَالم ، فَإِنَّهُ ليفخر على الْجبَال وَحقّ لَهُ ذَلِك .

فسبحان من اخْتصَّ برحمته وتكريمه من شَاءَ من الْجبَال وَالرِّجَال ، فَجعل مِنْهَا جبالاً هِيَ مغناطيس الْقُلُوب ، كَأَنَّهَا مركبة مِنْهُ ، فَهِيَ تهوي إليها كلما ذكرتها وتهفو نَحْوهَا ، كَمَا اخْتصَّ من الرِّجَال من خصّه بكرامته ، وَأتم عَلَيْهِ نعْمَته ، وَوضع عَلَيْهِ محبته مِنْهُ فَأَحبهُ ، وحببه إِلَى مَلَائكَته وعباده الْمُؤمنِينَ ، وَوضع لَهُ الْقبُول فِي الأرض بَينهم " .

قال ابن القيم :" هَذَا وإنها لتعلم أن لَهَا موعداً ويوماً تنسف فِيهَا نسفاً ، وَتصير كالعهن من هوله وعظمه ، فَهِيَ مشفقة من هول ذَلِك الْموعد ، منتظرة لَهُ " ، إلى أن قال رحمه الله :" فَهَذَا حَال الْجبَال وَهِي الْحِجَارَة الصلبة ، وَهَذِه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال رَبهَا وعظمته ، وَقد أخبر عَنْهَا فاطرها وباريها أنه لَو أنْزلْ عَلَيْهَا كَلَامه لخشعت ولتصدعت من خشيَة الله ، فِيا عجباً من مُضْغَة لحمٍ أقسى من هَذِه الْجبَال ، تسمع آيَات الله تتلى عَلَيْهَا وَيذكر الرب تبَارك وَتَعَالَى فَلَا تلين وَلَا تخشع وَلَا تنيب ، فَلَيْسَ بمستنكر على الله عز وَجل - وَلَا يُخَالف حكمته - أن يخلق لَهَا نَاراً تذيبها إِذْ لم تلن بِكَلَامِهِ وَذكره وزواجره ومواعظه ، فَمن لم يلن لله فِي هَذِه الدَّار قلبه وَلم ينب إليه وَلم يذبه بحبه والبكاء من خَشيته فليتمتع قَلِيلاً فإن أمامه الملين الأعظم ، وَسَيَرِدُ إلى عَالم الْغَيْب وَالشَّهَادَة فَيرى وَيعلم "[1].

---

(1) مفتاح دار السعادة.

5-النار

" أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74) "[1]

يقول ابن القيم متحدثاً عن عجيبة من عجائب النار وخصائصها :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة فِي خلق النَّار على مَا هِيَ عَلَيْهِ من الكمون والظهور ؛ فإنها لَو كَانَت ظَاهِرَة أبداً كَالْمَاءِ والهواء كَانَت تحرق الْعَالم وتنتشر ويعظم الضَّرَر بهَا والمفسدة ، وَلَو كَانَت كامنة لَا تظهر أبداً لفاتت الْمصَالح المترتبة على وجودهَا ، فاقتضت حِكْمَة الْعَزِيز الْعَلِيم أن جعلهَا مخزونة فِي الأجسام يُخرجهَا ويبقيها الرجل عِنْد حَاجته إليها ؛ فيمسكها ويحبسها بمادة يَجْعَلهَا فِيهَا من الْحَطب وَنَحْوه ، فَلَا يزَال حابسها مَا احْتَاجَ إِلَى بَقَائِهَا ، فَإِذا اسْتغنى عَنْهَا وَترك حَبسهَا بالمادة خبت بإذن رَبهَا وفاطرها فَسَقَطت الْمُؤْنَة والمضرة ببقائها فسبحان من سخرها وأنشأها على تَقْدِير مُحكم عَجِيب اجْتمع فِيهِ الِاسْتِمْتَاع وَالِانْتِفَاع والسلامة من الضَّرَر .

قَالَ تَعَالَى :" أَفَرَأَيْتُم النَّار الَّتِي تورون " إِلَى قَوْله :" فسبح باسم رَبك الْعَظِيم " فسبحان رَبنَا الْعَظِيم لقد تعرَّف إلينا بآياته ، وشفانا ببيناته ، وأغنانا بهَا عَن دلالات الْعَالمين ، فأخبر سُبْحَانَهُ أنه جعلهَا تذكرة بنَار الآخرة فنستجير مِنْهَا ونهرب إليه مِنْهَا ، ومتاعا للمقوين وهم المسافرون النازلون بالقواء - والقواء هِيَ الأرض الخالية - وهم أحوج الى الِانْتِفَاع بالنَّار للإضاءة والطبخ وَالْخبز والتدفي والأنس وَغير ذَلِك.

ثمَّ تَأمل حكمته تَعَالَى فِي كَونه خصَّ بهَا الإنسان دون غَيره من الْحَيَوَانَات ، فَلَا حَاجَة بِالْحَيَوَانِ اليها بخِلَاف الانسان ، فَإِنَّهُ لَو فقدها لعظم الدَّاخِل عَلَيْهِ فِي معاشه ومصالحه ، وَغَيره من الْحَيَوَانَات لَا يستعملها ولا يتمتع بهَا.

وننبه من مصَالح النَّار على خلة صَغِيرَة الْقدر عَظِيمَة النَّفْع وَهِي هَذَا الْمِصْبَاح الَّذِي يَتَّخِذهُ النَّاس فيقضون بِهِ من حوائجهم مَا شاؤا من ليلهم ، وَلَولا هَذِه الْخلَّة لَكَانَ النَّاس نصف أعمارهم بِمَنْزِلَة أصحاب الْقُبُور ، فَمن كَانَ يَسْتَطِيع كِتَابَة اَوْ خياطَة اَوْ صناعَة اَوْ تَصرفاً فِي ظلمَة اللَّيْل الداجي ؟! ، وَكَيف كَانَت تكون حَال من عرض لَهُ وجع فِي وَقت من اللَّيْل فَاحْتَاجَ الى ضِيَاء اَوْ دَوَاء اَوْ اسْتِخْرَاج دم اَوْ غير ذَلِك

ثمَّ انْظُر إِلَى ذَلِك النُّور الْمَحْمُول فِي ذبالة الْمِصْبَاح على صغر جوهره كَيفَ يضيء مَا حولك كُله فترى بِهِ الْقَرِيب والبعيد ، ثمَّ انْظُر إِلَى أنه لَو اقتبس مِنْهُ كل من يفْرض أَوْ يقدر من خلق الله كَيفَ لَا يفنى وَلَا ينفد وَلَا يضعف.

وَأما مَنَافِع النَّار فِي إنضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف مَا لا يَنْتَفع إلا بجفافه ، وَتَحْلِيل مَا لا يَنْتَفع إلا بتلحيله ، وَعقد مَا لا يَنْتَفع إلا بعقده وتركيبه فَأَكْثَر من أن يُحْصى .

ثمَّ تَأمل مَا أعطيته النَّار من الْحَرَكَة الصاعدة بطبعها إِلَى الْعُلُوّ ، فلولا الْمَادَّة تمسكها لذهبت صاعدة كَمَا أن الْجِسْم الثقيل لَوْلَا الممسك يمسِكهُ لذهب نازلاً ، فَمن أعطى هَذَا الْقُوَّة الَّتِي يطْلب بهَا الهبوط إِلَى مستقره وأعطى هَذِه الْقُوَّة الَّتِي تطلب بهَا الصعُود إِلَى مستقرها ، وَهل ذَلِك الا بِتَقْدِير الْعَزِيز الْعَلِيم ؟"[2].

---

(1) سورة الواقعة. (2) مفتاح دار السعادة.

6-الرياح

" وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) "[1]

" وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) "[2]

" وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) "[3]

" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46) "[4]

" اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا
فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48)
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49)
فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50) "[5]

يقول ابن القيم رحمه الله :" وَتَأمل مَنْفَعَة الرّيح وَمَا يجْرِي لَهُ فِي الْبر وَالْبَحْر وَمَا هيئت لَهُ من الرَّحْمَة وَالْعَذَاب ، وَتَأمل كم سخر للسحاب من ريح حَتَّى أمطر ؛ فسخرت لَهُ المثيرة أولاً فتثيره بَين السَّمَاء والأرض ، ثمَّ سخرت لَهُ الحاملة الَّتِي تحمله على متنها كَالْجمَلِ الَّذِي يحمل الراوية ، ثمَّ سخرت لَهُ الْمُؤَلّفَة فتؤلف بَين كسفه وقطعه ، ثمَّ يجْتَمع بَعْضهَا الى بعض فَيصير طبقًا وَاحِدًا ، ثمَّ سخرت لَهُ اللاقحة بِمَنْزِلَة الذّكر الَّذِي يلقح الأنثى فتلقحه بِالْمَاءِ ولولاها لَكَانَ جهاماً لَا مَاء فِيهِ ، ثمَّ سخرت لَهُ المزجية الَّتِي تزجيه وتسوقه إِلَى حَيْثُ أَمر فيفرغ مَاءَهُ هُنَالك ، ثمَّ سخرت لَهُ بعد إعصاره المفرقة الَّتِي تبثه وتفرقه فِي الجو فَلَا ينزل مجتمعا ، وَلَو نزل جملَة لأهْلك المساكن وَالْحَيَوَان والنبات ، بل تفرقه فتجعله قطراً ، وَكَذَلِكَ الرِّيَاح الَّتِي تلقح الشّجر والنبات ولولاها لكَانَتْ عقيماً ، وَكَذَلِكَ الرِّيَاح الَّتِي تسير السفن ، ولولاها لوقفت على ظهر الْبَحْر .

وَمن مَنَافِعهَا أنها تبرد المَاء وتضرم النَّار الَّتِي يُرَاد إضرامها وتجفف الأشياء الَّتِي يحْتَاج إِلَى جفافها ، وَبِالْجُمْلَةِ فحياة مَا على الأرض من نَبَات وحيوان بالرياح ؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا تسخير الله لَهَا لِعِبَادِهِ لذوى النَّبَات وَمَات الْحَيَوَان وفسدت المطاعم وأنتن الْعَالم وَفَسَد ، ألا ترى إذا ركدت الرِّيَاح كَيفَ يحدث الكرب وَالْغَم الَّذِي لَو دَامَ لأتلف النُّفُوس وأسقم الْحَيَوَان وأمرض الأصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثِّمَار وعفن الزَّرْع وأحدث الوباء فِي الجو ، فسبحان من جعل هبوب الرِّيَاح تَأتي بِرُوحِهِ وَرَحمته ولطفه وَنعمته "[2].

---

(1) سورة الواقعة.
(2) سورة الفرقان.
(3) سورة النمل .
(4) سورة الروم.
(5) سورة الروم. (6)مفتاح دار السعادة.

المحطة الثاني: التفكر في الحيوانات

" أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) "[1]

" وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5)
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6)
وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7)
وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) "[2]

يقول ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة الْبَالِغَة فِي إعطائه سُبْحَانَهُ بَهِيمَة الأنعام الأسماع والأبصار ليتم تنَاولهَا لمصالحها ويكمل انْتِفَاع الإنسان بهَا ؛ إِذْ لَو كَانَت عمياء أَوْ صماء لم يتَمَكَّن من الِانْتِفَاع بهَا ، ثمَّ سلبها الْعُقُول الَّتِي للإنسان - على كبر خلقهَا - ليتم تسخيره إياها فيقودها ويصرفها حَيْثُ شَاءَ ، وَلَو أعطيت الْعُقُول على كبر خلقهَا لامتنعت من طَاعَته واستعصت عَلَيْهِ وَلم تكن مسخرة لَهُ ، فَأعْطيت من التَّمْيِيز والإدراك مَا تتمّ بِهِ مصلحتها ومصلحة من ذَلِك لَهُ ، وسلبت من الذِّهْن وَالْعقل مَا ميز بِهِ عَلَيْهَا الإنسان ، وليُظهِر أيضاً فَضِيلَة التَّمْيِيز والاختصاص .

ثمَّ تَأمل كَيفَ قادها وذللها على كبر أجسامها وَلم يكن يطيقها لَوْلَا تسخيره ، قَالَ الله تَعَالَى: {وَجعل لكم من الْفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ لتستووا على ظُهُوره ثمَّ تَذكرُوا نعْمَة ربكُم إِذا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سخر لنا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقرنين} أَي مطيقين ضابطين ، وَقَالَ تَعَالَى: {أَو لم يرَوا أَنا خلقنَا لَهُم مِمَّا عملت أَيْدِينَا أنعاما فهم لَهَا مالكون وذللناها لَهُم فَمِنْهَا ركوبهم وَمِنْهَا يَأْكُلُون} ، فترى الْبَعِير على عظم خلقته يَقُودهُ الصَّبِي الصَّغِير ذليلاً منقاداً ، وَلَو أُرسِل عَلَيْهِ لسواه بالأرض ، ولفصله عضواً عضواً ، فسل الْمُعَطل من الَّذِي ذلَّله وسخره وقاده على قوته لبشر ضَعِيف من أضعف الْمَخْلُوقَات ، وَفرَّغ - أي جعله متفرغاً - بذلك التسخير النَّوْع الإنساني لمصَالح معاشه ومعاده ؛ فَإِنَّهُ لَو كَانَ يزاول من الأعمال والأحمال مَا يزاول الْحَيَوَان لشغل بذلك عَن كثير من الأعمال ؛ لأنه كَانَ يحْتَاج مَكَان الْجمل الْوَاحِد إِلَى عدَّة أناسي يحملون أثقاله وَحمله ويعجزون عَن ذَلِك ، وَكَانَ ذَلِك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عَن مصالحهم ، فأعينوا بِهَذِهِ الْحَيَوَانَات مَعَ مَا لهم فِيهَا من الْمَنَافِع الَّتِي لَا يحصيها إلا الله من الْغذَاء وَالشرَاب والدواء واللباس والأمتعة والالات والأواني وَالرُّكُوب والحرث وَالْمَنَافِع الْكَثِيرَة وَالْجمال "[3] .

---

(1) سورة الغاشية.
(2) سورة النحل.
(3) مفتاح دار السعادة.

(1خرطوم الفيل

يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم مفتاح دار السعادة – وهو من أفضل الكتب التي تناولت موضوع التفكر هذا ، وهو كتابٌ ماتع لا يمِلُ قارئه – يقول رحمه الله متحدثاً عن الفيل ، وليس عن كل الفيل بل عن خرطومه فقط ، يقول في كلامٍ لا تجده حتى في أفضل القنوات الوثائقية ، يقول رحمه الله :" ثمَّ تَأمل شفر الْفِيل وَمَا فِيهِ من الحكم الباهرة ، فَإِنَّهُ يقوم لَهُ مقَام الْيَد فِي تنَاول الْعلف وَالْمَاء وإيرادهما الى جَوْفه ، وَلَوْلَا ذَلِك مَا اسْتَطَاعَ أَن يتَنَاوَل شَيْئا من الاشياء من الارض ؛ لأنه لَيست لَهُ عنق يمدها كَسَائِر الانعام ، فَلَمَّا عدم الْعُنُق أخلف عَلَيْهِ مَكَانَهُ الخرطوم الطَّوِيل ليسد مسده ، وَجعل قَادِرًا على سدله وَرَفعه وثنيه وَالتَّصَرُّف بِهِ كَيفَ شَاءَ ، وَجعل وعَاء أجوف لين الملمس فَهُوَ يتَنَاوَل بِهِ حَاجته ويحمله مَا أَرَادَ الى جَوْفه وَيحبس فِيهِ مَا يُرِيد ويكيد بِهِ إِذا شَاءَ وَيُعْطى ويتناول إِذا أَرَادَ .

فسل الْمُعَطل من الَّذِي عوضه وَمن أخلف عَلَيْهِ مَكَان الْعُضْو الَّذِي مَنعه مَا يقوم لَهُ مقَامه وينوب مَنَابه غير الرؤوف الرَّحِيم بخلقه المتكفل بمصالحهم اللَّطِيف بهم ؟! وَكَيف يَتَأَتَّى ذَلِك مَعَ الاهمال وخلو الْعَالم عَن قيمَة وبارئه ومبدعه وفاطره لَا إِلَه إِلَّا هُوَ الْعَزِيز الْحَكِيم ؟!

فَإِن قلت فَمَا باله لم يخلق ذَا عنق كَسَائِر الانعام وَمَا الْحِكْمَة فِي ذَلِك قيل وَالله أعلم بِحِكْمَتِهِ فِي مصنوعاته ؛ لَان رَأسه واذنيه امْر هائل عَظِيم وَحمل ثقيل فَلَو كَانَ ذَا عنق كَسَائِر الاعناق لانهدت رقبته بثقله ووهنت بِحمْلِهِ ، فَجعل راسه مُلْصقًا بجسمه لِئَلَّا يَنَالهُ مِنْهُ شَيْء من الثّقل والمؤنة ، وَخلق لَهُ مَكَان الْعُنُق هَذَا المشفر الطَّوِيل يتَنَاوَل بِهِ غذاءه ، وَلما طَالَتْ عنق الْبَعِير للحكمة فِي ذَلِك صغر رَأسه بِالنِّسْبَةِ الى عظم جثته لِئَلَّا يُؤْذِيه ثقله ويوهن عُنُقه ، فسبحان من فَاتَت حكمه عد العادين وَحصر الحاصرين "[1].

---

(1) مفتاح دار السعادة.

2)الحيوانات المُهندِسة ، النحلُ أُنموذجاً

" وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68)
ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا
يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69) "[(1)]

تأمل لما حولك من بيوتِ الحيوان ، فإنك تجِدُ فيها بيوتاً في غايةِ الهندسة ، فتأمل العنكبوت وشبكتها ، وكيف أن مادة بناء بيتها قد خُزِنت داخلها ، فلا تتعب في بناء بيتها ، وتأمل بيوت النحلِ المسدسة ، وتأمل كيف تبنيها بلا مسطرةٍ ولا أدوات ، وتأمل القندس مُهندِس السدود كيف يصنع تلك السدود ، وتأمل بيوت النمل وكيف قُسِّمت إلى أقسام.

يقولُ ابن القيم رحمه الله مُتحدِثاً عن النحل وعن بيوتها وعجائبها:" ثمَّ تَأمل أحوال النَّحْل وَمَا فِيهَا من العبر وَالآيات ، فَانْظُر إليها وإلى اجتهادها فِي صَنْعَة الْعَسَل وبنائها الْبيُوت المسدسة الَّتِي هِيَ من أتم الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعاً ، فَإِذا انْضَمَّ بَعْضهَا إلى بعض لم يكن بَينهَا فُرْجَة وَلَا خلل ، كل هَذَا بِغَيْر مقياس وَلَا آلة وَلَا بيكار ، وَتلك من أثر صنع الله وإلهامه إِيَّاهَا وإيحائه إليها كَمَا قَالَ تَعَالَى {وَأوحى رَبك إِلَى النَّحْل أَن اتخذي من الْجبَال بُيُوتًا} الى قَوْله {لآيَات لقوم يتفكرون} ، فَتَأمل كَمَال طاعتها وَحسن ائتمارها لأمر رَبهَا ؛ اتَّخذت بيوتها فِي هَذِه الأمكنة الثَّلَاثَة فِي الْجبَال الشقفان ، وَفِي الشّجر ، وَفِي بيُوت النَّاس حَيْثُ يعرشون أَي يبنون العروش وَهِي الْبيُوت ، فَلَا يُرى للنحل بَيت غير هَذِه الثَّلَاثَة الْبَتَّةَ ، وتأمل كَيفَ أكثر بيوتها فِي الْجبَال والشقفان وَهُوَ الْبَيْت الْمُقدم فِي الآيَة ، ثمَّ فِي الأشجار وَهِي من أكثر بيوتها ، وَمِمَّا يعرش النَّاس ، وأقل بيوتها بَينهم حَيْثُ يعرشون ، وَأما فِي الْجبَال وَالشَّجر فبيوت عَظِيمَة يُؤْخَذ مِنْهَا من الْعَسَل الْكثير جدا .

وتأمل كَيفَ أداها حسن الِامْتِثَال إلى أن اتَّخذت الْبيُوت أَوْلاً ، فَإِذا اسْتَقر لَهَا بَيت خرجت مِنْهُ فرعت وأكلت من الثِّمَار ثمَّ آوت إلى بيوتها ؛ لِأَن رَبهَا سُبْحَانَهُ أمرها باتخاذ الْبيُوت أولاً ثمَّ بالأكل بعد ذَلِك ، ثمَّ إِذا أكلت سلكت سبل رَبهَا مذللة لَا يستوعز عَلَيْهَا شَيْء ترعى ثمَّ تعود.

وَمن عَجِيب شَأْنهَا أَن لَهَا أميراً يُسمى اليعسوب لَا يتم لَهَا رواح وَلَا إياب وَلَا عمل وَلَا مرعى إِلَّا بِهِ ، فَهِيَ مؤتمرة لأمره ، سامعة لَهُ مطيعه ، وَله عَلَيْهَا تَكْلِيف وَأمر وَنهى ، وَهِي رعية لَهُ ، منقادة لأمره ، متبعة لرأيه ، يدبرها كَمَا يدبر الْملك أمْر رَعيته ، حَتَّى إِنَّهَا إِذا آوت إلى بيوتها وقف على بَاب الْبَيْت فَلَا يدع وَاحِدَة تزاحم الاخرى وَلَا تتقدم عَلَيْهَا فِي العبور ، بل تعبر بيوتها وَاحِدَة بعد وَاحِدَة بِغَيْر تزاحم وَلَا تصادم وَلَا تراكم كَمَا يفعل الأمير إِذا انْتهى بعسكره إلى معبر ضيق لَا يجوزه إلا وَاحِد وَاحِد.

وَمن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكهَا وتفويض كل عمل الى وَاحِد مِنْهَا يتعجب مِنْهَا كل الْعجب وَيعلم أن هَذَا لَيْسَ فِي مقدورها وَلَا هُوَ من ذَاتهَا ؛ فَإِن هَذِه أعمال محكمَة متقنة فِي غَايَة الإحكام والإتقان ، فَإِذا نظرت إلى الْعَامِل رَأَيْته من أَضْعَف خلق الله وأجهله بِنَفسِهِ وبحاله ، وأعجزه عَن الْقيام بمصلحته ، فضلا عَمَّا يصدر عَنهُ من الأمور العجيبة .

---

(1) سورة النحل.

وَمن عَجِيب أمرها أن فِيهَا أميرين لَا يَجْتَمِعَانِ فِي بَيت وَاحِد ، وَلَا يتأمران على جمع وَاحِد ، بل إِذا اجْتمع مِنْهَا جندان وأميران قتلوا أُحْدُ الأميرين وقطّعوه وَاتَّفَقُوا على الأمير الْوَاحِد من غير معاداة بَينهم وَلَا أَذَى من بَعضهم لبَعض ، بل يصيرون يدا وَاحِدَة وجندا وَاحِدًا "[1] .

وقد ذكر لي صديقٌ نحّال يعملُ في مجال النحل أن من النحل لصوصاً ، نحلٌ كسولُ لا يعمل ، وهذا النحل يقوم بسرقةِ خلايا النحل الأخرى عندما يُغادرون خلاياهم ، فأخبرني أنهم يقومون بعزل هذا النوع من النحل عن مزارع النحل ويقومون بالتخلص منه بسبب فسادهم ، والله أعلم .

---

(1) مفتاح دار السعادة.

(3الثعلب وحِيلُ الحيوان

" قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) "
[سورة طه]

يقول ابن القيم رحمه الله متحدثاً عن دهاء الثعلب وحيلته :" وَمن عَجِيب الفطنة فِي الْحَيَوَان ان الثَّعْلَب إِذا اعوزه الطَّعَام وَلم يجد صيدا تماوت وَنفخ بَطْنه حَتَّى يحسبه الطير مَيتا فَيَقَع عَلَيْهِ ليَأْكُل مِنْهُ فيثب عَلَيْهِ الثَّعْلَب فَيَأْخذهُ ".

فمن الذي علّم الثعلب هذه الحيلة التمثيلية المُتقنة ؟! ، إنه الله اللطيف الخبير ، العليم بما يُصلِحُ عباده.

ويقولُ ابن القيم رحمه تعالى بعد ذلك :" وَمن عَجِيب الفطنة فِي هَذِه الذبابة الْكَبِيرَة الَّتِي تسمى أسد الذُّبَاب ، فَإنَّك ترَاهُ حِين يحس بالذباب قد وَقع قَرِيبا مِنْهُ يسكن مَلِيًّا حَتَّى كَأَنَّهُ موَات لَا حراك فِيهِ ، فَإِذا رأى الذُّبَاب قد اطْمَأَن وغفل عَنهُ دب دبيبا رَفِيقًا حَتَّى يكون مِنْهُ بِحَيْثُ يَنَالهُ ، ثمَّ يثب عَلَيْهِ فَيَأْخذهُ .

وَمن عَجِيب حيل العنكبوت أنه ينسج تِلْكَ الشبكة شركا للصَّيْد ، ثمَّ يكمن فِي جوفها ، فَإِذا نشب فِيهَا البرغش والذباب وثب عَلَيْهِ وامتص دَمه ، فَهَذَا يحْكى صيد الأشراك والشباك ، والأول (أي صيد أسد الذباب) يحْكى صيد الْكلاب والفهود " ، قلتُ: ورُبما سُمي بأسد الذباب بسبب طريقته - تلك - في الصيد .

يقول ابن القيم مواصلاً :" وَلَا تزدرين الْعبْرَة بالشَّيْء الحقير من الذّرة والبعوض ، فَإِن الْمَعْنى النفيس يقتبس من الشَّيْء الحقير ، والازدراء بذلك مِيرَاث من الَّذين استنكرت عُقُولهمْ ضرب الله تَعَالَى فِي كِتَابه الْمثل بالذباب وَالْعَنْكَبُوت وَالْكَلب وَالْحمار ، فَأنْزل الله تَعَالَى :" إِن الله لَا يستحيي أَن يضْرب مثلا مَا بعوضة فَمَا فَوْقهَا " ، فَمَا أغزر الحكم وأكثرها فِي هَذِه الْحَيَوَانَات الَّتِي تزدريها وتحتقرها ، وَكم من دلَالَة فِيهَا على الْخَالِق ولطفه وَرَحمته وحكمته ، فسل الْمُعَطل من ألهمها هَذِه الْحِيَل والتلطف فِي اقتناص صيدها الَّذِي جعل قوتها ، وَمن جعل هَذِه الْحِيَل فِيهَا بدل مَا سلبها من الْقُوَّة وَالْقُدْرَة - فأغناها مَا أعطاها من الْحِيلَة عَمَّا سلبها من الْقُوَّة وَالْقُدْرَة - سوى اللَّطِيف الْخَبِير "[1].

---

(1) مفتاح دار السعادة.

(4الثعبان

" وإذا ترى الثعبان ينفس سمه * فاسأله :" من ذا بالسمومِ حشاك ؟ "
واسأله :" كيف تعيشُ يا ثعبانُ أو تحيا وهذا السُمُ يملأ فاك ؟! " "[1]

من عجيب أمرِ الثعبان هذه السموم التي تملأً فاه ، فإن سُمه هذا يقتل الحيوان والإنسان ، غير أنه لا يصيب هذه الثعابين بشيءٍ من الأذى ! .

وقريبٌ من ذلك ما تراه من سمكة الأنقليس تلك السمكة الكهربائية ، فإنها تصعق غيرها ، في حين أنها لا تُصاب بشيءٍ من الأذى ، بل وكيف تتولد هذه الكهرباء فيها ؟! ، فسبحان من هو على كل شيءٍ قدير ، وسبحان من وَسِع كل شيءٍ عِلماً .

ومن عجيب أمر سموم الثعابين هذه أنه يُستخرجُ منها العقاقير والأدوية ، فسُبحان من جعل في ما ظاهره شر خيراً كثيراً !.

(1) قصيدة مع الله والذرة.

5) البعوضة

" إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا
يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) "(1)

مما يؤسف في عصرنا هذا انشغال الناس واندهاشهم من الصناعات البشرية ، فتجدهم يقولون : " انظر إلى هذه السيارة " ، " وانظر إلى هذه الطائرة " ، " وانظر إلى هذا الجهاز " ، لكن توقف لحظة ، هل قلت ذات مرة :" انظر لهذه البعوضة " ؟ ، أو " انظر لهذه الذبابة " ؟ ، وهكذا ، بل صارت غاية أمرنا مع البعوض قتله ، في حين أننا لو فكرنا في تعقيد هذا الكائن الصغير وما زُوِّد به من أجهزة لكان ذلك كافياً في ترسيخ الإيمان في قلوبِ كثيرٍ من الناس ، فهذه البعوضة هي أشبه ما يكون بطائرة مزودة بأجهزة طبية ، ففيها جهاز تخدير ، وفيها جهاز لتمييع الدم ؛ إذ أن دم الإنسان ثقيلٌ عليها لا تستطيع امتصاصه ، وحالها مع دمك كحالك عندما تُريد أن تمتص عسلاً بمصاصة ! ، لا تستطيع ذلك ، فهي تقوم بتخفيف هذا الدم حتى تستطيع امتصاصها بخرطومها ، هذا غير أجهزة الرؤية الحرارية وغير ذلك .

فسبحان الله كم في هذه البعوضة من آيةٍ عجيبة ، يقول الشريم حفظه الله :" البعوضة التي لا يعرف من نزلت عليهم هذه الآية إلا صورتها ، فكيف بنا ونحن في زمنٍ كشف في البعوضة قلبها ودماغها وعيونها وعروقها "(2) .

ولتتأمل في عظمة الله الذي خلق هذه الأجزاء الصغيرة ، وتأمل في كمال علم الله الذي " يرى مد البعوض جناحها ، ويرى نياط عروقها في نحرها ، والمُخ في تلك العظام النُحّل "(3).

---

(1) سورة البقرة.
(2) خُطب المسجد الحرام - 26 رمضان 1432 هـ.
(3) الكشاف للزمخشري.

6) أسلحة الحيوان

تأمل في الحيوانات بمختلف أنواعها ، فإنك تجِدُ منها ما سلاحه القرون ينطح بها ، ومنها ما سلاحه المخالب كالنسور ، ومنها ما سلاحه الأنياب كالسباع ، ومنها ما سلاحه السموم كالأفاعي ، ومنها ما سلاحه الرفس كالحمير ، وإنك لتجد أن الحيوان فيها لا يستخدم غير سلاحه الذي خُلِق له ؛ إذ أن غيره ضعيف ولا يصلح كسلاح ، فالحمار لمّا هُدِيَ إلى الرفس لم ينطح ، وإنك لو استقبلته من الأمام لوجدته يستدير حتى يرفس ، وما كان سلاحه القرون فإنك لا تجده يرفس وهكذا.

ومن الحيوانات ما لا تستطيع أن تُهاجِم إلا أنها زُوِّدت بآليات دفاع تكونُ لها كالحِصُون ، فهناك حيوانات مهاجمة تهجم على فريستها ، وهناك حيوانات مدافعة تدفع الأذى عنها ، فمن الحيوانات المدافعة ما لها درع كالسحلفاة والحلزون ، ومنها ما له أشواك كالقنفذ فلا يقترب منه ما يريد الكيد به ، ومنه ما أعطاه الله السرعة ليهرب بها كالغزلان.

يقول ابن القيم رحمه الله :" وَمِنْه مَا جعل سلاحه فِي رجلَيْهِ وَهُوَ ذُو المخالب وَمِنْه مَا جعل سلاحه المناقير كالنسر والرخم والغراب وَمِنْه مَا سلاحه الاسنان وَمِنْه مَا سلاحه الصَّيَاصِي وَهِي الْقُرُون يدافع بهَا عَن نَفسه من يروم اخذه وَمِنْه مَا اعطى مِنْهَا قُوَّة يدْفع بهَا عَن نَفسه لم يحْتَج الى سلَاح كالاسد فَإِن سلاحه قوته ".

يقول ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة فِي خلق آلات الْبَطْش فِي الْحَيَوَانَات من الإنسان وَغَيره ، فالإنسان لما خُلِق مهيئاً لمثل هَذِه الصناعات من الْبناء والخياطة وَالْكِتَابَة وَغَيرهَا خُلِق لَهُ كفٌ مستديرٌ منبسط وأصابع يتَمَكَّن بهَا من الْقَبْض والبسط والطي والنشر وَالْجمع والتفريق وَضم الشَّيْء إلى مثله ، وَالْحَيَوَان البهيم لما لم يتهيأ لتِلْك الصَّنَائِع لم يخلق لَهُ تِلْكَ الأكف والأصابع ، بل لما قُدِّر أن يكون غذَاء بَعْضهَا من صَيْده - كالسباع - خُلِق لَهُ أكف لطاف مدمجة ذَوَات براثن ومخالب تصلح لاقتناص الصَّيْد وَلَا تصلح للصناعات ، هَذَا كُله فِي أَكَلَة اللَّحْم من الْحَيَوَان ، وأما أكلة النَّبَات فَلَمَّا قُدِّر أنها لا تصطاد وَلَا صَنْعَة لَهَا خُلِق لبعضها أظلافاً تقيها خشونة الأرض إِذا جالت فِي طلب المرعي ، ولبعضها حوافر ململمة مقعرة كأخمص الْقدَم لتنطبق على الارض وتهيأ للرُّكُوب والحمولة ، وَلم يخلق لَهَا براثن وَلَا أنياب لأن غذاءها لَا يحْتَاج الى ذَلِك "[1] .

---

(1) مفتاح دار السعادة.

(7أسنان الحيوان

وتأمل اختلاف الحيوانات في أسنانها ، فما كان منه آكِلاً للحم زُوِّد بأنياب ، وما كان منه آكلاً للنبات لم يُعطَ أنياب وإنما أُعطي قواطع تُعينه على أكل النبات ، ولمّا كان الإنسان يأكل اللحم والنبات أُعطي أنياباً وقواطعا ، فسبحان من " أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) "[1] .

---

(1) مفتاح دار السعادة.

(8أرجُل الحيوان

" وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ
فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ
يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) "[1]

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة الْبَالِغَة فِي قَوَائِم الْحَيَوَان كَيفَ اقْتَضَت أن يكون زوجاً - لَا فَرداً - إما اثْنَتَيْنِ وَإِمَّا اربعاً ليتهيأ لَهُ الْمَشْي وَالسَّعْي وتتم بذلك مصْلحَته ؛ إِذْ لَو كَانَت فَرداً لم يصلح لذَلِك لَان الْمَاشِي ينْتَقل بِبَعْض قوائمه ويعتمد على بعض فذو القائمتين ينْقل وَاحِدَة ويعتمد على الاخرى وَذُو الاربع ينْقل اثْنَتَيْنِ ويعتمد على اثْنَتَيْنِ وَذَلِكَ من خلاف لِأَنَّهُ لَو كَانَ ينْقل قائمتين من جَانب ويعتمد على قائمتين من الْجَانِب الاخر لم يثبت على الارض حَال نَقله قوائمه ولكان مَشْيه نقرا كنقر الطَّائِر وَذَلِكَ مِمَّا يُؤْذِيه ويتبعه لنقل بدنه بِخِلَاف الطَّائِر وَلِهَذَا إِذا مَشى الانسان كَذَلِك قَلِيلا اجهده وشق عَلَيْهِ بِخِلَاف مشْيَة الطبيعي الَّذِي هُوَ لَهُ فاقتضت الْحِكْمَة تَقْدِيم نقل الْيُمْنَى من يَدَيْهِ مَعَ الْيُسْرَى من رجلَيْهِ واقرار يسرى الْيَدَيْنِ ويمنى الرجلَيْن ثمَّ نقل الاخريين كَذَلِك وَهَذَا أسهل مَا يكون من الْمَشْي واخفه على الْحَيَوَان"[1] .

وقال رحمه الله :" وَمن آيَاته سُبْحَانَهُ خلق الْحَيَوَان على اخْتِلَاف صِفَاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فِيهِ ، فَمِنْهُ الْمَاشِي على بَطْنه ، وَمِنْه الْمَاشِي على رجلَيْهِ ، وَمِنْه الْمَاشِي على أَرْبَعْ "[1].

---

(1) سورة النور.

(2) مفتاح دار السعادة.

(9ظهور الدواب

" وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (14) "[(1)]

يقول ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة الْبَالِغَة فِي ان جعل ظُهُور الدَّوَابّ مبسوطة كَأَنَّهَا سقف على عمد القوائم ليتهيأ ركُوبهَا وتستقر الحمولة عَلَيْهَا ثمَّ خُولِفَ هَذَا فِي الابل فَجعل ظُهُورهَا مسنمة معقودة كالقبو لما خصت بِهِ من فضل الْقُوَّة وَعظم مَا تحمله والاقباء تحمل اكثر مِمَّا تحمل السقوف حَتَّى قيل إِن عقد الاقباء إِنَّمَا اخذ من ظُهُور الابل وَتَأمل كَيفَ لما طول قَوَائِم الْبَعِير طول عُنُقه ليتناول المرعي من قيام فَلَو قصرت عُنُقه لم يُمكنهُ ذَلِك مَعَ طول قوائمه وليكون ايضا طول عُنُقه موازنا للْحَمْل على ظَهره إِذا اسْتَقل بِهِ كَمَا ترى طول قَصَبَة القبان حَتَّى قيل إِن القبان إِنَّمَا عمل من خلقه الْجمل من طول عُنُقه وَثقل مَا يحملهُ وَلِهَذَا ترَاهُ يمد عُنُقه إِذا اسْتَقل بِالْحملِ كَأَنَّهُ يوازنه موازنه "[(2)].

---

(1) سورة النور.
(2) مفتاح دار السعادة.

(10فرج الدابة

" وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47) "[1]

يقول ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة فِي كَون فرج الدَّابَّة جعل بارزا من وَرَائِهَا ليتَمَكَّن الْفَحْل من ضرابها وَلَو جعل فِي اسفل بَطنهَا كَمَا جعل للْمَرْأَة لم يتَمَكَّن الْفَحْل من ضرابها الا على الْوَجْه الَّذِي تجامع بِهِ الْمَرْأَة وَقد ذكر فِي كتب الْحَيَوَان ان فروج الفيلة فِي اسفل بَطنهَا فَإِذا كَانَ وَقت الضراب ارْتَفع ونشز وبرز للفحل فيتمكن من ضرابها فَلَمَّا جعل فِي الفيلة على خلاف مَا هُوَ فِي سَائِر الْبَهَائِم خصت بِهَذِهِ الخاصية عَنْهَا ليتهيأ الامر الَّذِي بِهِ دوَام النَّسْل "[2].

---

(1) سورة النجم.

(2) مفتاح دار السعادة.

(11كسوة الحيوان

" وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (80) "[1]

يقول ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل كَيفَ كُسِيت أجسام الْحَيَوَان البهيمي هَذِه الْكسْوَة من الشّعْر والوبر وَالصُّوف ، وكسيت الطُّيُور الريش ، وكسى بعض الدَّوَابّ من الْجلد مَا هُوَ فِي غَايَة الصلابة وَالْقُوَّة كالسلحفاة ، وَبَعضهَا من الريش مَا هُوَ كالأسنة ، كل ذَلِك بِحَسب حاجاتها الى الْوِقَايَة من الْحر وَالْبرد والعدو الَّذِي يُرِيد أذاها ، فإنها لما لم يكن لَهَا سَبِيل إِلَى اتِّخَاذ الملابس واصطناع الْكسْوَة والآت الْحَرْب أُعينت بملابس وَكِسْوَة لَا تفارقها وآلات وأسلحة تدفع بهَا عَن نَفسهَا ، وأعينت بأظلاف وأخفاف وحوافر لما عدمت الاحذية وَالنعال ، فمعها حذاؤها وسقاؤها ، وَخص الْفرس والبغل وَالْحمار بالحوافر لمّا خُلِق للركض والشد والجري ، وَجعل لَهَا ذَلِك أيضا سِلَاحا عِنْد انتصافها من خصمها عوضاً عَن الصَّيَاصِي والمخالب والأنياب والبراثن.

فَتَأمل هَذَا اللطف وَالْحكمَة ؛ فَإِنَّهَا لما كَانَت بهائم خرصاً لَا عقول لَهَا وَلَا أكف وَلَا أَصَابِع مهيأة لِلِانْتِفَاع والدفاع ولا حظّ لَهَا فِيمَا يتَصَرَّف فِيهِ الآدميون من النسج والغزل ولطف الْحِيلَة جعلت كسوتها من خلقتها ، بَاقِيَة عَلَيْهَا مَا بقيت ، لَا تحْتَاج إِلَى الِاسْتِبْدَال بهَا ، وَأَعْطيت آلَات وأسلحة تحفظ بهَا أنفسها ، كل ذَلِك لتتم الْحِكْمَة الَّتِي أُريدت بهَا وَمِنْهَا .

وَأما الإنسان فَإِنَّهُ ذُو حِيلَة وكف مهيئة للْعَمَل ، فَهِيَ تغزل وتنسج ويتخذ لنَفسِهِ الْكسْوَة ويستبدل بهَا حَالاً بعد حَال ، وَله فِي ذَلِك صَلَاح من جِهَات عديدة :

- **مِنْهَا أن يستريح إِذا خلع كسوته إِذا شَاءَ ويلبسها إِذا شَاءَ ، لَيْسَ كالمضطر إِلَى حمل كسْوَة**
- **وَمِنْهَا أنه يتَّخذ لنَفسِهِ ضروباً من الْكسْوَة للصيف وضروباً للشتاء ، فَإِن كسْوَة الصَّيف لا تليق بالشتاء ، وَكِسْوَة الشتَاء لَا تلِيق بالصيف ، فيتخذ لنَفسِهِ فِي كل فصل كسْوَة مُوَافقَة**
- **وَمِنْهَا أنه يَجْعَلهَا تَابِعَة لشهوته وإرادته**
- **وَمِنْهَا أنه يتلذذ بأنواع الملابس كَمَا يتلذذ بأنواع المطاعم فَجعلت كسوته متنوعة تَابِعَة لاختياره - كَمَا جعلت مطاعمه كَذَلِك - فَهُوَ يكتسى مَا يَشَاء من أنواع الملابس المتخذة من النَّبَات تَارَة كالقطن والكتان ، وَمن الْحَيَوَان تَارَة كالوبر وَالصُّوف وَالشعر ، وَمن الدُّود تَارَة كالحرير والابريسم ، وَمن الْمَعَادِن تَارَة كالذهب وَالْفِضَّة ، فَجعلت كسوته متنوعة لتتم لذته وسروره وابتهاجه وزينته بهَا ، وَلذَلِك كَانَت كسْوَة أهل الْجنَّة مُنْفَصِلَة عَنْهُم كَمَا هِيَ فِي الدُّنْيَا لَيست مخلوقة من اجسامهم كالحيوان ، فَدلَّ على أن ذَلِك أكمل وأجل وأبلغ فِي النِّعْمَة**
- **وَمِنْهَا إِرَادَة تَمْيِيزه عَن الْحَيَوَان فِي ملبسه كَمَا ميزه عَنهُ فِي مطعمه ومسكنه وَبَيَانه وعقله وفهمه**
- **وَمِنْهَا اخْتِلَاف الْكسْوَة واللباس وتباينه بِحَسب تبَاين أحواله وصنائعه وَجَربه وَسلمهُ وظعنه وإقامته وَصِحَّته ومرضه ونومه ويقظته ورفاهيته ، فَلِكُل حَال من هَذِه الأحوال لِبَاس وَكِسْوَة تخصها لَا تلِيق إلا بهَا ، فَلم يَجْعَل كسوته فِي هَذِه الأحوال كلهَا وَاحِدَة لَا سَبِيل إِلَى الاسبتدال بهَا ، فَهَذَا من تكريمه وتفضيله على سَائِر الْحَيَوَان "[2].**

---

(1) سورة النحل.   **(2)** مفتاح دار السعادة .

(12قبور الحيوانات

" فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ

قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31) "[1]

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :" ثمَّ تَأمل حِكْمَة عَجِيبَة جعلت للبهائم والوحوش وَالسِّبَاع وَالدَّوَاب على كثرتها لَا يرى مِنْهَا شَيْء - وَلَيْسَت شَيْئا قَلِيلاً فتخفى لقلتهَا ، بل قد قيل أنها أَكثر من النَّاس ، وَاعْتبر ذَلِك بِمَا ترَاهُ فِي الصحارى من أسراب الظباء وَالْبَقر والوعول والذئاب وَالنُّمُور وضروب الْهَوَام على اختلافها وَسَائِر دَوَاب الارض وأنواع الطُّيُور الَّتِي هِيَ أضعاف أضعاف بني آدم - لَا تكَاد ترى مِنْهَا شَيْئاً مَيتاً لَا فِي كناسَة وَلَا فِي أوكاره وَلَا فِي مساقطه وَلَا فِي مراعيه بطرقِهِ وموارده ومناهله ومعاقله ومعاصمه إلا مَا عدا عَلَيْهِ عَادٍ : إِمَّا افترسه سبع ، أَوْ رَمَاه صائد ، أَوْ عدا عَلَيْهِ عَاد أشغله وأشغل بني جنسه عَن إحراز جِسْمه وإخفاء جيفته ؛ فَدلَّ ذَلِك على أنها إِذا أحست بِالْمَوْتِ - وَلم تُغلَب على أنفسها - كمنت حَيْثُ لَا يُوصل إِلى أجسامها ، وقبرت جيفها قبل نزُول الْبَين بهَا ، وَلَوْلَا ذَلِك لامتلأت الصحارى بجيفها وأفسدت الْهَوَاء بروائحها ، فَعَاد ضَرَر ذَلِك بِالنَّاسِ ، وَكَانَ سَبِيلاً إِلى وُقُوع الوباء ، وَقد دلّ على هَذَا قَوْله تَعَالَى فِي قصَّة ابْني آدم " فَبعث الله غرابا يبْحَث فِي الأَرْض ليريه كَيفَ يواري سوأة أَخِيه قَالَ يَا ويلتى أعجزت أَن أكون مثل هَذَا الْغُرَاب فأواري سوأة أخي فَأَصْبح من النادمين" ،وَأما مَا جعل عيشه بَين النَّاس - كالأنعام وَالدَّوَاب - فلقدرة الإِنسان على نَقله واحتياله فِي دفع أذيته مُنع مِمَّا جعل فِي الوحوش كالسباع ، فَتَأمل هَذَا الَّذِي حَار بَنو آدم فِيهِ وَفِيمَا يَفْعَلُونَ بِهِ كَيفَ جعل طبعاً فِي الْبَهَائِم وَكَيف تعلموه من الطير .

وَتَأمل الْحِكْمَة فِي ارسال الله تَعَالَى لِابْنِ آدم الْغُرَاب الْمُؤَذّن اسْمه بغربة الْقَاتِل من أخيه ، وغربته هُوَ من رَحْمَة الله تَعَالَى ، وغربته من أبيه وَأَهله واستيحاشه مِنْهُم واستيحاشهم مِنْهُ ، وَهُوَ من الطُّيُور الَّتِي تنفر مِنْهَا الإِنس وَمن نعيقها وتستوحش بهَا ، فَأرْسل إليه مثل هَذَا الطَّائِر حَتَّى صَار كالمعلم لَهُ والأستاذ ، وَصَارَ بِمَنْزِلَة المتعلم والمستند ، وَلَا تنكر حكمة هَذَا الْبَاب وارتباط المسميات فِيهِ بأسمائها ، فقد قَالَ النَّبِي إِذا بعثتم إِلى بريداً فابعثوه حسن الِاسْم حسن الْوَجْه ، وَكَانَ يسْأَل عَن اسْم الأرض إِذا نزلها وَاسم الرَّسُول إِذا جَاءَ اليه ، وَلما جَاءَهُم سُهَيْل ابْن عَمْرو يَوْم الْحُدَيْبِيَة قَالَ :" قد سهل أمركم " ، وَلما أراد تَغْيِير اسْم حزن بسهل قَالَ :" لم يزل معنى اسْمه فِيهِ وَفِي ذريته " ، وَلما سَأَلَ عمر بن الْخطاب الرجل عَن اسْمه وَاسم ابيه وداره ومنزله فأخبره أنه جَمْرَة بن شهَاب ، وأن دَاره بالحرقة ، وأن مَسْكَنه مِنْهَا ذَات لظى قَالَ لَهُ :" اِدَّرَكَ بَيْتك فقد احْتَرَقَ " فَكَانَ كَمَا قَالَ ، وشواهد هَذَا الْبَاب أَكثر من أن نذْكرها هاهُنَا ، وَهَذَا بَاب لطيف المنزع ، شَدِيد الْمُنَاسبَة بَين الأسماء والمسببات ، وَكَثِيرًا مَا أولع النَّاس قَدِيما وحديثا بنعيق الْغُرَاب واستدلالهم بِهِ على الْبَين والاغتراب وينسبونه الى الشؤم[2] ، وينفرون مِنْهُ وينفر مِنْهُم ، فَكَانَ جَدِيرًا أن يُرْسل هَذَا الطَّائِر إِلى الْقَاتِل من ابْني آدم دون غَيره من الطُّيُور ، فَكَأَنَّهُ صُورَة طَائِره الَّذِي ألزمهُ فِي عُنُقه وطار عنه من عمله ، وَلَا تظن أن إرسال الْغُرَاب وَقع اتِّفَاقًا خَالِيا من الْحِكْمَة ، فَإِنَّك اذا خَفِي عَلَيْك وَجه الْحِكْمَة فَلَا تنكرهَا ، وَاعْلَم أن خفاءها من لطفها وشرفها ، وَللَّه تَعَالَى فِيمَا يَخفَى وَجه الْحِكْمَة فِيهِ على الْبشر الحكم الباهرة المتضمنة للغايات المحمودة "[3].

---

(1) سورة المائدة. (2) والطيرة (التشاؤم) شركٌ ، إذ جعل ما ليس سبباً سبب من الشرك.

(3) مفتاح دار السعادة .

(13وجه الدابة وذَنَبَها

" وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) "[(1)]

قال ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة الباهرة فِي وَجه الدَّابَّة كَيفَ هُوَ ، فإنك ترى الْعَينَيْنِ فِيهِ شاخصتين أمامها لتبصر مَا بَين يَديهَا أتم من بصر غَيرهَا ؛ لأنها تحرس نَفسهَا وراكبها ، فتتقى أن تصدم حَائِطا أَوْ تتردى فِي حُفْرَة ، فَجعلت عَيناهَا كعيني المنتصب الْقَامَة ؛ لأنها طَلِيعَة ، وَجعل فوها مشقوقاً فِي أسفل الخطم لتتمكن من العض وَالْقَبْض على الْعلف ؛ إِذْ لَو كَانَ فَوْقهَا فِي مقدم الخطم - كَمَا أنه من الإنسان فِي مقدم الذقن - لما استطاعت أن تتَنَاوَل بِهِ شَيْئا من الأرض ، ألا ترى الإنسان لَا يتنَاول الطَّعَام بِفِيهِ لَكِن بِيَدِهِ ، فلما لم تكن الدَّابَّة تتَنَاوَل طعامها بِيَدِهَا جعل خطمها مشقوقا من أَسْفَله لتضعه على الْعلف ثمَّ تقضمه ، وأعينت بالجحفلة - وَهِي لَهَا كالشفة للإنسان - لتلتقم بهَا مَا قرب مِنْهَا وَمَا بعد .

وَقد أشكلت مَنْفَعَة الذَّنب على بعض النَّاس وَلم يهتد اليها وَفِيه مَنَافِع عديدة فَمِنْهَا انه بِمَنْزِلَة الطَّبَق على الدبر والغطاء على حياها يواريهما ويسترهما وَمِنْهَا ان بَين الدبر ومراق الْبَطن من الدَّابَّة لَهُ وضر يجْتَمع عَلَيْهِ الذُّبَاب والبعوض فيؤذي الدَّابَّة فَجعل اذنابها كالمذاب لَهَا والمراوح تطرد بِهِ ذَلِك وَمِنْهَا ان الدَّابَّة نستريح الى تحريحكه وتصريفه يمنة ويسرة فَإِنَّهُ لما كَانَ قِيَامهَا على الاربع بِكُل جسمها وشغلت قدماها بِحمْل الْبدن عَن التَّصَرُّف والتقلب كَانَ لَهَا فِي تَحْرِيك الذَّنب رَاحَة وَعَسَى ان يكون فِيهَا حكم اخر تقصر عَنْهَا افهام الْخلق ويزدريها السَّابِع إِذا عرضت عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يعرف موقعها الا فِي وَقت الْحَاجة فَمن ذَلِك ان الدَّابَّة تربض فِي الوحل فَلَا يكون شَيْء اعون على رَفعهَا من الاخذ بذنبها "[(2)].

---

(1) سورة النحل.

(2) مفتاح دار السعادة.

14) مقارنة بين أولاد الحيوان وأولاد الإنسان

" وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ... (38) "[1]

يقول ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل أولاد ذَوَات الأربع من الْحَيَوَان كَيفَ ترَاهَا تتبع أمهاتها مُسْتَقلَّة بأنفسها فلا تحتاج إلى الْحمل والتربية كَمَا يحْتَاج إليه أولاد الإنس ؛ فَمن أجل أنه لَيْسَ عِنْد أمهاتها مَا عِنْد أمهات الْبشر - من التربية والملاطفة والرفق والآلات الْمُتَّصِلَة والمنفصلة - أعطاها اللَّطِيف الْخَبِير النهوض والاستقلال بأنفسها على قرب الْعَهْد بِالْولادَةِ ، وَلذَلِك ترى أفراخ كثير من الطير - كالدجاج والدراج والفتخ - يدرج ويلقط حِين يخرج من الْبَيْضَة .

وَمَا كَانَ مِنْهَا ضَعِيف النهوض - كفراخ الْحمام واليمام - أعطى سُبْحَانَهُ أمهاتها - من فَضله - الْعَطف والشفقة والحنان مَا تمج بِهِ الطّعْم فِي أَفْوَاه الْفِرَاخ من حواصلها ، فتخبأه فِي أعز مَكَان فِيهَا ، ثمَّ تسوقه من فِيهَا إِلى أفواه الْفِرَاخ ، وَلَا تزَال بهَا كَذَلِك حَتَّى ينْهض الفرخ ويستقل بِنَفسِهِ ، وَذَلِكَ كُله من حظها وَقسمهَا الَّذِي وصل إليها من الرَّحْمَة الْوَاحِدَة من الْمِائَة .

فَإِذا اسْتَقل بِنَفسِهِ وأمكنه الطيران لم يزل بِهِ الأبوان يعالجانه أتم معالجة وألطفها حَتَّى يطير من وَكره ، ويسترزق لنَفسِهِ ، ويأكل من حَيْثُ يأكلان ، وكأنهما لم يعرفاه وَلَا عرفهما قطّ ، بل يطردانه عَن الوكر وَلَا يدعانه وأقواتهما وَبَينهمَا بل يَقُولَانِ لَهُ بِلِسَان يفهمهُ اتخذ لَك وكرا وقوتا فَلَا وكر لَك عندنَا وَلَا قوت .

فسل الْمُعَطل :" أهذا كُله عَن إهمال ؟! ، وَمن الَّذِي ألهمها ذَلِك ؟! ، وَمن الَّذِي عطفها على الْفِرَاخ وَهِي صغَار أحوج مَا كَانَت إليها ، ثمَّ سلب ذَلِك عَنْهَا إِذْ استغنت الْفِرَاخ ؛ رَحْمَة بالأمهات تسْعَى فِي مصالحها ، إِذْ لَو دَامَ لَهَا ذَلِك لَأضر بهَا وشغلها عَن معاشها ، لَا سِيمَا مَعَ كَثْرَة مَا يحْتَاج إليه أولادها من الْغذَاء ، فَوضع فِيهَا الرَّحْمَة والايثار والحنان رَحْمَة بالفراخ ، وسلبها إِيَّاهَا عِنْد استغنائها رَحمَه بالأمهات ، أفيجوز أن يكون هَذَا كُله بِلَا تَدْبِير مُدبر حَكِيم وَلَا عناية وَلَا لطف مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ".

لقد قَامَت أَدِلَّة ربوبيته وبراهين الهيته وشواهد حكمته وآيات قدرته فَلَا يَسْتَطِيع الْعقل لَهَا جحُودًا إِن هِيَ الا مُكَابَرَة بِاللِّسَانِ من كل جحود كفور " أَفِي الله شكّ فاطر السَّمَوَات وَالْأَرْض " وَإِنَّمَا يكون الشَّك فِيمَا تخفي ادلته وتشكل براهينه فاما من لَهُ فِي كل شَيْء محسوس اَوْ مَعْقُول آيَة بل آيَات مؤدية عَنهُ شاهدة لَهُ بِأَنَّهُ الله الَّذِي لَا اله إِلَّا هُوَ رب الْعَالمين فَكيف يكون فِيهِ شكّ "[2].

---

(1) سورة الأنعام.
(2) مفتاح دار السعادة.

(15فطنةُ النملةِ وحيلتها

" وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17)
حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ
لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) "[1]

وتأمل جيوش النمل ، فإنك تراها تسير معاً بعضها خلف بعض بانتظام ، وإذا ما أرادوا رفع حِملٍ ثقيل اجتمعوا عليه وتناولت كل نملةٍ منهن جانب ، فإنه كما قال الشاعر:

إذا العبء الثقيل إذا تقسمته * أكف القومِ خفّ على الرقابِ

وتأمل لهندسةِ بيتها وتصميمه ، وكيف أنها قسّمته إلى أقسام لكلِ قسمٍ منها هدف ، فتأمل ذلك واسأل نفسك من الذي علمها هذه العلوم ؟! .

قال ابن القيمِ رحمه الله تعالى :" ثمَّ تَأمل هَذِه النملة الضعيفة وَمَا أعطيته من الفطنة اَوْ الحيلة فِي جمع الْقُوت وادخاره وَحفظه وَدفع الافة عَنهُ فَإنَّك ترى فِي ذَلِك عبرا وآيات فترى جمَاعَة النَّمْل إِذا أَرَادَت إحْرَاز الْقُوت خرجت من اسرابها طالبة لَهُ فَإِذا ظَفرت بِهِ اخذت طَرِيقا من اسرابها اليه وشرعت فِي نَقله فتراها رفقتين رفْقَة حاملة تحمله الى بيوتها سربا ذَاهِبًا ورفقة خَارِجَة من بيوتها اليه لاتخالط تِلْكَ فِي طريقها بل هما كالخيطين بِمَنْزِلَة جمَاعَة النَّاس الذاهبين فِي طَرِيق وَالْجَمَاعَة الراجعين من جانبهم فَإِذا ثقل عَلَيْهَا حمل الشَّيْء من تِلْكَ اجْتمعت عَلَيْهِ جمَاعَة من النَّمْل وتساعدت على حَملَة بِمَنْزِلَة الْخَشَبَة وَالْحجر الَّذِي تتساعد الفئة من النَّاس عَلَيْهِ فَإِذا كَانَ الَّذِي ظفر بِهِ مِنْهُنَّ وحدة ساعدها رفقتها عَلَيْهِ الى بَيتهَا وخلوا بَينهَا وَبَينه وَإِن كَانَ الَّذِي صادفه جمَاعَة تساعدن عَلَيْهِ ثمَّ تقاسمنه على بَاب الْبَيْت .

وَلَقَد اخبر بعض العارفين انه شَاهد مِنْهُنَّ يَوْمًا عجبا قَالَ رايت نملة جَاءَت الى شقّ جَرَادَة فزاولته فَلم تطق حمله من الارض فَذَهَبت غير بعيد ثمَّ جَاءَت مَعهَا بِجَمَاعَة من النَّمْل قَالَ فَرفعت ذَلِك الشق من الارض فَلَمَّا وصلت النملة برفقتها الى مَكَانَهُ دارت حوله ودرن مَعهَا فَلم يجدن شَيْئا فرجعن فَوَضَعته ثمَّ جَاءَت فصادفته فزاولته فَلم تطق رَفعه فَذَهَبت غير بعيد ثمَّ جَاءَت بِهن فَرَفعته فدرن حول مَكَانَهُ فَلم يجدن شَيْئا فَذَهَبت فَوَضَعته فَعَادَت فَجَاءَت بِهن فَرَفعته فدرن حول الْمَكَان فَلَمَّا لم يجدن شَيْئا تحلقن حَلقَة وجعلن تِلْكَ النملة فِي وَسطهَا ثمَّ تحاملن عَلَيْهَا فقطعنها عضوا عضوا وَأَنا انْظُر.
وَمن عَجِيب امْر الفطنة فِيهَا إِذا نقلت الْحبّ إِلَى مساكنها كَسرته لِئَلَّا ينْبت ، فَإِن كَانَ مِمَّا ينْبت الفلقتان مِنْهُ كَسرته أربعا ، فَإِذا أصابه نداً وبلل وخافت عَلَيْهِ الْفساد أخرجته للشمس ثمَّ ترده الى بيوتها ، وَلِهَذَا ترى فِي بعض الأحيان حباً كثيراً على أَبْوَاب مساكنها مكسراً ، ثمَّ تعود عَن قريب فَلَا ترى مِنْهُ وَاحِدَة.
وَمن فطنتها انها لَا تتَّخذ قريتها إِلَّا على نشر من الارض لِئَلَّا يفِيض عَلَيْهَا السَّيْل فيغرقها فَلَا ترى قَرْيَة نمل فِي بطن وَاد وَلَكِن فِي أَعْلَاهُ وَمَا ارْتَفع عَن السَّيْل مِنْه.

---

(1) سورة النمل.

وَيَكْفِي فِي فطنتها مَا نَص الله عز وَجل فِي كِتَابه من قَوْلهَا لجَماعَة النَّمْل وَقد رَأَتْ سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام وَجُنُوده :" يَا ايها النَّمْل ادخُلُوا مَسَاكِنكُمْ لَا يحطمنكم سُلَيْمَان وجنوه وهم لايشعرون " فتكلمت بِعشْرَة انواع من الْخطاب فِي هَذِه النَّصِيحَة : النداء والتنبيه ، وَالتَّسْمِيَة والامر ، وَالنَّص والتحذير والتخصيص والتفهيم ، والتعميم والاعتذار ، فاشتملت نصيحتها مَعَ الِاخْتِصَار على هَذِه الانواع الْعشْرَة ؛ وَلذَلِك أعْجَبْ سليمان قَوْلهَا ، وَتَبَسم ضَاحِكا مِنْهُ ، وسأل الله أن يوزعه شكر نعْمَته عَلَيْهِ لمّا سمع كَلَامهَا ، وَلَا تستبعد هَذِه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بِحَمْد رَبهَا كَمَا فِي الصَّحِيح عَن النَّبِي قَالَ :" نزل نَبِي من الأنبياء تَحت شَجَرَة ، فلدغته نملة ، فَأمر بجهازه فَأخْرجهُ ثمَّ أحْرِقْ قَرْيَة النَّمْل ، فَأوحى الله إِلَيْهِ من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح ، فَهَلا نملة وَاحِدَة ؟! " "[1].

---

(1) مفتاح دار السعادة.

(16الطيور: طيرانُها وعجائبها

" أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79) " [1]



" رأيت قلعة حصينةً ملساء ، لا فُرجة فيها ولا باب
ظاهرها كالفضة ، وباطنها كالذهب
ثم رأيت الجدار ينشق ، فيخرج من القلعة حيوان سميع بصير له صوت
فعلمت ضرورةً أن الطبيعة لا تقدر على ذلك ، وأنه من فعل صانع حكيم خبير
فالقلعة هي البيضة ، والحيوان هو الطائر " [1]

ومن فاته أن يرى ناقة صالح وهي تخرج من الصخرة
فلينظر للطائر وهو يخرج من البيضة

لما أراد الإنسان أن يصنع الطائرة قام بالتأمل في خِلقةِ هذه الطيور وكيف تم صُنعُها ، فدرسوا أشكالها وتقنياتها ، فإن الإنسان إنما هو مُقلدٌ لما يراه في مخلوقات الله ، وإنك لتعجب من مُلحدٍ يأتي بعد ذلك فيقول :" هذا من صُنع الصدفة والطبيعة " !! ، وتأمل للمناورات التي تؤديها هذه الطيور فهي دروسٌ للطيران الحربي والعسكري ، بل هي مناورات لا تستطيعها الطائرات الحربية المقاتلة.

---

(1) نسبه بعضهم للشافعي كما في كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم المنسوب لأبي بكرٍ الخوارزمي، ونسبه بعضهم للإمام أحمد بن حنبل ، والله أعلم.

يقول ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل جسم الطَّائِر وخلقته ؛ فَإِنَّهُ حِين قُدِّر بَأن يكون طائراً فِي الجو خَفَّف جِسْمه ، وادمج خلقته ، وَاقْتصر بِهِ من القوائم الأربع على اثْنَتَيْنِ ، وَمن الأصابع الْخمس على أَرْبَعْ ، وَمن مخرج الْبَوْل والزبل على وَاحِدٍ يجمعهما جَمِيعًا ، ثمَّ خُلق ذَا جؤجؤ مَحْدُود ليسهل عَلَيْهِ اختراق الْهَوَاء كَيفَ توجه فِيهِ كَمَا يَجْعَل صدر السَّفِينَة بِهَذِهِ الْهَيْئَة ليشق المَاء بِسُرْعَة وتنفذ فِيهِ ، وَجعل فِي جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بهَا للطيران ، وكسى جِسْمه كُله الريش ليتداخله الْهَوَاء فيحمله.

وَلما قُدِّر أن يكون طَعَامه اللَّحْم وَالْحب يبلعه بلعاً بِلَا مضغ نقص من خلقه الأسنان ، وَخلق لَهُ منقار صلب يتَنَاوَل بِهِ طَعَامه فَلَا يتفسخ من لقط الْحبّ ، وَلَا ينقصفُ من نهش اللَّحْم ، وَلما عدم الأسنان وَكَانَ يزدرد الْحبّ صَحِيحاً وَاللَّحم غريضاً أُعين بِفضل حرارة فِي الْجوف تطحن الْحبّ وتطبخ اللَّحْم ، فاستغنى عَن المضغ ، وَالَّذِي يدلك على قُوَّة الْحَرَارَة الَّتِي أُعين بهَا أنك ترى عجم الزَّبِيب وَأَمْثَاله يخرج من بطن الإِنسان صَحِيحاً وينطبخ فِي جَوف الطَّائِر حَتَّى لَا يُرى لَهُ أثر .

ثمَّ اقْتَضَت الْحِكْمَة أن جعل يبيض بيضًا وَلَا يلد ولادَة ؛ لِئَلَّا يثقل عَن الطيران فَإِنَّهُ لَو كَانَ مِمَّا يحمل وَيمْكث حمله فِي جَوْفه حَتَّى يستحكم ويثقل لأثقله وعاقه عَن النهوض والطيران ، وَتَأمل الْحِكْمَة فِي كَون الطَّائِر الْمُرْسل السائح فِي الجو يُلهم صَبر نَفسه أسبوعاً أَوْ أسبوعين بِاخْتِيَارِهِ قَاعِداً على بيضه حاضنا لَهُ ، وَيحْتَمل مشقة الْحَبْس ، ثمَّ إِذا خرج فِرَاخه تحمل مشقة الْكسْب وَجمع الْحبّ فِي حوصلته وبزق فِرَاخه ، وَلَيْسَ بِذِي روية وَلَا فكرة فِي عَاقِبَة أَمْرَهْ ، وَلَا يؤمل فِي فِرَاخه مَا يؤمل الإِنسان فِي وَلَده من العون والرفد وَبَقَاء الذِّكر ، فَهَذَا من فعله يشْهد بِأَنَّهُ مَعْطُوف على فِرَاخه لعِلَّة لَا يعلمهَا هُوَ وَلَا يفكر فِيهَا من دوَام النَّسْل وبقائه "[1].

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى :" ثمَّ تَأمل خلقَة الْبَيْضَة وَمَا فِيهَا من المخ الاصفر الخاثر وَالْمَاء الأبيض الرَّقِيق ، فبعضه ينشأ مِنْهُ الفرخ ، وَبَعضه يغتذى مِنْهُ إِلَى أن يخرج من الْبَيْضَة ، وَمَا فِي ذَلِك من الْحِكْمَة – أي وتأمل ما في ذلك من الحكمة - فَإِنَّهُ لما كَانَ نشوءُ الفرخ فِي تِلْكَ الْبشرَة المنخفضة الَّتِي لَا نَفاذ فِيهَا للواصل من خَارج جعل مَعَه فِي جَوف الْبَيْضَة من الْغذَاء مَا يَكْتَفِي بِهِ الى خُرُوجه "[1].

ويقول رحمه الله عن حوصلة الطائر :" وَتَأمل الْحِكْمَة فِي حوصلة[2] الطَّائِر وَمَا قُدِّرت لَهُ فَإِن فِي مَسْلَك الطَّعَام إِلَى القابضة ضيق ، لَا ينفذ فِيهِ الطَّعَام إِلَّا قَلِيلاً ، فَلَو كَانَ الطَّائِر لَا يلتقط حَبَّة ثَانِيَة حَتَّى تصل الأولى إِلَى جَوْفه لطال ذَلِك عَلَيْهِ ، فَمَتَى كَانَ يَسْتَوْفِي طَعَامه ، وَإِنَّمَا يختلسه اختلاساً لشدَّة الحذر ، فَجعلت لَهُ الحوصلة كالمخلاة الْمُعَلقَة أمامه ليوعي فِيهَا مَا ازدرد من الطّعْم بِسُرْعَة ، ثمَّ ينْقل إِلَى القابضة على ، مهل وَفِي الحوصلة أيضاً خصْلَة أخرى فَإِن من الطير مَا يحْتَاج إِلَى أن يزق فِرَاخه ، فَيكون رده الطّعْم من قرب ليسهل عَلَيْهِ "[1].

ويقول رحمه الله عن ريش الطيور وزينتها :" ثمَّ تَأمل هَذِه الألوان والأصباغ والوشى الَّتِي ترَاهَا فِي كثير من الطير كالطاووس والدراج وَغَيرهمَا الَّتِي لَو خطت بدقيق الأقلام ووشيت بالأيدي لم يكن هَذَا ، فَمن أيْنَ فِي الطبيعة الْمُجَرَّدَة هَذَا التشكيل والتخطيط والتلوين والصبغ العجيب الْبَسِيط والمركب الَّذِي لَو اجْتمعت الخليقة على أن يحاكوه لتعذر عَلَيْهِم "[1] . قلتُ: آمنتُ بالله .

---

(1) مفتاح دار السعادة. (2) جاء في المعجم الغني أن الحوصلة هي كُرة في المرئ يختزن فيها الطائر غذائه قبل أن يمُرّ إلى معدته.

يقول رحمه الله مواصلاً :" فَتَأمل ريش الطاووس كَيفَ هُوَ ، فَإنَّك ترَاهُ كنسج الثَّوْب الرفيع من خيوط رفاع جداً قد أُلِّف بَعْضهَا إِلى بعض كتأليف الْخَيط إِلى الْخَيط بل الشعرة إِلى الشعرة ، ثمَّ ترى النسج إِذا مددته ينفتح قَلِيلا قَلِيلا وَلَا ينشق ليتداخله الْهَوَاء فينقل الطَّائِر إِذا طَار ، فترى فِي وسط الريشة عموداً غليظاً متيناً قد نسج عَلَيْهِ ذَلِك الثَّوْب كَهَيئَةِ الشّعْر ليمسكه بصلابته ، وَهُوَ القصبة الَّتِي تكون فِي وسط الريشة ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك أجوف يشْتَمل على الْهَوَاء فَيحمل الطَّائِر . فَأَي طبيعة فِيهَا هَذِه الْحِكْمَة والخبرة واللطف ؟!

ثمَّ لَو كَانَ ذَلِك فِي الطبيعة كَمَا يَقُولُونَ لكَانَتْ من أدل الدَّلَائِل وأعظم الْبَرَاهِين على قدرَة مبدعها ومنشئها وَعلمه وحكمته ، فَإِنَّهُ لم يكن ذَلِك لَهَا من نَفسهَا ، بل إِنَّمَا هُوَ لَهَا مِمَّن خلقهَا وأبدعها ، فَمَا كذبه الْمُعَطل هُوَ أحَدُ الْبَرَاهِين والآيات الَّتِي على مثله يزْدَاد إِيمَان الْمُؤمنِينَ ، وَهَكَذَا آيَات الله يضل بهَا من يَشَاء وَيهْدِي من يَشَاء ".

ومن عجيب ما وقفت عليه عن ريش الطيور ووظائفه ما وجدته عند البطريق ، فإن البطريق كما هو معلوم يعيش في مناطق باردة جليدية ، ويغطس في الماء بحثاً عن الطعام في تلك المياه الباردة ، ليس المُحير في الأمر أن يغطس في تلك المياه الباردة ، لكن المُحير في الأمر كيف لهذا البطريق أن يخرج من الماء باندفاع صاروخي يجعله يستطيع الخروج من الماء بل ويعلو على تلك الألواح الجليدية العالية بالنسبة له ، إذ أنه لا يستطيع أن يصعدها تسلقاً ، فجُعِل ريشه مخلوقاً بطريقةٍ يحتبس فيها الهواء بين ريشه ، وعندما يريد البطريق الخروج من أعماق البحر يقوم بإطلاق وتحرير هذا الهواء المختزن بين ريشه ، فيدفعه هذا الهواء بقوة إلى خارج السطح حتى يستطيع تجاوز اللوح الجليدي العالي.

ويقول ابن القيم :" تَأمل هَذَا الطَّائِر الطَّوِيل السَّاقَيْن وَأعرف الْمَنْفَعَة فِي طول سَاقيه فَإِنَّهُ يرْعَى أَكثر مرعاه فِي ضحضاح المَاء فتراه يركز على سَاقيه كَأَنه ربيئة فَوق مرقب ويتأمل مَا دب فِي المَاء ، فَإِذا رأى شَيْئا من حَاجته خطا خطوا رَفِيقًا حَتَّى يتَنَاوَلهُ . وَلَو كَانَ قصير القائمتين كَانَ إِذا خطا نَحْو الصَّيْد ليأخذه لصق بَطْنه بِالْمَاءِ فيثيره ويذعر الصَّيْد مِنْهُ فيفر ، فخلف لَهُ ذَلِك العمودان ليدرك بهما حَاجته وَلَا يفسد عليه مطلبه ، وكل طَائِر فَلهُ نصيب من طول السَّاقَيْن والعنق ليمكنه تنَاول الطّعْم من الأرض ، وَلَو طَال ساقاه وَقصرت عُنُقه لم يُمكنهُ أن يتَنَاوَل شَيْئاً من الأرض ، وَرُبمَا أعين مَعَ عُنُقه بطول المناقير لِيَزْدَادَ مطلبه سهولة عَلَيْهِ وإمكانا .

ثمَّ تَأمل هَذِه العصافير كَيفَ تطلب أكلها بِالنَّهَارِ كُله فَلَا هِيَ تفقده وَلَا هِيَ تَجدهُ مجموعاً معداً ، بل تناله بالحركة والطلب فِي الْجِهَات والنواحي ، فسبحان الَّذِي قدره ويسره كَيفَ لم يَجعله مما يتعذر عَلَيْهَا إِذا التمسته ويفوتها إِذا قعدت عَنهُ ، وَجعلهَا قادرة عَلَيْهِ فِي كل حِين وأوان بِكُل أرْض وَمَكَان حَتَّى من الجدران والأسطحة والسقوف تنَاوله بالهوينا من السَّعْي فَلَا يشاركها فِيهِ غير بني جِنْسهَا من الطير .

وَلَو كَانَ ما تقتات بِهِ يُوجد معداً مجموعا كُله كَانَت الطير تشاركها فِيهِ وتغلبها عَلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ لَو وجدته معداً مجموعاً لأكبت عَلَيْهِ بحرص ورغبة فَلَا تقلع عَنهُ وَإِن شبعت حَتَّى تبشم وتهلك ، وَكَذَلِكَ النَّاس لَو جعل طعامهم معداً لَهُم بِغَيْر سعي وَلَا تَعب أدى ذَلِك إِلَى الشره والبطنة ولكثر الْفساد وعمت الْفَوَاحِش وَالْبَغي فِي الأرض ، فسبحان اللَّطِيف الْخَبِير الَّذِي لم يخلق شَيْئا سدى وَلَا عَبَثا.

وَانْظُر فِي هَذِه الطير الَّتِي لَا تخرج إلا بِاللَّيْلِ كالبوم والهام والخفاش فَإِن أقواتها هيئت لَهَا فِي الجو لَا من الْحبّ وَلَا من اللَّحْم ، بل من البعوض والفراش وأشباههما مِمَّا تلتقطه من الجو - فتأخذ مِنْهُ بِقدر الْحَاجة ثمَّ تأوى إلى بيوتها فَلَا تخرج إلى مثل ذَلِك الْوَقْت بِاللَّيْلِ ، وَذَلِكَ أن هَذِه الضروب من البعوض والفراش وأشباههما مبثوثة فِي الجو لَا يكَاد يخلو مِنْهَا مَوضِع مِنْهُ ، وَاعْتبر ذَلِك بِأَن تضع سِرَاجًا بِاللَّيْلِ فِي سطح أَوْ عرصة الدَّار فيجتمع عَلَيْهِ من هَذَا الضَّرْب شَيْء كثير ، وَهَذَا الضَّرْب من الْفراش وَنَحْوهَا نَاقص الفطنة ، ضَعِيف الْحِيلَة ، لَيْسَ فِي الطير أضعف مِنْهُ وَلَا أجهل ، وَفِيمَا يرى من تهافته فِي النَّار وأنت تطرده عَنْهَا حَتَّى يحرق نَفسه دَلِيل على ذَلِك ، فَجعل معاش هَذِه الطُّيُور الَّتِي تخرج بِاللَّيْلِ من هَذَا الضَّرْب فتقتات مِنْهُ ، فَإِذا أَتَى النَّهَار انْقَطَعت إلى أوكارها ، فالليل لَهَا بِمَنْزِلَة النَّهَار لغَيْرهَا من الطير ، ونهارها بِمَنْزِلَة ليل غَيرهَا ، وَمَعَ ذَلِك فساق لَهَا الَّذِي تكفل بأرزاق الْخلق رزقها ، وخلقه لَهَا فِي الجو ، وَلم يَدعهَا بِلَا رزق مَعَ ضعفها وعجزها ، وَهَذِه إِحْدَى الحكم والفوائد فِي خلق هَذِه الْفراش وَالْجَنَادِب والبعوض ، فكم فِيهَا من رزق لَأمة تسبح بِحَمْد رَبهَا ، وَلَوْلَا ذَلِك لانتشرت وكثرت حتى أضرت بِالنَّاسِ ومنعتهم الْقَرار ، فَانْظُر إلى عَجِيب تَقْدِير الله وتدبيره كَيفَ اضْطر الْعُقُول إلى أن شهدت بربوبيته وَقدرته وَعلمه وحكمته ، وأن ذَلِك الَّذِي تشاهده لَيْسَ بِاتِّفَاق وَلَا بإهمال من سَائِر وُجُوه الأدلة الَّتِي لَا تتمكن الْفطر من جَحدهَا أصلا.

وَإِذ قد جرى الْكَلَام إلى الخفاش فَهُوَ من الْحَيَوَانَات العجيبة الْخلقَة بَين خلقَة الطُّيُور وَذَوَات الأربع وَهُوَ إلى ذَوَات الأربع أقْربْ ؛ فَإِنَّهُ ذُو أذنين ناشزتين وأسنان ودبر ، وَهُوَ يلد ولداً ويرضع وَيَمْشي على أرْبَعْ ، وكل هَذِه صفة ذَوَات الأربع ، وَله جَنَاحَانِ يطير بهما مَعَ الطُّيُور ، وَلما كَانَ بَصَره يضعف عَن نور الشَّمْس كَانَ نَهَاره كليل غَيره ، فَإِذا غَابَتْ الشَّمْس انْتَشَر ؛ وَمن ذَلِك سُميَّ ضَعِيف الْبَصَر أخفش ، والخفش ضعف الْبَصَر ، وَلما كَانَ كَذَلِك جعل قوته من هَذِه الطُّيُور الضِّعَاف الَّتِي لَا تطير إلا بِاللَّيْلِ .

وَقد زعم بعض من تكلم فِي الْحَيَوَان أنه لَيْسَ يطعم شَيْئاً وَإِنَّمَا غذاؤه من النسيم الْبَارِد فَقَط ، وَهَذَا كذب عَلَيْهِ وعَلى الْخلقَة ؛ لأنه يَبُول ، وَقد تكلم الْفُقَهَاء فِي بَوْله هَل هُوَ نجس لأنه بَوْل غير مَأْكُول اَوْ نجس مَعْفُو عَن يسيره لمَشَقَّة التَّحَرُّز مِنْهُ على قَوْلَيْنِ هما رِوَايَتَانِ عَن أحْمَد ، وَبَعض الْفُقَهَاء لَا ينجس بَوْله بِحَال وَهَذَا أقيس الأقوال ؛ إِذْ لَا نَص فِيهِ وَلَا يَصح قِيَاسه على الأبوال النَّجِسَة لعدم الْجَامِع الْمُؤثر ووضوح الْفرق ، وَلَيْسَ هَذَا مَوضِع اسْتِيفَاء الْحجَج فِي هَذِه المسألة من الْجَانِبَيْنِ ، وَالْمَقْصُود أنه لَو كَانَ لَا يأكل شَيْئاً لم يكن لَهُ أسنان ، إذ لَا معنى للأسنان فِي حق من لَا يأكل شَيْئاً ، وَلِهَذَا لما عدم الطِّفْل الرَّضِيع الأكل لم يُعْط الأسنان فَلَمَّا كبر وَاحْتَاجَ للغذاء أعين عَلَيْهِ بالأسنان الَّتِي تقطعه والأضراس الَّتِي تطحنه ، وَلَيْسَ فِي الخليقة شَيْء مهمل وَلَا عَن الْحِكْمَة بمعطل ، وَلَا شَيْء لَا معنى لَهُ ، وأما الحكم وَالْمَنَافِع فِي خلق الخفاش فقد ذكر مِنْهَا الأطباء فِي كتبهمْ مَا انْتَهَت إليه معرفتهم حَتَّى أن بَوْله يدْخل فِي بعض الأكحال ، فَإِذا كَانَ بَوْله الَّذِي لَا يخْطر بالبال فِيهِ مَنْفَعَة الْبَتَّةَ فَمَا الظَّن بجملته ؟!، وَلَقَد أخبر بعض من أشْهَدْ بِصدقَة أنه رأى رخاً - وَهُوَ طَائِر مَعْرُوف - قد عشَّش فِي شَجَرَة ، فَنظر إلى حَيَّة عَظِيمَة قد أَقبلت نَحْو عشه فَاتِحَة فاها لتبتلعه ، فَبَيْنَمَا هُوَ يضطرب فِي حِيلَة النجَاة مِنْهَا إِذْ وجد حسكة فِي العش فحملها فالقاها فِي فَم الْحَيَّة فَلم تزل تلتوى حَتَّى مَاتَت "[1]

(1) مفتاح دار السعادة.

(17ابن القيم البيطري وخلقة الزرافة

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :" ثمَّ تَأمل خلق الزرافة وَاخْتِلَاف أعضائها وَشبههَا بأعضاء جَمِيع الْحَيَوَان ، فرأسها رأس فرس ، وعنقها عنق بعير ، وأظلافها أظلاف بقرة ، وجلدها جلد نمر ، حَتَّى زعم بعض النَّاس أن لقاحها من فحول شَتَّى ، وَذكروا أن أصنافاً من حَيَوَان الْبر إِذا وَردت المَاء ينزو بَعْضهَا على بعض ، فتنزو المستوحشة على السَّائِمَة فتنتج مثل هَذَا الشَّخْص الَّذِي هُوَ كالملتقط من أناس شَتَّى ، وَمَا أرى هَذَا الْقَائِل إِلَّا كَاذِبًا عَلَيْهَا وعَلى الْخلقَة ؛ إِذْ لَيْسَ فِي الْحَيَوَان صنف يلقح صنفا آخر ، فَلَا الْجمل يلقح الْبَقر ، وَلَا الثور يلقح النَّاقة ، وَلَا الْفرس يلقحهما وَلَا يلقحانه ، وَلَا الوحوش يلقح بَعْضهَا بَعْضًا ، وَلَا الطُّيُور ، وَإِنَّمَا يَقع هَذَا نَادراً فِيمَا يتقارب كالبقر الوحشي والأهلي ، والضأن والمعز ، وَالْفرس وَالْحمار ، وَالذِّئْب والضبع ، فيتولد من ذَلِك الْبَغْل والسمع والعسبار. "

إلى أن قال رحمه الله :" وَالْمَقْصُود إبطال زعم أن هَذِه الْحَيَوَانَات الْمُخْتَلفَة يلقح بَعْضهَا بَعْضًا عِنْد الْمَوَارِد فتتكون الزرافة ، وَإِنَّهُ كَاذِب عَلَيْهَا وعَلى الإبداع ، وَالَّذِي يدل على كذبه أنه لَيْسَ الْخَارِج من بَين مَا ذكرنَا من الْفرس وَالْحمار وَالذِّئْب والضبع والضأن والمعز عُضْو من كل وَاحِد من أبيه وَأمه كَمَا يكون للزرافة عُضْو من الْفرس وعضو من الْجمل ، بل يكون كالمتوسط بَينهمَا الممتزج مِنْهُمَا كَمَا نشاهده فِي الْبَغْل ، فَإنَّك ترى رأسه وَأُذُنَيْهِ وكفله وحوافره وسطاً بَين أعضاء أبيه وأمه مُشْتَقَّة مِنْهُمَا ، حَتَّى تَجِد سجيحه كالممتزج من صَهِيل الْفرس ونهيق الْحمار ، فَهَذَا يدل على أن الزرافة لَيست بنتاج آبَاء مُخْتَلفَة كَمَا زعم هَذَا الزاعم ، بل من خلق عَجِيب وَوضع بديع من خلق الله الَّذِي أبدعه آيَةً دلَالَة على قدرته وحكمته الَّتِي لَا يعجزها شَيْء ليُرِي عباده أنه خَالق أصناف الْحَيَوَان كلهَا كَمَا يَشَاء وَفِي أَي لون شَاءَ ، فَمِنْهَا الْمُتَشَابه الْخلقَة المتناسب الأعضاء ، وَمِنْهَا الْمُخْتَلف التَّرْكِيب والشكل وَالصُّورَة ، كَمَا يُرِي عباده قدرته التَّامَّة فِي خلقه لنَوْع الإنسان على الأقسام الأربعة الدَّالَّة على أنه مَخْلُوق بقدرته ومشيئته تَابع لَهَا ، فَمِنْهُ مَا خلق من غير أب وَلَا أم وَهُوَ أَبُو النَّوْع الانساني ، وَمِنْه مَا خلق من ذكر بِلَا أنثى وَهِي أمهم الَّتِي خلقت من ضلع آدم ، وَمِنْه مَا خلق من أنثى بِلَا ذكر وَهُوَ الْمَسِيح ابْن مَرْيَم ، وَمِنْه مَا خلق من ذكر وأنثى وَهُوَ سَائِر النَّوْع الإنساني ، فَيُرِي عباده آيَاته ويتعرف إليهم بآلائه وَقدرته وَأَنه إِذا اراد شَيْئا أن يَقُول لَهُ كن فَيكون.

وأما طول عنق الزرافة وَمَا لَهَا فِيهِ من الْمصلحَة فَلِأَن منشأها ومرعاها كَمَا ذكر المعتنون بِحَالِهَا ومساكنها فِي غِيَاض ذَوَات أشجار شاهقة ذَاهِبَة طولا فأعينت بطول الْعُنُق لتتناول أطراف الشّجر الَّذِي هُنَاكَ وثمارها ، وَهَذَا مَا وصلت إليه معرفتهم وَحِكْمَة اللَّطِيف الْخَبِير فَوق ذَلِك وأجل مِنْه. "(1)

ونقل ابن القيم رحمه الله جواباً لشيخه ابن تيمية رحمه في مسألة دقيقة فأجاب عنه بجوابٍ يدلُ على عُمقِ علمٍ واسِع واطلاعٍ على مجالاتٍ شتى فقال :" وَسُئِلَ شَيخنَا أبو الْعَبَّاس ابن تَيْمِية قدس الله روحه عَن حمَار نزا على فرس فأحبلها ، فَهَل يكون لبن الْفرس حَلَالاً أَوْ حَرَامًا ؟ ، فَأجَاب بِأَنَّهُ حَلَال ، وَلَا حكم للفحل فِي اللَّبن فِي هَذَا الْموضع بِخِلَاف الأناسي (أي البشر) ؛ لَأن لبن الْفرس حَادث من الْعلف فَهُوَ تَابع للحمها ، وَلم يسر وطء الْفَحْل إِلَى هَذَا اللَّبن ، فَإِنَّهُ لَا حُرْمَة هُنَاكَ تَنْتَشِر بِخِلَاف لبن الْفَحْل فِي الأناسي فَإِنَّهُ تَنْتَشِر بِهِ حُرْمَة الرَّضَاع ، وَلَا حُرْمَة هُنَا تَنْتَشِر من جِهَة الْفَحْل."

---

(1) مفتاح دار السعادة.

(18التحدي بخلق الذبابة

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ
إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ
وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73)
مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74) "[1]

هذا تحدٍ من الله سبحانه وتعالى ، يبين كماله وقدرته سبحانه ونقص وعجز من سواه ، فإنك لو جمعت الأطباء والمهندسين والجن والإنس والكرة الأرضية بمن فيها فإنهم لن يخلقوا حتى ذبابة واحدة ، لن يستطيعوا أن ينفخوا فيها الروح .

وإذا كان الإنسان بعلمه وتطوره لا يقدر على خلق ذبابة واحدة ، فكيف للصدفة العمياء أن تخلقها ، بل كيف يُقال أن الصدفة أوجدت الكون والإتقان ؟ .

فهذا المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى يبين كماله واستحقاقه للعبادة ، وبطلان كل آلهة سواه ، فإن من طرق الاستدلال على استحقاق الله للعبادة والتوحيد إثبات كماله ونفي صفات الكمال عن غيره ، كما قال تعالى :" وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3) "[2] ، فتأمل كيف نفى وسلب عن تلك الآلهة صفات الكمال ، وقال تعالى :" أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) "[3] ، وقال تعالى :" وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ "[3] .

---

(1) سورة الحج.
(2) سورة الفرقان.
(3) سورة النحل.

(19الحيوانات الغوّاصة

عندما أراد الإنسان صناعة الغواصات قام بدراسة الأسماك ، فلو تأملت في الأسماك والغواصات لطرأ على ذهنك سؤال وهو " كيف تصعد وتغطس الأسماك والغواصات في البحر ؟" ، ولنُجيب على هذا الأمر علينا أن نعرف أن في الأسماك عضو يُسمى مثانة العوم أو المثانة الهوائية ، وهذا العضو عندما يتم ملؤه بالهواء يصعد بالسمكة إلى أعلى ، وعندما يتم تفريغه من الهواء يؤدي ذلك إلى زيادة كثافة السمكة وبالتالي تهبط غاطسة ، وبنفس الآلية تعمل الغواصة في البحر .

وإن في هذه الأسماك عجائب ، فإن تنفسها مختلفٌ عن تنفس من يعيش على البّر ، فلمّا قدَّر الله أن تتنفس هذه الأسماك في الماء خلق له وأعطاها وزوَّدها بما يناسب ذلك ، فهي لها خياشيم ليست لحيوانات البر ، وهذه الخياشيم ذات تركيب عجيب ، فسبحان من قدّر ذلك .

يقول ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل الْعبْرَة فِي السّمك وَكَيْفِيَّة خلقته ، وَأَنه خُلِق غير ذِي قَوَائِم ؛ لأنه لَا يحْتَاج إلى الْمَشْي ؛ إِذْ كَانَ مَسْكَنه المَاء ، وَلم يخلق لَهُ رئة ؛ لَأن مَنْفَعَة الرئة التنفس ، والسمك لم يحْتَج إليه ؛ لأنه ينغمس فِي المَاء ، وخلقت لَهُ عوض القوائم أجنحة شدادي يقذف بهَا من جانبيه كَمَا يقذف صَاحب الْمركب بالمقاذيف من جَانِبي السَّفِينَة ، وكسى جلده قشوراً متداخلة كتداخل الجوشن [1] ليقيه من الآفات ، وأُعين بِقُوَّة الشم ؛ لَأن بَصَره ضَعِيف وَالْمَاء يَحْجُبهُ ، فَصَارَ يشم الطَّعَام من بعد فيقصده.

وَقد ذكر فِي بعض كتب الْحَيَوَان أن من فِيهِ إلى صماخه منافذ ، فَهُوَ يصب المَاء فِيهَا بِفِيهِ ويرسله من صماخيه فيتروح بذلك كَمَا يَأْخُذ الْحَيَوَان النسيم الْبَارِد بِأَنْفِهِ ثمَّ يُرْسِلهُ ليتروح بِهِ ، فَإِن المَاء للحيوان البحري كالهواء للحيوان الْبري ، فهما بحران ، أحدهما ألطف من الآخر ، بَحر هَوَاء يسبح فِيهِ حَيَوَان الْبر ، وبحر مَاء يسبح فِيهِ حَيَوَان الْبَحْر ، فَلَو فَارق كل من الصِّنْفَيْنِ بحره إلى الْبَحْر الآخر مَاتَ ، فَكَمَا يختنق الْحَيَوَان الْبري فِي المَاء يختنق الْحَيَوَان البحري فِي الْهَوَاء .

فسبحان من لا يحصى العادون آيَاته ، وَلَا يحيطون بتفصيل آيَة مِنْهَا على الِانْفِرَاد ، بل إن علمُوا فِيهَا وَجها جهلوا مِنْهَا أوجها ، فَتَأمل الْحِكْمَة الْبَالِغَة فِي كَون السّمك أكثر الْحَيَوَان نَسْلًا ، وَلِهَذَا ترى فِي جوف السَّمَكَة الْوَاحِد من الْبيض مَا لا يُحْصى كَثْرَة ، وَحِكْمَة ذَلِك أن يَتَّسِع لما يغتذى بِهِ من أصناف الْحَيَوَان ؛ فَإِن أكثرها يَأْكُل السّمك حَتَّى السباع ؛ لأنها فِي حافات الآجام جاثمة تعكف على المَاء الصافي ، فَإِذا تعذر عَلَيْهَا صيد البر رصدت السّمك فاختطفته ، فَلَمَّا كَانَت السبَاع تَأْكُل السّمك ، وَالطير تَأْكُله ، وَالنَّاس تَأْكُله ، والسماك الْكِبَار تَأْكُله ، ودواب الْبر تَأْكُله ، وَقد جعله الله سُبْحَانَهُ غذَاء لهَذِهِ الأصناف اقْتَضَت حكمته أن يكون بِهَذِهِ الْكَثْرَة.

وَلَو رأى العَبْد مَا فِي الْبَحْر من ضروب الْحَيَوَانَات والجواهر والأصناف الَّتِي لَا يحصيها إلا الله ، وَلَا يعرف النَّاس مِنْهَا إِلَّا الشَّيْء الْقَلِيل الَّذِي لا نسبة لَهُ أصلا إلى مَا غَابَ عَنْهُم لرأي الْعجب ولعلم سَعَة ملك الله وَكَثْرَة جُنُوده الَّتِي لا يعلمها إِلَّا هُوَ " [2].

---

(1) الجوشن هو الدرع.   (2) مفتاح دار السعادة.

20)جيشُ الجراد

وتأمل غزو الجراد للبقاع ، فيهلك فيها الحرث والزرع ، إذ أنه عندما يهجُم يهجم بأعداد كثيرةٍ ، بل إنه لا يهجم بجيشٍ من المشاة ، بل يهجمُ بجيشٍ من الطائرات ، فتأمل شدَّة إفساد هذا الجيش مع صغرِ جسدِ جنده ، وتأمل كيف أن هذا بيانٌ للإنسان مؤذِن وإشارةٌ له إلى ضعفه .

يقول ابن القيم رحمه الله عن الجراد :" فَإِذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جنداً لَا مرد لَهُ وَلَا يُحْصى مِنْهُ عدد وَلَا عدَّة ، فَلَو جمع الْملك خيله وَرجله ودوابه وسلاحه ليصده عَن بِلَاده لما أمكنه ذَلِك ، فَانْظُر كَيفَ ينساب على الأرض كالسيل فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر حَتَّى يستر نور الشَّمْس بكثرته ، ويسد وَجه السَّمَاء بأجنحته ، ويبلغ من الجو إلى حَيْثُ لَا يبلغ طَائِر أكبر جناحين مِنْهُ .
فسل الْمُعَطل من الَّذِي بعث هَذَا الْجند الضَّعِيف الَّذِي لَا يَسْتَطِيع أن يرد عَن نَفسه حَيَوَاناً رام أخذه بلية على الْعَسْكَر أهل الْقُوَّة وَالْكَثْرَة وَالْعدَد وَالْحِيلَة ، فَلَا يقدرُونَ بأجمعهم على دَفعه ، بل ينظرُونَ إليه يستبد بأقواتهم دونهم ويمزقها كل ممزق ويذر الارض قفراً مِنْهَا وهم لَا يَسْتَطِيعُونَ أن يردوه وَلَا يحولوا بَينه وَبَينهَا .
وَهَذَا من حكمته سُبْحَانَهُ أن يُسَلط الضَّعِيف من خلقه الَّذِي لَا مُؤنَة لَهُ على القوي فينتقم بِهِ مِنْهُ وَينزل بِهِ مَا كَانَ يحذرهُ مِنْهُ حَتَّى لايستطيع لذَلِك رداً ولاصرفاً ، قَالَ الله تَعَالَى :" وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6 . " (
فواحسرتاه على استقامة مَعَ الله وإيثار لمرضاته فِي كل حَال يُمكن بِهِ الضَّعِيف المستضعف حَتَّى يرى من اسْتَضْعَفَهُ أنه أولى بِاللَّه وَرَسُوله مِنْهُ ، وَلَكِن اقْتَضَت حِكْمَة الله الْعَزِيز الْحَكِيم أن يَأْكُل الظَّالِم الْبَاغِي ، ويتمتع فِي خفارة ذنُوب الْمَظْلُوم المبغي عَلَيْهِ ، فذنوبه من أعظم أسباب الرَّحْمَة فِي حق ظالمه كَمَا أن المسؤول إِذا رد السَّائِل فَهُوَ فِي خفارة كذبه ،، وَلَو صدق السَّائِل لما أفلح من رده ، وَكَذَلِكَ السَّارِق وقاطع الطَّرِيق فِي خفارة منع أصحاب الأموال حُقُوق الله فِيهَا ، وَلَو أدوا مَا لله عَلَيْهِم فِيهَا لحفظها الله عَلَيْهِم ، وَهَذَا أيضاً بَاب عَظِيم من حِكْمَة الله ، يطلع النَّاظر فِيهِ على أسرار من أسرار التَّقْدِير وتسليط الْعَالم بَعضهم على بعض وتمكين الجناة والبغاة ، فسبحان من لَهُ فِي كل شَيْء حِكْمَة بَالِغَة وَآيَة باهرة ، حَتَّى أن الْحَيَوَانَات العادِيَة على النَّاس فِي أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش فِي خفارة مَا كسبت أيديهم ، وَلَوْلَا ذَلِك لم يُسَلط عَلَيْهِم مِنْهَا شَيْء ، وَلَعَلَّ هَذَا الْفَصْل الاستطرادي أنفع لمتأمله من كثير من الْفُصُول الْمُتَقَدّمَة ، فَإِنَّهُ إِذا أعطاه حَقه من النّظر والفكر عظم انتفاعه بِهِ جدا ، وَالله الْمُوفق.

ويحكى أن بعض أصحاب الْمَاشِيَة كَانَ يشوب اللَّبن ويبيعه على أنه خَالص فأرسل الله عَلَيْهِ سيلا فَذهب بالغنم ، فَجعل يعجب ، فأُتِي فِي مَنَامه فَقيل لَهُ " أتعجب من أخذ السَّيْل غنمك ؟ ، إنه تِلْكَ القطرات الَّتِي شبت بهَا اللبن ، اجْتمعت وَصَارَت سيلاً " ، فقس على هَذِه الْحِكَايَة مَا ترَاهُ فِي نَفسك وَفِي غَيْرك تعلم حِينَئِذٍ أن الله قَائِم بِالْقِسْطِ ، وأنه قَائِم على كل نفس بِمَا كسبت ، وأنه لَا يظلم مِثْقَال ذرة .

والأثر الإسرائيلي مَعْرُوف أن رجلاً كَانَ يشوب الْخمر ويبيعه على أنه خَالص ، فَجمع من ذَلِك كيس ذهب وسافر بِهِ ، فَركب الْبَحْر وَمَعَهُ قرد لَهُ ، فَلَمَّا نَام أخذ القرد الْكيس وَصعد بِهِ إِلى أعلى الْمركب ، ثمَّ فَتحه فَجعل يلقيه ، دِينَاراً فِي المَاء ، وديناراً فِي الْمركب ، كَأَنَّهُ يَقُول لَهُ بِلِسَان الْحَال ثمن المَاء صَار إِلى المَاء وَلم يظلمك .

وَتَأمل حِكْمَة الله عز وَجل فِي حبس الْغَيْث عَن عباده وابتلائهم بِالْقَحْطِ إِذا منعوا الزَّكَاة وحرموا الْمَسَاكِين كَيفَ جوزوا على منع مَا للْمَسَاكِين قبلهم من الْقُوت بِمَنْع الله مَادَّة الْقُوت والرزق وحبسها عَنْهُم ، فَقَالَ لَهُم بِلِسَان الْحَال منعتم الْحق فمُنِعتم الْغَيْث ، فَهَلّا استنزلتموه ببذل مَا لله قبلكُم.

وَتَأمل حِكْمَة الله تَعَالَى فِي صرفه الْهدى والإيمان عَن قُلُوب الَّذين يصرفون النَّاس عَنهُ ، فصدهم عَنهُ كَمَا صدوا عباده صدا بصد ومنعا بِمَنْع .

وَتَأمل حكمته تَعَالَى فِي محق أموال المرابين وتسليط الْمُتْلفَات عَلَيْهَا كَمَا فعلوا بأموال النَّاس ومحقوها عَلَيْهِم وأتلفوها بالربا جوزوا إتلافاً بإتلاف فَقلّ أن ترى مرابياً إِلَّا وآخرته إلى محق وَقلة وحاجة .

وَتَأمل حكمته تَعَالَى فِي تسليط الْعَدو على الْعباد إِذا جَار قويهم على ضعيفهم وَلم يُؤْخَذ للمظلوم حَقه من ظالمه كَيفَ يُسَلط عَلَيْهِم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سَوَاء ، وَهَذِه سنة الله تَعَالَى مُنْذُ قَامَت الدُّنْيَا إِلى أن تطوى الأرض وَيُعِيدهَا كَمَا بدأها .

وَتَأمل حكمته تَعَالَى فِي أن جعل مُلُوك الْعباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم ، بل كَأَن أَعْمَالهم ظَهرت فِي صور ولاتهم وملوكهم ، فَإِن استقاموا استقامت مُلُوكهمْ ، وَإِن عدلوا عدلت عَلَيْهِم ، وَإِن جاروا جارت مُلُوكهمْ وولاتهم ، وَإِن ظهر فيهم الْمَكْر والخديعة فولاتهم كَذَلِك ، وَإِن منعُوا حُقُوق الله لديهم وبخلوا بهَا منعت مُلُوكهمْ وولاتهم مَا لَهُم عِنْدهم من الْحق ونحلوا بهَا عَلَيْهِم ، وَإِن أخذوا مِمَّن يستضعفونه مَالاً يستحقونه فِي معاملتهم أخذت مِنْهُم الْمُلُوك مَالاً يستحقونه وَضربت عَلَيْهِم المكوس والوظائف ، وَكلما يستخرجونه من الضَّعِيف يَسْتَخْرِجهُ الْمُلُوك مِنْهُم بِالْقُوَّةِ ، فعمالهم ظَهرت فِي صور أعمالهم وَلَيْسَ فِي الْحِكْمَة الالهية أن يُولي على الأشرار الْفجار إلا من يكون من جنسهم ، وَلما كَانَ الصَّدْر الأول خِيَار الْقُرُون وأبرّها كَانَت ولاتهم كَذَلِك ، فَلَمَّا شابوا شابت لَهُم الْوُلَاة ، فَحكمة الله تأبى أن يولى علينا فِي مثل هَذِه الأزمان مثل مُعَاوِيَة وَعمر بن عبد العزيز فضلاً عَن مثل أبي بكر وَعمر ، بل ولاتنا على قَدرنَا ، وولاة من قبلنَا على قدرهم وكل من الامرين مُوجب الْحِكْمَة ومقتضاها "[1] .

قلتُ : وما الحاكم إلا واحد من الشعب ، فكما يكون الشعب يُولَّى عليه ، ولذلك كان منهج أهل السنة والجماعة أن يكون الإصلاح للمجتمع ككل ، فيبدؤون من قاعدة الهرم ، أما الذي يريد أن يغير الحاكم من أجل أن تنصلح البلاد فعليه أن يعلم أن ذلك ليس بكافٍ لإصلاحها ؛ إذ حاله كحال من ينظر إلى نفسه في المرآة ، فلمّا لم تعجبه صورته قام بكسر المرآة وأتى بمرآةٍ أُخرى ، فرأى صورته مجدداً فقام بتغيير المرآة ، وهكذا حاله يرى صورته في كل مرة ، فعِوضاً من أن يغير صورته فإنه يقوم بتغيير المرآة ، وليس ذلك من العقلِ السليم.

---

(1) مفتاح دار السعادة.

(21قصة عجيبة للدكتور فاضل السامرائي

حكى الدكتور فاضل السامرائي حفظه الله أنه كان في مرحلةٍ ما قد تخبط من بعض الحيرة والشكوك – أعاذنا الله وإياكم – حتى وصل إلى درجة أنه لا ينتبه لمن يكلمه في الطريق ، إلا أن يُمسكه من كتفيه ويهزه، إذ أن باله شارد ، وذكر أنه قرأ كُتباً كثيرة لتزيل ما به من الحيرة لكنها لم تجدي نفعاً ، إلى أن وقف يوماً على كتابٍ من كُتُب الحيوان يتحدث عن هذه الكائنات العجيبة ، فبدء بقراءته ، إلى أن وصل إلى أمرٍ استوقفه عن نوعٍ معين من البعوض ، إذ أن هذا النوع من البعوض عندما يريد أن يبيض يتجه إلى بركة ، ثم يقوم باستخدام موادٍ خيطية تخرج منه فيبني بها مثل السفينة ، ثم يضع بيضه فيها ويذهب ، الذي تعجب منه الدكتور ليس هذه المادة ولا هذا الفعل ، لكن الذي تعجب منه كيف أن صغار هذه البعوضة ينشؤون ويكبرون ثم يفعلون نفس ما فعلته أمهم دون أن يرونها أو يروا بعوضةً أخرى تفعل ذلك ، فمن الذي علم هذه الصغار وألهمها ذلك وهداها إليه ؟ ، من الذي ركَّب فيهم هذه العلوم ؟ ، أنه خالقها سبحانه وتعالى.

المحطة الثالث: التفكر في النباتات

"أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7(
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) "[1]

" سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36) "[2]

" فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24)
أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28)
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32) "[3]

عالم النبات عالمٌ مليءٌ بالآيات ، وقد ذكر الله في القرآن عِدة نباتات كالتين والزيتون وغيره ، وذكر من عجائبها ما ذكر ، نذكُر بعضاً منها.

---

(1) سورة الشعراء.
(2) سورة يس.
(3) سورة عبس.

(1)نموه من بذرة

من عجيب أمر النبات أن خلقه يتمُ من داخله على عكس ما يصنعه الإنسان ، فالإنسان إذا ما أراد أن يبني بيتاً مثلاً هيئ لها - أولاً - أرضاً خالية ، ثم أتى بموادِ البناء من الخارج ، فأتى بالرمل والأسمنت والحجارة وغيرها ، أما في خلق الله عز وجل لهذه النباتات فإنك تجدها تخرج من داخل بذرةٍ واحدة ، فتخرج منها الجذور - التي هي آلة التغذية - إلى الأسفل ، وتخرج منها السيقان والفروع إلى الأعلى ، وتخرجُ منها الأوراق والثمار ، فسبحان القدير الخالق.

يقول ابن القيم رحمه الله عن غذاء النباتات:" وتأمل تَقْدِير اللَّطِيف الْخَبِير ، فَإِن الأشجار لما كَانَت تحْتَاج إِلى الْغذَاء الدَّائِم كحاجة النَّاس وَسَائِر الْحَيَوَان وَلم يكن لَهَا قُوَّة أَفْـوَاه كأفواه الْحَـيَوَان وَلَا حَرَكَة تنبعث بهَا لتناول الْغذَاء جعلت أصولها مركوزة فِي الأرض ليسرع بهَا الْغذَاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه إلى أَغْصَانهَا ، فتؤديه الأغصان إلى الْوَرق وَالثَّمر ، كل لَهُ شرب مَعْلُوم لَا يتعداه ، يصل إليه فِي مجاري وطرق قد أحكمت غَايَة الأحكام ، فتأخذ الْغذَاء من أسفل فتلقمه بعروقها كَمَا يلتقم الْحَيَوَان غذاءه بفمه ، ثمَّ تقسمه على حملهَا - بِحَسب مَا يحْتَملهُ - فتعطى كل جُزْء مِنْهُ بِحَسب مَا يحْتَاج إليه لَا تظلمه وَلَا تزيده على قدر حَاجته ، فسل الجاحد من أعطاها هَذَا وَمن هداها إليه وَوَضعه فِيهَا ، فَلَو اجْتمع الأولون والآخرون هَل كَانَت قدرتهم وإرادتهم تصل إلى تربية ثَمَرَة وَاحِدَة مِنْهَا هَكَذَا بإشارة أَوْ صناعة اَوْ حِيلَة اَوْ مزاولة ؟! ، وَهل ذَلِك إلا من صُنعِ من شهِدت لَهُ مصنوعاته ودلّت عَلَيْهِ آيَاته "(1).

ويقول رحمه الله متأملاً في بديع خلق الله في ورقة الشجر :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة فِي خلق الْوَرق ، فَإنَّك ترى فِي الورقة الْوَاحِدَة من جملَة الْعُرُوق الممتدة فِيهَا المبثوثة فِيهَا مَا يبهر النَّاظر ، فَمِنْهَا غِلَاظ ممتدة فِي الطول وَالْعرض ، وَمِنْهَا دقاق تتخلل تِلْكَ الْغِلَاظ منسوجة نسجاً دَقِيقًا معجباً لَو كَانَ مِمَّا يتَوَلَّى الْبشر صنع مثله بِأَيْدِيهِم لما فرغوا من ورقة فِي عَام كَامِل ولاحتاجوا فِيهِ إلى آلات وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عَن تَحْصِيله ، فَبَثَّ الخلاق الْعَلِيم فِي أَيَّام قَلَائِل من ذَلِك مَا يمْلَأ الأرض سهلها وجبالها بِلَا آلات وَلَا معِين وَلَا معالجة إن هِيَ إِلَّا إرادته النافذة فِي كل شَيْء ، وَقدرته الَّتِي لَا يمْتَنع مِنْهَا شَيْء ، " إِنَّمَا امْرَهْ إِذا اراد شَيْئا ان يَقُول لَهُ كن فَيكون."

فَتَأمل الْحِكْمَة فِي تِلْكَ الْعُرُوق المتخللة الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل إليها الْمَادَّة فتحفظ عَلَيْهَا حَيَاتهَا ونضارتها بِمَنْزِلَة الْعُرُوق المبثوثة فِي الأبدان الَّتِي توصل الْغذَاء إلى كل جُزْء مِنْهُ ، وَتَأمل مَا فِي الْعُرُوق الْغِلَاظ من إِمْسَاكهَا الْوَرق بصلابتها ومتانتها لِئَلَّا تتمزق وتضمحل ، فَهِيَ بِمَنْزِلَة الأعصاب لبدن الْحَيَوَان ، فتراها قد أحكمت صنعتها ، ومدت الْعُرُوق فِي طولهَا وعرضها لتتماسك فَلَا يعرض لَهَا التمزق.

ثمَّ تَأمل حِكْمَة اللَّطِيف الْخَبِير فِي كَونهَا جعلت زِينَة للشجر وستراً ولباساً للثمرة ووقاية لَهَا من الآفات الَّتِي تمنع كمالها ، وَلِهَذَا إِذا جردت الشَّجَرَة عَن وَرقهَا فَسدتْ الثَّمَرَة وَلم ينْتَفع بهَا ، وَانْظُر كَيفَ جعلت وقاية لمنبت الثَّمَرَة الضعيفة من اليبس ، فَإِذا ذهبت الثَّمَرَة بَقِي الْوَرق وقاية لتِلْك الأفنان الضعيفة من الْحر حَتَّى إِذا طفئت تِلْكَ الْجَمْرَة وَلم يضر الأفنان عرّاها من وَرقهَا وسلبها إِيَّاه لتكتسي لباساً جَدِيداً أحسن مِنْهُ ، فتبارك الله رب الْعَالمين الَّذِي يعلم مساقط تِلْكَ الاوراق ومنابتها ، فَلَا تخرج مِنْهَا ورقة إلا بإذنه ، وَلَا تسْقط إلا بِعِلْمِهِ "(1).

---

(1) مفتاح دار السعادة.

وقال رحمه الله :" ثمَّ تَأمل حكمته سُبْحَانَهُ فِي إبداع الْعَجم والنوى فِي جَوف الثَّمَرَة وَمَا فِي ذَلِك من الحكم والفوائد الَّتِي مِنْهَا أنه كالعظم لبدن الْحَيَوَان ، فَهُوَ يمسك بصلابته رخاوة الثَّمَرَة ورقتها ولطافتها ، وَلَوْلَا ذَلِك لشدخت وتفسخت ولأسرع اليها الْفساد ، فَهُوَ بِمَنْزِلَة الْعظم والثمرة بِمَنْزِلَة اللَّحْم الَّذِي يكسوه الله عز وَجل الْعِظَام ، وَمِنْهَا أن فِي ذَلِك بَقَاء الْمَادَّة وحفظها ، إِذْ رُبمَا تعطلت الشَّجَرَة اَوْ نوعها ، فخلق فِيهَا مَا يقوم مقَامهَا عِنْد تعطلها وَهُوَ النَّوَى الَّذِي يغْرس فَيَعُود مثلهَا ، وَمِنْهَا مَا فِي تِلْكَ الْحُبُوب من أقوات الْحَيَوَانَات وَمَا فِيهَا من الْمَنَافِع والأدهان والأدوية والأصباغ وضروب أُخر من الْمصَالح الَّتِي يتعلمها النَّاس ، وَمَا خَفِي عَلَيْهِم مِنْهَا أكثر ، فَتَأمل الْحِكْمَة فِي إخراجه سُبْحَانَهُ هَذِه الْحُبُوب لمنافع فِيهَا وكسوتها لَحْمًا لذيذاً شهياً يتفكه بِهِ ابْن آدم .

ثمَّ تَأمل هَذِه الْحِكْمَة البديعة فِي أن جعل للثمرة الرقيقة اللطيفة الَّتِي يُفْسِدهَا الْهَوَاء وَالشَّمْس غلافاً يحفظها وغشاء يواريها كالرمان والجوز واللوز وَنَحْوه ، وَأما مَا لا يفْسد إذا كَانَ بارزاً فَجعل لَهُ أول خُرُوجه غشاء يواريه لضَعْفه ولقلة صبره على الْحر ، فَإِذا اشْتَدَّ وقوي تفتق عَن ذَلِك الغشاء وضحى للشمس والهواء كطلع النّخل وَغَيره .

ثمَّ تَأمل خلقة الرُّمَّان وماذا فِيهِ من الحكم والعجائب ؛ فَإِنَّك ترى دَاخل الرمانة كأمثال القلال شحماً متراكماً فِي نَوَاحِيهَا ، وَترى ذَلِك الْحبّ فِيهَا مرصوفاً رصفاً ومنضوداً نضداً لا تُمكنُ الأيدي أن تنضده ، وَترى الْحبّ مقسوماً أقساماً وفرقاً ، وكل قسم وَفرْقَة مِنْهُ ملفوفاً بلفائف وحجب منسوجة أعْجَبْ نسج وألطفه وأدقه. "

ويقول ابن القيم رحمه الله عن حمل الأشجار وولادتها :" حَتَّى إِذا آن وَقت الْوِلَادَة كُسِيت من سَائِر الملابس الفاخرة من النُّور وَالْوَرق مَا تتبختر فِيهِ ، وتميس بِهِ ، وتفخر على الْعَقِيم ، فَإِذا ظَهرت أولادها وَبَان للنَّاظِر حملهَا علم حِينَئِذٍ كرمها وطيبها من لؤمها وبخلها ، فَتَوَلّى تغذية ذَلِك الْحمل من تولى غذَاء الأجنحة فِي بطُون أمهاتها ، وَكَسَاهَا الأوراق ، وصانها من الْحر وَالْبرد ، فَإِذا تَكَامل الْحمل وآن وَقت الْفِطَام تدلت إليك أفنانها كَأَنَّمَا تناولك ثَمَرَة درها ، فَإِذا قابلتها رأيت الأفنان كَأَنَّهَا تلقاك بِأَوْلَادِهَا ، وتحييك وتكرمك بهم وتقدمهم إليك حَتَّى كَأَن مناوَلاَ يناولك إِيَّاهُم بِيَدِهِ وَلَا سِيمَا قطوف جنَّات النَّعيم الدانية الَّتِي يَتَنَاوَلهَا الْمُؤمن قَائِماً وَقَاعِداً ومضطجعاً.

وكَذَلِكَ ترى الرياحين كَأَنَّهَا تحييك بأنفاسها وتقابلك بِطيب رائحتها ، وكل هَذَا إكْرَاما لَك وعناية بِأَمْرك وتخصيصا لَك وتفضيلا على غَيْرك من الْحَيَوَانَات ، أفيجمل بك الِاشْتِغَال بِهَذِهِ النعم عَن الْمُنعم بهَا ؟! ، فَكيف إِذا استعنت بهَا على مَعَاصيه وصرفتها فِي مساخطه ؟! ، فَكيف إِذا جحدته وأضفتها إلى غَيره كَمَا قَالَ : " وتجعلون رزقكم أَنكُمْ تكذبون " ؟. !

فجدير بِمن لَهُ مسكة من عقل أن يُسَافر بفكره فِي هَذِه النعم وَالآلَآء ويكرر ذكرهَا لَعَلَّه يوقفه على الْمُرَاد مِنْهَا ما هو ، ولأي شَيْء خلق ، ولماذا هيء ، وَأي أَمْر طلب مِنْهُ على هَذِه النعم ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :" واذْكُرُوا آلَاء الله لَعَلَّكُمْ تفلحون " ، فَذكر آلائه تبَارك وَتَعَالَى ونعمه على عَبده سَبَب الْفَلاح والسعادة ؛ لِأَن ذَلِك لَا يزِيدهُ إلا محبَّة لله وحمداً وشكراً وَطَاعَة وشهود تَقْصِيره ، بل تفريطه فِي الْقَلِيل مِمَّا يجب لله عَلَيْهِ وَللَّه در الْقَائِل: قد هيؤوك لأمر لَو فطنت لَهُ ... فاربأ بِنَفْسِك ان ترعى مَعَ الهمل "(1).

وتأمل كيف أن هذه الأشجار أنواعاً مختلفة ، لكلٍ منها ما يفيد الإنسان في مختلف الصناعات ويصلح له ، فمنها ما يُصنع من أخشابه السُفن لطفوه على الماء ، ومنها ما هو أنسب للأثاث ، وهكذا.

---

(1) مفتاح دار السعادة.

(2خروج الثمار

" وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ
فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ، نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ
وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ
انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ
إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99) "[1]

انظر لتلك الشجرة * ذات الغصون النضرة
كيف نَمَتْ من حبةٍ * وكيف صارت شجرة
ابحث ، وقل من ذا الذي يُخرِجُ منها الثمرة
إنه الله الذي أنعمه منهمرة

قال ابن القيم رحمه الله عن قول الله تعالى :" انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ " :" فَأمر سُبْحَانَهُ بِالنّظرِ إِليه وَقت خُرُوجه وإثماره وَوقت نضجه وإدراكه - يُقَال اينعت الثِّمَار إِذا نَضِجَتْ وَطَابَتْ - لِأَن فِي خُرُوجه من بَين الْحَطب وَالْوَرق آيَة باهرة "[2]

وقال رحمه الله :" وَقَالَ بعض السّلف حق على النَّاس ان يخرجُوا وَقت إِدْرَاك الثِّمَار وينعها فينظروا اليها "[2].

وتأمل إلى اختلاف أنواع الثمار وألوانها ووظائفها وروائحها ، فمنها ما يُلتذُّ به ، ومنها العقاقير والأدوية ، ومنها ما يصلحُ للحيوان فيكون غذاءً له ، والحيوانات تختلف فناسب ذلك اختلاف الثمار والنباتات والأشجار ، فيجد كل حيوانٍ ما يناسبه.

قال ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل كَيفَ اقْتَضَت الْحِكْمَة الالهية موافات أصناف الْفَوَاكِه وَالثِّمَار للنَّاس بِحَسب الْوَقْت المُشَاكِل لَهَا الْمُقْتَضى لَهَا فتوافيهم كموافاة المَاء للظمآن فتتلقاها الطبيعة بانشراح واشتياق منتظرة لقدومها كانتظار الْغَائِب للْغَائِب فَلَو كَانَ نَبَات الصَّيف إنما يوافي فِي الشتَاء لصادف من النَّاس كَرَاهِيَة واستثقالا بوروده مَعَ مَا كَانَ فِيهِ من الْمضرَّة للأبدان والأذى لَهَا وَكَذَلِكَ لَو وافى مَا فِي ربيعها فِي الخريف اَوْ مَا فِي خريفها فِي الرّبيع لم يَقع من النُّفُوس ذَلِك الْموقع وَلَا استطابته واستلذته ذَلِك الالتذاذ وَلِهَذَا تَجِد الْمُتَأَخر مِنْهَا عَن وقته مملولا محلول الطّعْم وَلَا يظنّ أن هَذَا لجَرَيَان الْعَادة الْمُجَرَّدَة بذلك فَإِن الْعَادة إِنَّمَا جرت بِهِ لأنه وفْق الْحِكْمَة والمصلحة الَّتِي لَا يخل بهَا الْحَكِيم الْخَبِير "[2].

وتأمل ما جُعِل لهذه النباتات من الثياب والأغشية التي تحميها ، فتأمل قِشر الموز مثلاً ، وتأمل كيف يكونُ مُفصَّلاً على قدر هذه الثمرة كأنما خاطها لها أحسنُ خياط .

وتأمل اختلاف البذور في هذه النباتات ، فمنها ما بذوره داخله كالبرتقال ، ومنها ما بذوره خارجه كالفراولة ، ومنها ما لا بذور له كالموز ، لتعلم أن الله على كل شيء قدير .

---

(1) سورة الأنعام. (2) مفتاح دار السعادة.

(3مواضع نمو الثمار

وتأمل كيف أن ثقيل الثمار ينمو على الأرض كالبطيخ ، فلو كان ينمو على الأشجار لسقط على الناس وقتلهم ، ولكان يصعُبُ تناوله ، وإذا تساقط انفجر ، لكن اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن ينمو على الأرض فيكون سهل التناول وآمناً على البشر ، وجعل له قشرةً سميكةً تمنعه الآفات فلا تتسلط عليه.

وتأمل كيف يكون خفيف النبات عالياً في الشجر ، فيجتمع بذلك الثمر وظلُ الشجر ، ولو كانت الأشجار بلا ثمار لزهِد فيها كثيرٌ من الناس ، والحِكمُ في ذلك أكثر مما ذكرنا ، والله أعلم وأحكم.

يقول ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة فِي شَجَرَة اليقطين والبطيخ والجزر كَيفَ لما اقْتَضَت الْحِكْمَة أن يكون حمله ثمارًا كبارًا جُعِل نَبَاته منبسطاً على الأرض ؛ إِذْ لَو انتصب قَائِماً - كَمَا ينْتَصب الزَّرْع - لضعفت قوته عَن حمل هَذِه الثِّمَار الثَّقِيلَة ، ولنقصت قبل إدراكها وانتهائها إِلى غاياتها ، فاقتضت حِكْمَة مبدعها وخالقها أن بَسطه ومدّه على الأرض ليلقي عَلَيْهَا ثماره ، فتحملها عَنهُ الأرض فترى الْعرق الضَّعِيف الدَّقِيق من ذَلِك منبسطا على الأرض ، وثماره مبثوثة حواليه ، كَأَنَّهَا حَيَوَان قد اكتنفها جِراؤها [1] فَهِيَ ترضعهم.

وَلما كَانَ شجر اللوبيا والباذنجان والباقلاء وَغَيرهَا مِمَّا يقوى على حمل ثَمَرَته انبته الله منتصبا قَائِما على سَاقه ، إِذْ لَا يلقى من حمل ثماره مُؤنَة وَلَا يضعف عَنهُ "[2].

(1) جمع جرو ، وهو ولد الكلب.
(2) مفتاح دار السعادة.

(4ميِّتٌ يُحييه اللهُ أمامك

" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً
فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى
إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) "[(1)]

من أبين وأظهر أدلة البعث رؤية المؤمن لميتٍ يُحييه الله أمامه ، فهذه الأرض الميتة القاحلة التي لا نبات فيها يحيها الله عز وجل فتُخرِجُ من أنواع الزروع ما تُخرِج ، فكما أن هذه الأرض الميتة تُخرِج الزرع من بطنها ، فإن الأموات كذلك سيُخرَجون أحياء من قبورهم .

يقول الله سبحانه وتعالى مبيناً حججاً عقليةً باهرة وكافيةٌ لمن أراد الحق ، يقول الله تعالى :" وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9) "[(2)] ، وقال سبحانه :" وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11) "[(3)] .

ويقول الله سبحانه وتعالى :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ؛ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7) "[(4)] ، فتأمل ذكر الله عز وجل دليل النشأة الأولى على البعث ، واتبع ذلك بدليل إحياء الأرض بعد موتها ، وبعد بيان هذه الأدلة وقطعيتها إلا أن بعد كل هذا لا يزال كثيرٌ من الناس يُنكِرون البعث عياذاً بالله ، يقول الله تعالى بعد الآيات المتقدمة: " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8. " (

ومن الأدلة على قدرةِ الله عز وجل على إحيائه للموتى خلق الإنسان أول مرة وخلقه من عَدم ، يقول الله سبحانه وتعالى :" وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) "[(5)] ، هذا حال الكافر المنكر للبعث ، يستنكر كيف يمكن ذلك ، فيأتيه الرد من الله سبحانه وتعالى :" أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68." (

وقال تعالى :" وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ... (27) "[(6)] ، فالله عز وجل بدأ الخلق من العدم ، وهو قادرٌ على إعادة هذا الخلق وهو أهون عليه ؛ إذ الخلق من عدم أكبر من إحياء الموتى ، " كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) "[(7)] .

---

(1) سورة فصلت.
(2) سورة فاطر.
(3) سورة ق.
(4) سورة الحج.
(5) سورة مريم.
(6) سورة الروم. (7) سورة البقرة.

وقال تعالى :" كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) "[1]، وقال :" وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) "[2] .

وتأمل كيف ذكر الله عز وجل وقرن بين قدرته وبين إحياء الموتى وبعثهم ، قال تعالى :" فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) "[3] ، وقال تعالى في سورة القيامة والتي تناولت مسألة البعث :" أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40) "[4] ، فالذي خلق الإنسان من نطفة ، وجعل منه الزوجين الذكر والأنثى قادرٌ على إحياء الموتى.

وقال سبحانه وتعالى :" أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) "[5] ، ذكر أهل التفسير أن أحد المشركين أتى للنبي صلى الله عليه وسلم بعظامٍ بالية ، ففتها أمام النبي صلى الله عليه وسلم وقال له :" من يحيي هذا وهي رميم ؟ " فأنزل الله الآيات[6] .

وقال تعالى :" وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51) "[7] .

ولمّا سأل زكريا عليه السلام ربه الذرية الصالحة وبُشِّر بيحيى " قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) "[8] ، فقال الله عز وجل :" قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) "[8] .

"لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57) "[9] ، قال سبحانه وتعالى :" أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) "[5] ، " أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15) "[10] ، أي :" أفعجزنا عن خلقكم أول مرة حتى نعجز عن بعثكم ؟ "[11] ، فكما أن الله عز وجل لم يعيى بذلك فإنه سبحانه لا تعييه الإعادة.

فهذه كلها حُججٌ قُرآنية عقلية في إثبات البعث ، والعجيب من يظن من الناس أن القرآن لا حجج عقلية فيه!، إذ كيف يقول ذلك والقرآن مليءٌ بالحجج العقلية ومخاطبة العقول والأمر باستعمالها ؟.

---

(1) سورة الأعراف. (2) سورة فصلت. (3) سورة الطارق. (4) سورة القيامة. (5) سورة يس.
(6) راجع تفسير الطبري. (7) سورة الإسراء. (8) سورة مريم. (9) سورة غافر. (10) سورة ق.
(11) التفسير المختصر.

المحطة الرابع: التفكر في الإنسان

1) خلق الإنسان

" يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8) "(1)

" لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) "(2)

قل للجنين يعيش معزولاً بلا راعٍ ومرعى :" ما الذي يرعاك ؟! "

يقول ابن القيم رحمه الله :" فأعد الآن النّظر فِيك وَفِي نَفسك مرّة ثَانِيَة ، من الَّذِي دبرك بألطف التَّدْبِير وأنت جَنِين فِي بطن أمك فِي مَوضِع لَا يَد تنالك وَلَا بصر يدركك وَلَا حِيلَة لَك فِي التمَاس الْغذَاء وَلَا فِي دفع الضَّرَر ، فَمن الَّذِي أجرى إليك من دم الأم مَا يغذوك كَمَا يغذو المَاء النَّبَات ، وقَلَبَ ذَلِك الدَّم لَبَنًا ، وَلم يزل يغذّيك بِهِ فِي أضيق الْمَوَاضِع وأبعدها من حِيلَة التكسب والطلب .

حَتَّى إِذا كمل خلقك واستحكم وقوي أديمك على مُبَاشرَة الْهَوَاء ، وبصرك على ملاقاة الضياء ، وصلبت عظامك على مُبَاشرَة الأيدي والتقلب على الغبراء هاج الطلق بأمك فأزعجك إِلَى الْخُرُوج إيما إزعاج إِلَى عَالم الِابْتِلَاء ، فركضك الرَّحِم ركضة من مَكَانك كَأَنَّهُ لم يضمك قطّ وَلم يشْتَمل عَلَيْك فِيمَا بعد مَا بَين ذَلِك الْقبُول والاشتمال حِين وضعت نُطْفَة وَبَين هَذَا الدّفع والطرد والإخراج ، وَكَانَ مبتهجاً بحملك فَصَارَ يستغيث ويعج إِلَى رَبك من ثقلك ، فَمن الَّذِي فتح لَك بَابه حَتَّى ولجت ، ثمَّ ضمه عَلَيْك حَتَّى حفظت وكملت ، ثمَّ فتح لَك ذَلِك الْبَاب ووسعه حَتَّى خرجت مِنْهُ كلمح الْبَصَر لم يخنقك ضيقه وَلم تحبسك صعوبة طريقك فِيهِ .

فَلَو تَأَمَّلت حالك فِي دخولك من ذَلِك الْبَاب وخروجك مِنْهُ لذهب بك الْعجب كل مَذْهَب ، فَمن الَّذِي أوحى إليه أن يتضايق عَلَيْك وأنت نُطْفَة حَتَّى لا تفسد هُنَاكَ ، وأوحى إليه أن يَتَّسِع لَك وينفسح حَتَّى تخرج مِنْهُ سليماً ، إلى أن خرجت فريداً وحيداً ضَعِيفاً ، لَا قشرة وَلَا لِبَاس وَلَا مَتَاع وَلَا مَال ، أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم ، فصرف ذَلِك اللَّبن الَّذِي كنت تتغذى بِهِ فِي بطن أمك إلى خزانتين معلقتين على صدرها تحمل غذاءك على صدرها كَمَا حَملتك فِي بَطنهَا ، ثمَّ سَاقه إلى تينك الخزانتين ألطف سوق ، على مجار وطرق قد تهيأت لَهُ ، فَلَا يزَال وَاقِفًا فِي طرقه ومجاريه حَتَّى تستوفي مَا فِي الخزانة فيجري وينساق إليك ، فَهُوَ بِئْر لا تنقطع مادتها ، وَلَا تنسد طرقها ، يَسُوقهَا إليك فِي طرق لَا يَهْتَدِي إليها الطّواف ، وَلَا يسلكها الرِّجَال .

---

(1) سورة الانفطار.

(2) سورة التين.

فَمن رققه لَك وصفاه وأطاب طعمه وَحسّن لَونه وأحكم طبخه أعْدِلْ إحكام ، لَا بالحار المؤذي ، وَلَا بالبارد الرديء ، وَلَا المر وَلَا المالح وَلَا الكريه الرَّائِحَة ، بل قلبه إِلى ضرب آخر من التغذية وَالْمَنْفَعَة خلاف مَا كَانَ فِي الْبَطن ، فوافاك فِي أَشد أوقات الْحَاجة إليه على حِين ظمأ شَدِيد وجوع مفرط ، جمع لَك فِيهِ بَين الشَّرَاب والغذاء .

فحين تولد قد تلمظت وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدي الْمُعَلق كالأداوة قد تدلى إليك وَأَقْبل بدره عَلَيْك ، ثمَّ جعل فِي رأسه تِلْكَ الحلمة الَّتِي هِيَ بِمِقْدَار صغر فمك فَلَا يضيق عَنْهَا وَلَا تتعب بالتقامها ، ثمَّ نقب لَك فِي رأسها نقباً لطيفاً بِحَسب احتمالك ، وَلم يوسعه فتختنق بِاللَّبنِ ، وَلم يضيقه فتمصه بكلفة ، بل جعله بِقدر اقتضته حكمته ومصلحتك .

فَمن عطف عَلَيْك قلب الأم ، وَوضع فِيهِ الحنان العجيب وَالرَّحْمَة الباهرة ، حَتَّى تكون فِي أهنأ مَا يكون من شَأْنهَا وراحتها ومقيلها ، فَإِذا أحست مِنْك بِأَدْنَى صَوت أَوْ بكاء قَامَت إليك وآثرتك على نَفسهَا على عدد الأنفس ، منقادة إليك بِغَيْر قَائِد وَلَا سائق إلا قَائِد الرَّحْمَة وسائق الحنان ، تود لَو أن كل مَا يؤلمك بجسمها وأنه لم يطرقك مِنْهُ شَيْء ، وأن حَيَاتهَا تزاد فِي حياتك، فَمن الَّذِي وضع ذَلِك فِي قَلبهَا.

حَتَّى إِذا قوي بدنك ، واتسعت أمعاؤك ، وخشنت عظامك ، واحتجت إِلى غذَاء أصلب من غذائك ليشتد بِهِ عظمك ، ويقوى عَلَيْهِ لحمك ، وضع فِي فِيك آلة الْقطع والطحن ، فنصب لَك أسنانا تقطع بهَا الطَّعَام ، وطواحين تطحنه بهَا ، فَمن الَّذِي حَبسهَا عَنْك أيام رضاعك رَحْمَة بأمك لطفاً بهَا ، ثمَّ أعطاكها أيام أكلك رَحْمَة بك وإحسانا إليك ، ولطفاً بك .

فَلَو أنك خرجت من الْبَطن ذَا سنّ وناب وناجذ وضرس كَيفَ كَانَ حَال أمك بك ، وَلَو أنك منعتها وَقت الْحَاجة إليها كَيفَ كَانَ حالك بِهَذِهِ الأطعمة الَّتِي لَا تسيغها إلا بعد تقطيعها وطحنها ، وَكلما ازددت قُوَّة وحاجة إِلى الأسنان فِي أكل المطاعم الْمُخْتَلفَة زيد لَك فِي تِلْكَ الآلآت حَتَّى تَنْتَهِي إِلى النواجذ ، فتطيق نهش اللَّحْم ، وَقطع الْخبز ، وَكسر الصلب ، ثمَّ إِذا ازددت قُوَّة زيد لَك فِيهَا حَتَّى تَنْتَهِي إِلى الطواحين الَّتِي هِيَ آخر الاضراس ، فَمن الَّذِي ساعدك بِهَذِهِ الآلآت وأنجدك بهَا ومكنك بهَا من ضروب الْغذَاء.

ثمَّ إنه اقْتَضَت حكمته أن أخرجك من بطن أمك لَا تعلم شَيْئا ، بل غبياً لَا عقل وَلَا فهم وَلَا علم ، وَذَلِكَ من رَحمته بك ، فَإنَّك على ضعفك لَا تحْتَمل الْعقل والفهم والمعرفة ، بل كنت تتمزق وتتصدع ، بل جعل ذَلِك ينْتَقل فِيك بالتدريج شَيْئا فَشَيْئًا ، فَلَا يصادفك ذَلِك وهلة وَاحِدَة ، بل يصادفك يَسِيراً يَسِيراً حَتَّى يتكامل فِيك .

وَاعْتبر ذَلِك بِأَن الطِّفْل إِذا سبي صَغِيراً من بَلَده وَمن بَين أبويه وَلَا عقل لَهُ فَإِنَّهُ لَا يؤلمه ذَلِك ، وكلما كَانَ أَقْربْ إِلى الْعقل كَانَ أشق عَلَيْهِ وأصعب ، حَتَّى إِذا كَانَ عَاقِلاً فلا تراه إِلَّا كالواله الحيران .

ثمَّ لَو ولدت عَاقِلاً فهيماً - كحالك فِي كبرك - تنغصت عَلَيْك حياتك أعظم تنغيص ، وتنكدت أعظم تنكيد ، لأنك ترى نَفسك مَحْمُولاً رضيعاً معصباً بالخرق ، مربطاً بالقمط ، مسجوناً فِي المهد ، عَاجِزاً ضَعِيفاً عَمَّا يحاوله الْكَبِير ، فَكيف كَانَ يكون عيشك مَعَ تعلقك التَّام فِي هَذِه الْحَالة ، ثمَّ لم يكن يُوجد لَك من الْحَلَاوَة واللطافة والوقع فِي الْقلب وَالرَّحْمَة بك مَا يُوجد للمولود الطِّفْل ، بل تكون أنكد خلق الله وأثقلهم وأعنتهم وأكثرهم فضولاً .

وَكَانَ دخولك هَذَا الْعَالم وأنت غبي لَا تعقل شَيْئا وَلَا تعلم مَا فِيهِ أهله مَحْض الْحِكْمَة وَالرَّحْمَة بك وَالتَّدْبِير ، فَتلقى الأشياء بذهن ضَعِيف وَمَعْرِفَة نَاقِصَة ، ثمَّ لَا يزَال يتزايد فِيك الْعقل والمعرفة شَيْئا فَشَيْئًا حَتَّى تَألف الأشياء وتتمرن عَلَيْهَا ، وَتخرج من التَّأَمُّل لَهَا والحيرة فِيهَا وتستقبلها بِحسن التَّصَرُّف فِيهَا وَالتَّدْبِير لَهَا والإتقان لَهَا ، وَفِي ذَلِك وُجُوه أخر من الْحِكْمَة غير مَا ذَكَرْنَاه .

فَمن هَذَا الَّذِي هُوَ قَيِّمٌ عَلَيْك ، بالمرصاد يرصدك حَتَّى يوافيك بِكُل شَيْء من الْمَنَافِع والآراب والآلآت فِي وَقت حَاجَتك ، لَا يقدمهَا عَن وَقتهَا وَلَا يؤخرها عَنهُ .

ثمَّ إنه أعطاك الأظفار وَقت حَاجَتك إليها لمنافع شَتَّى ، فَإِنَّهَا تعين الأصابع وتقويها ، فَإِن أَكثر الْعَمَل لمّا كَانَ برؤوس الأصابع وَعَلَيْهَا الِاعْتِمَاد أعينت بالأظافر قُوَّة لَهَا ، مَعَ مَا فِيهَا من مَنْفَعَة حك الْجِسْم ، وقشط الأذى الَّذِي لَا يخرج بِاللَّحْمِ عَنهُ ، إلى غير ذَلِك من فوائدها .

ثمَّ جمّلك بالشعر على الرأس زِينَة ووقاية وصيانة من الْحر وَالْبرد ، إِذْ هُوَ مجمع الْحَواس ، ومعدن الْفِكر وَالذكر ، وَثَمَرَة الْعقل تَنْتَهِي إليه ، ثمَّ خص الذّكر بِأَن جمل وَجهه باللحية وتوابعها وقاراً وهيبة لَهُ وجمالاً ، وفصلاً لَهُ عَن سنّ الصِّبَا ، وفرقاً بَينه وَبَين الإناث ، وَبقيت الأنثى على حَالهَا لما خلقت لَهُ من استمتاع الذّكر بهَا ، فبقي وَجههَا على حَاله ونضارته ليَكُون أهيج للرجل على الشَّهْوَة وأكمل للذة الِاسْتِمْتَاع ، فالماء وَاحِد ، والْجَوْهَر وَاحِد ، والوعاء وَاحِد ، واللقاح وَاحِد ، فَمن الَّذِي أعطى الذّكر الذكورية والأنثى الأنثوية ؟! "[1].

وتأمل نمو الجسم ، إذ يقول ابن القيم رحمه الله عن ذلك :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة الْبَالِغَة فِي تنميتك وَكَثْرَة أجزائك من غير تفكيك وَلَا تَفْصِيل ، وَلَو أن صائغاً أخذ تمثالاً من ذهب أَوْ فضَّة أَوْ نُحَاس فَأَرَادَ ان يَجعله أكبر مِمَّا هُوَ ، هَل كَانَ يُمكنهُ ذَلِك إلا بعد أن يكسرهُ ويصوغه صياغة أخرى ؟! ، والرب تَعَالَى ينمي جسم الطِّفْل وأعضاءه الظَّاهِرَة والباطنة وَجَمِيع أجزائه وَهُوَ بَاقٍ ثَابت على شكله وهيئته ، لَا يتزايل وَلَا يَنْفَكّ وَلَا ينقص .

وأعجب من هَذَا كُله تَصْوِيره فِي الرَّحِم ، حَيْثُ لا تراه الْعُيُون وَلَا تلمسه الأيدي وَلَا تصل إليه الآلآت ، فَيخرج بشراً سوياً مُسْتَوْفياً لكل مَا فِيهِ مصْلحَته وقوامه من عُضْو وحاسة وَآلَة من الأحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات والأغشية وَالْعِظَام الْمُخْتَلفَة الشكل وَالْقدر وَالْمَنْفَعَة والموضع ، إلى غير ذَلِك من اللَّحْم والشحم والمخ وَمَا فِي ذَلِك من دَقِيق التَّرْكِيب ولطيف الْخلقَة وخفي الْحِكْمَة وبديع الصَّنْعَة ، كل هَذَا صنع الله أحسن الْخَالِقِينَ فِي قَطْرَة من مَاء مهين ، وَمَا كرر عَلَيْك فِي كِتَابه مبدأ خلقك وإعادته ودعاك إلى التفكير فِيهِ إِلَّا لما بك من الْعبْرَة والمعرفة ، وَلَا تستطل هَذَا الْفَصْل وَمَا فِيهِ من نوع تكْرَار يشْتَمل على مزِيد فَائِدَة ، فَإِن الْحَاجة إليه مآسة، وَالْمَنْفَعَة عَظِيمَة .

فانْظُر إلى بعض مَا خصك بِهِ وفضلك بِهِ على الْبَهَائِم الْمُهْملَة ، إِذْ خلقك على هَيْئَة تنتصب قَائِماً وتستوي جَالِساً ، وتستقبل الأشياء ببدنك ، وَتقبل عَلَيْهَا بجملتك ، فيمكنك الْعَمَل وَالصَّلَاح وَالتَّدْبِير ، وَلَو كنت كذوات الأربع المكبوبة على وَجههَا لم يظْهر لَك فَضِيلَة تَمْيِيز واختصاص ، وَلم يتهيأ مِنْك مَا تهَيَّأ من هَذِه النِّسْبَة "[1].

---

(1) مفتاح دار السعادة.

وقال رحمه الله :" وَمن جعل فِي الْحلق منفذين أحدهما للصوت وَالنَّفس الْوَاصِل إِلَى الرئة ، والآخر للطعام وَالشرَاب وَهُوَ المريء الْوَاصِل إِلَى الْمعدة ، وَجعل بَينهمَا حاجزاً يمْنَع عبور أحدهما فِي طَرِيق الآخر ، فَلَو وصل الطَّعَام من منفذ النَّفس إِلَى الرئة لأهلك الْحَيَوَان " [1].

وقال :" وَمن جعل المنافذ لفضلات الْغذَاء ، وَجعل لَهَا أشراجاً تقبضها لكيلا تجرى جَرياً دَائِماً فتفسد على الإنسان عيشه ، وَيمْنَع النَّاس من مجالسه بَعضهم بَعْضًا ، وَمن جعل الْمعدة كأشد مَا يكون من العصب ؛ لأنها هيئت لطبخ الأطعمة وإنضاجها ، فَلَو كَانَت لَحْمًا غضاً لانطبخت هِيَ ونضجت ، فَجعلت كالعصب الشَّديد لتقوى على الطَّبْخ والإنضاج وَلَا تنهكها النَّار الَّتِي تحتهَا "[1].

وقال :" وَمن جعل على الفخذين والوركين من اللَّحْم أكثر مِمَّا على سَائِر الأعضاء ليقيها من الأرض ، فَلَا تألم عظامها من كَثْرَة الْجُلُوس كَمَا يألم من قد نحل جِسْمه وَقلّ لَحْمه من طول الْجُلُوس حَيْثُ لم يحل بَينه وَبَين الارض حَائِل "[1].

وقال :" وَمن جعل بَاب الْخَلَاء فِي الإنسان فِي أسْتُرْ مَوضِع ، كَمَا أن الْبَنَّاء الْحَكِيم يجعْل مَوضِع التخلي فِي أسْتُرْ مَوضِع فِي الدَّار ، وَهَكَذَا منفذ الْخَلَاء من الإنسان فِي أسْتُرْ مَوضِع ، لَيْسَ بارزاً من خَلفه وَلَا ناشزاً بَين يَدَيْهِ ، بل مغيب فِي مَوضِع غامض من الْبدن ، يلتقى عَلَيْهِ الفخذان بِمَا عَلَيْهِمَا من اللَّحْم متوارياً ، فَإِذا جَاءَ وَقت الْحَاجة وَجلسَ الإنسان لَهَا برز ذَلِك الْمخْرج للأرض "[1].

ويقول ابن القيم رحمه الله عن الحياء المُركَّب في الإنسان :" ثمَّ تَأمل هَذَا الْخلق الَّذِي خص بِهِ الإنسان دون جَمِيع الْحَيَوَان وَهُوَ خلق الْحيَاء الَّذِي هُوَ من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها نفعاً ، بل هُوَ خَاصَّة الإنسانية ، فَمن لَا حَيَاء فِيهِ لَيْسَ مَعَه من الإنسانية إلا اللَّحْم وَالدَّم وصورتهم الظَّاهِرَة ، كَمَا أنه لَيْسَ مَعَه من الْخَيْر شَيْء .

وَلَوْلَا هذا الخلق لم يقر الضَّيْف ، وَلم يوف بالوعد ، وَلم يؤد أمانة ، وَلم يقْض لأحَدًّ حَاجَة ، وَلَا تحرى الرجل الْجَمِيل فآثره ، والقبيح فتجنبه ، وَلَا ستر لَهُ عَورَة ، وَلَا امْتنع من فَاحِشَة ، وَكثير من النَّاس لَوْلَا الْحيَاء الَّذِي فِيهِ لم يؤد شَيْئاً من الأمور المفترضة عَلَيْهِ ، وَلم يرع لمخلوق حَقًّا ، وَلم يصل لَهُ رحماً ، وَلَا بر لَهُ والداً ، فَإِن الْبَاعِث على هَذِه الأفعال إِمَّا ديني وَهُوَ رَجَاء عَاقبَتهَا الحميدة ، وَإِمَّا دُنْيَوِيّ علوي وَهُوَ حَيَاء فاعلها من الْخلق ، قد تبين أنه لَوْلَا الْحيَاء إِمَّا من الْخَالِق اَوْ من الْخَلَائق لم يَفْعَلهَا صَاحبهَا "[1].

(1) مفتاح دار السعادة.

(2أنواع البشر

" إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) "[1]

البشرُ من حيثُ الجِنس نوعان ذكرٌ وأنثى ، وأما من حيث الخِلقة فأربعة أنواع:

- **فمنهم من خُلِق بلا ذكرٍ ولا أنثى ، وهو آدم عليه السلام**
- **ومنهم من خُلِق من أنثى بلا ذكر ، وهو عيسى عليه السلام**
- **ومنهم من خُلِق من ذكرٍ بلا أنثى ، وهي أمنا حواء عليها السلام**
- **ومنهم من خُلِق من ذكرٍ وأنثى ، وهم سائر البشر**

فاعلم أن الله على كل شيءٍ قدير .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى أن الله تعالى :" يُرِي عباده قدرته التَّامَّة فِي خلقه لنَوْع الإنسان على الأقسام الأربعة الدَّالَّة على أنه مَخْلُوق بقدرته ومشيئته ، تَابعٌ لَهَا ، فَمِنْهُ مَا خلق من غير أب وَلَا أم وَهُوَ أَبُو النَّوْع الإنساني ، وَمِنْه مَا خلق من ذكر بِلَا أنثى وَهِي أمهم الَّتِي خلقت من ضلع آدم ، وَمِنْه مَا خلق من أنثى بِلَا ذكر وَهُوَ الْمَسِيح ابْن مَرْيَم ، وَمِنْه مَا خلق من ذكر وأنثى وَهُوَ سَائِر النَّوْع الانساني ، فَيُرِي عباده آيَاته ، ويتعرف إليهم بآلائه وَقدرته ، وَأَنه إِذا اراد شَيْئا يَقُول لَهُ كن فَيكون "[2].

---

(1) سورة آل عمران.

(2) مفتاح دار السعادة.

(3مكاملة الذكر والأنثى لبعضهما

" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) "[(1)]

" وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72) "[(2)]

" وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) "[(3)]

" أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40) "[(4)]

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ... (1) "[(5)]

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) "[(6)]

تأمل كيف يُكامل الرجلُ المرأة ، وكيف تُكامِلُ المرأة الرجل ، فهذه صفعةٌ في وجوه الملاحدة إذ لو فرضنا أن الذكر جاء صُدفةً فكيف تأتي الأنثى بصورةٍ مُكاملةٍ للذكر صُدفةً أيضاً !! ، هل تعقلُ الطبيعة وتُفكر حتى تفعل ذلك ؟! ، وليس الأمر يتوقف على البشر فقط ، بل هذا الأمر في جميع الحيوانات .

وتأمل كيف أن كلا الزوجين - الذكر والأنثى - ينتجان من ماء واحد وهو المني !! ، فهذه آيةٌ أُخرى أن هذين الزوجين ينتجان من نفس الماء ، فيكون مرة ذكراً ، ومرةً أُنثى ، يقول تعالى :" أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40) "[(4)] ، يقول ابن القيم رحمه الله :" فالماء وَاحِد، والْجَوْهَر وَاحِد، والوعاء وَاحِد، واللقاح وَاحِد فَمن الَّذِي اعطى الذّكر الذكورية والأنثى الانوثية "[(7)].

ويقول ابن القيم رحمه الله :" فَانْظُر كَيفَ جعلت آلَات الْجِمَاع فِي الذّكر والأنثى جَمِيعًا على وفْق الْحِكْمَة ، فَجعلت فِي حق الذّكر آلَة نَاشِزَة تمتد حَتَّى توصل الْمنِي إِلَى قَعْر الرَّحِم بِمَنْزِلَة من يناول غَيره شَيْئا ، فَهُوَ يمد يَده إِلَيْهِ حَتَّى يوصله إِيَّاه ؛ وَلِأَنَّهُ يحْتَاج إِلَى أَن يقذف مَاءَهُ فِي قَعْر الرَّحِم ، وَأما الأنثى فَجعل لَهَا وعَاء مجوف ؛ لأنها تحْتَاج إِلَى أَن تقبل مَاء الرجل وتمسكه وتشتمل عَلَيْهِ ، فَأعْطيت آلَة تلِيق بهَا.

---

(1) سورة الروم. (2) سورة النحل. (3) سورة النجم. (4) سورة القيامة.
(5) سورة النساء. (6) سورة الحجرات. (7) مفتاح دار السعادة.

ثمَّ لما كَانَ مَاء الرجل ينحدر من أجزاء الْجَسَد رَقِيقاً ضَعِيفاً لَا يخلق مِنْهُ الْوَلَد جُعِل لَهُ الأنثيان[1] وعَاء يطْبخ فيهمَا وَيحكم إنضاجه ليشتد وَينْعَقد ، وَيصير قَابلاً لَأن يكون مبدأ للتخليق ، وَلم تحتج الْمَرْأَة إلى ذَلِك ؛ لَأن رقة مَائِهَا ولطفاته إذا مازج غِلَظَ مَاء الرجل وشدته قَوِي بِهِ واستحكم ، وَلَو كَانَ الماآن رقيقان ضعيفان لم يتكون الْوَلَد مِنْهُمَا .

وَخص الرجل بِآلَة النضج والطبخ لحكم ، مِنْهَا : أن حرارته أقوى والأنثى بَارِدَة ، فَلَو أعطيت تِلْكَ الآلة لم يستحكم طبخ المَاء وإنضاجه فِيهَا ، وَمِنْهَا أن ماءها لَا يخرج عَن مَحَله ، بل ينزل من بَين ترائبها إلى مَحَله ، وَمِنْهَا أنها لما كَانَت محلاً للجماع أعطيت من الآلة مَا يَلِيق بهَا ، فَلَو أعطيت آلَة الرجل لم تحصل لَهَا اللَّذَّة والاستمتاع ، ولكانت تِلْكَ الآلة معطلة بِغَيْر مَنْفَعَة ، فالحكمة التَّامَّة فِيمَا وجدت خلقَة كل مِنْهُمَا عَلَيْهِ "[2].

---

(1) الأنثيان : الخصيتان.
(2) مفتاح دار السعادة.

(4العقل

" وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) "[1]

يقول ابن القيم رحمه الله عن نعمة الحفظ والنسيان :" ثمَّ تَأمل حِكْمَة الله عز وَجل فِي الْحِفْظ وَالنِّسْيَان الَّذِي خص بِهِ نوع الإنسان وَمَا له فيهمَا من الحكم وَمَا للْعَبد فيهمَا من الْمصَالح ؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا الْقُوَّة الحافظة الَّتِي خُصَّ بهَا لدخل عَلَيْهِ الْخلَل فِي أُمُوره كلهَا ، وَلم يعرف مَاله وَمَا عَلَيْهِ ، وَلَا مَا أخذ وَلَا مَا أعطى ، وَلَا مَا سمع وَرَأى ، وَلَا مَا قَالَ وَلَا مَا قيل لَهُ ، وَلَا ذكر من أحسن إليه وَلَا من أساء إليه ، وَلَا من عَامله ، وَلَا من نَفعه فَيقرب مِنْهُ ، وَلَا من ضره فينأى عَنه.

ثمَّ كَانَ لا يهتدي إلى الطَّرِيق الَّذِي سلكه أول مرّة وَلَو سلكه مرَارًا، وَلَا يعرف علماً وَلَو درسه عمره ، وَلَا ينْتَفع بتجربة ، وَلَا يَسْتَطِيع أن يعْتَبر شَيْئا على مَا مضى ، بل كَانَ خليقاً أن يَنْسَلِخ من الإنسانية أصلا .

فَتَأمل عَظِيم الْمَنْفَعَة عَلَيْك فِي هَذِه الْخلال ، وموقع الْوَاحِدَة مِنْهَا فضلاً عَن جَمِيعهنَّ .

وَمن أعْجَبْ النعم عَلَيْهِ نعْمَة النسْيَان ؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا النسْيَان لما سلا شَيْئا ، وَلَا انْقَضتْ لَهُ حسرة ، وَلَا تعزى[2] عَن مُصِيبَة ، وَلَا مَاتَ لَهُ حزن ، وَلَا بَطل لَهُ حقد ، وَلَا تمتّع بِشَيْء من مَتَاع الدُّنْيَا مَعَ تذكر الآفات ، وَلَا رجا غَفلَة عَدو وَلَا نقمة من حَاسِد .

فَتَأمل نعْمَة الله فِي الْحِفْظ وَالنِّسْيَان مَعَ اخْتِلَافهمَا وتضادهما وَجعله فِي كل وَاحِد مِنْهُمَا ضربا من الْمصلحَة "[3] .

وقد قرأت من قبل عن مرضٍ هو من عجائب الأمراض ، بل عندما يعرفه الإنسان لأول مرة يتبادر إليه سؤال ، وهو كيف لهذا الأمر أن يُصنَّف كمرض ، بل وقد يراه بعض الناس كمزية وأمرٍ نافع ، إلا أن لهذا المرض أضرار تخفى على الإنسان عندما ينظر إلى هذا الأمر بسطحية ، وهذا المرض هو ما سماه بعضهم بمتلازمة الموهوب ، وهذا المرض يجعل صاحبه لا ينسى ، وأول عهدي بهذه المتلازمة كان من خلال منشور كتبه بعضهم ، فذكر فيه أنه تعرض لحادثٍ مروري أدى إلى أضرارٍ في الدماغ ، ثم بعد أن أُخرِج من المستشفى ورجع إلى بيته أراد أن يقرأ بعض الكتب ، فوجد أنه حافظٌ لذلك الكتاب ! ، ثم ذكر أنهم قابلوا طبيباً بشأن ذلك فأخبرهم أن هذا مرض يُسمى بمتلازمة الموهوب .

ظننت الأمر مزحةً في البداية ولكن عندما قمت بعملٍ بحثٍ على الشبكة وجدت الأمر حق ! ، وهناك حالات أُخرى مصابة بهذا المرض ، صحيح أن هؤلاء الناس قد تكون لهم مزايا من جهة الحفظ والعبقرية إلا أنهم يعانون بشدة بسبب عدم استطاعتهم نسيان الذكريات السيئة العالقة في أذهانهم ، فمن نعمة الله عز وجل في النسيان أن يستطيع الإنسان أن يُمارِس حياته بعد خروجه من المآسي ومروره بالأحزان .

---

(1) سورة البقرة.
(2) أي: ولا صبر عن مصيبة.
(3) مفتاح دار السعادة.

نظرية السلطة

عقل الإنسان يتأثر ويخضع لمؤثرات تؤثر على قراراته وعلى حكمه على الأشياء ،وهذه المؤثرات لها سيطرة وسطوة خفية على عقل الإنسان وتفكيره ، وهناك نظرية تُسمى بنظرية السلطة تحاول تفسير بعض المؤثرات التي تؤثر على الفكر ، ومفهوم هذه النظرية أن هناك سلطة خفية متسلطة على فكر الإنسان تجعله يفكر بطريقة معينة ، بل تصير عنده هي معيار الصواب والخطأ ، وتكون هي دفة القيادة التي تصدر منها القرارات ، فما توافق مع هذه السلطة قَبِلَه هذا الإنسان وما تخالف معها نفاه وأنكره وجحده ، ومن تلك السلطات أربع سلطات فكرية أساسية ، وتتسم هذه السلطات بأن بينها تقابل وتضاد وتعاكس ، وهي: سلطة الكثرة وسلطة القلة ، وسلطة القديم وسلطة الجديد.

(1) سلطة الكثرة

فمن أكثر السلطات انتشاراً وبسطاً لنفوذها في عقول الناس هي سلطة الكثرة ، فكثير من الناس يحتجون بكثرة الناس على صحة الشيء أو خطئه ، وهذا فيه نوع من غريزة القطيع ، ولو تأملت القرآن لوجدت فيه ذم الكثرة وبيان ضلالها في أكثر من آية ، من ذلك قول الله تعالى :" وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187) " ، وقوله :" وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (17) " ، وقوله تعالى :" وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ... (36) " ، وقوله: " إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60) " ، وقال تعالى :" وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) " ، وقال تعالى :" وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) " .

فكثرة الناس ليست دليلاً على صحة الشيء أو خطائه ، بل الإنسان مجبولٌ على التقليد ، فالناس يُعدِي بعضهم بعضاً بالأفعال والأقوال والأفكار ، فيتبعونها دون تمحيصٍ أو تثبّت ، فكثير من الناس ينصاعون ويخضعون لضغط المجتمع حولهم ، فتجده يفعل الخطأ - وهو موقنٌ أنه خطأ - لكنه يفعله إرضاءً للمجتمع وحتى لا يشذ منه .

ومن التجارب العجيبة في علم النفس أنه تم إحضار شخصٍ لتجربة في علم النفس تدرس تأثير المجتمع على الفرد ، وهذا الشخص كان معه خمسة أشخاص آخرين يتبعون لأصحاب التجربة – أي أنهم ممثلين – دون أن يعرف هذا المشارك ذلك الأمر ، وتم عرض ثلاثة خطوط طولية عليهم ، وكانت تلك الخطوط متفاوتة في الطول ، فكان يتم سؤالهم عدة مرات :" أي الخطوط أطول (أ) أم (ب) أم (ج) ؟ " ، وكان يُعاد هذا السؤال عليهم عدة مرات مع تغير أطول الخطوط في كل مرة ، كان ترتيب هذا المشارك هو الخامس ، فكان قبله أربعة من المشاركين في التجربة - وهم يتبعون لأصحاب التجربة كما ذكرنا - وبعده واحد يتبع كذلك لأصحاب التجربة.

في المرتين الأوليين في التجربة اختار المشاركون الذين يتبعون لأصحاب التجربة الإجابة الصحيحة ؛ وكان ذلك لكسب ثقة المشارك بأن يظن أنهم مشاركون مثله ، فإذا كان الخط الأطول هو (أ) قالوا :" (أ) " وإذا كان الخط الأطول كان هو (ب) اختاروا (ب) ، وكانت الأمور تجري على ما يرام ، ثم في المرة الثالثة جاءت الصدمة ، كان الخط الأطول هو (ب) فاختار المشاركون (أ) فذُهِل وصُدِم ذلك المشارك الحقيقي ! كيف يقولون (أ) والخط الطويل هو (ب) ، رفض أن يشاركهم الرأي والقول فخالفهم ، ثم أعادوا ذلك مرة ثانية وتكرر الأمر ، الخط الأطول (ج) وهم يقولون :" (ب) " وتزداد دهشة وصدمة المشارك ! ، يخالفهم للمرة الثانية ، ثم جاءت المرة الثالثة وحدث فيها الأمر العجيب إذ انصاع المشارك لزملائه في التجربة وصار يشاركهم القول سواءً حقاً أم باطل ، فقالوا :" الخط الأطول هو (ج) " ، فقال :" (ج) " رغم أن الخط الأطول كان (ب) !!! ، لم يستطع مخالفة من حوله ، وهذا يشرح لك الكثير ، فهذا هو ضغط الأقران الذي يحدث لكثير من الناس ، تذوب هويتهم في المجتمع ، ويضمحل قولهم في الرأي السائد حتى لو كان ظاهر الخطأ والبطلان.

فاحذر - أنت- من أن تقول :" (ب) " حين ينبغي عليك قول :" (ج)".

فهذا حال كثيرٍ من الناس إذا ما أنكرت عليه أمراً قال لك :" كل الناس يفعلونه " ، أو قال لك :" أيعقل أن كل أولئك الناس على باطل ؟ " ، نعم يا عزيزي ، لا عجب أن يكون كثير من الناس على باطل ! فعددهم ليس معيار الحق والصواب ! ، بل الشيطان يزين الباطل للناس فيتبعونه ، وقد حُفت الجنة بالمكاره فاجتنب الناس طريقها والعياذ بالله ، واتبعوا طريق الشهوات المؤدي إلى النار ، فاستحسنوا الغيبة والنميمة ، ورضوا بالكفر والشرك والبدعة ، وانغمسوا في المعاصي ، فلا تستوحش قلة السالكين ، كن أنت الأمة ولو كنت وحدك :" إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ... (120) ".

قال تعالى :" فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) " ، تأمل لاستدلال المشركين بالكثرة التي لا تغني عنهم من الله شيئا يقول تعالى:" وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) " ، تأمل لبطلان هذه الحجة وهشاشتها ! ، ما علاقة كثرت أموالكم وأولادكم بالحق ؟! ، بل أكثر من كان ذا مالٍ وبنين اغتر بذلك وأعجبه ملكه فاتبع الباطل ، وظن أنه مرضياً عند الله والله يقول :" وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37 ")

وقال تعالى :" أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44) " قطيعٌ ينساق بعضه خلف بعض . " وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116." (

واعلم أن هذا الصنف من الناس لا مبدأ له ، بل يأخذون لون المجتمع الذي نشأوا فيه ، فإذا قاموا في مجتمع شيعي كانوا شيعة ، وإذا نشأوا في مجتمع صوفي كانوا صوفية ، وإذا قاموا في مجتمع نصراني كانوا نصارى ، وهكذا ، ثم يبدأ يدافع عما نشأ فيه على أنه الحق ، ولا يبحث غالباً بعد ذلك عن الحق إلا من رحم ربي ووفقه ، وقد تجده يُنكِر اليوم شيئاً لمجرد أنه لم ينشأ عليه ، وقد تجده يُنكِر اليوم شيئاً ولكن إذا ما نشأوا فيه كانوا سيؤمنون به ويعتنقونه بل وينافحون عنه بأقصى جهدهم ، وما ذلك إلا لحمية جاهلية وأنفة لمجتمعه وللآباء ، وذلك حاصل في كثيرٍ من الخرافات والأساطير والمعتقدات الباطلة المنتشرة في المجتمعات.

ولكن هناك استثناء من هذه القاعدة ألا وهو الإجماع ، إذ الإجماع دليلٌ شرعي معتمدٌ معتبر ، فإن أهل الحق لا يقولون بقولٍ لمجرد كثرة من قال به ، ولكن لأنه ما دلت عليه دلائل الحق ، قال تعالى :" وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115) " ، فدل ذلك على أن سبيل المؤمنين هو الحق ، إذ أن من اتصف بالإيمان لا يتجرّأ على الباطل.

وتأمل قول الله تعالى :" وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) " ، وقوله تعالى :" وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13) " ، وقوله تعالى :" وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ... (24) ".

(2) سلطة القلة

على عكس سلطة الكثرة المتقدمة هناك سلطة مقابلة لها تماماً وهي سلطة القلة ، فبعض الناس يجعل منطلقه في الصواب والخطأ هو قلة الناس ، فيرى أن الصواب دائماً مع القلة ، إذ هم عنده النخبة ، وهذا غير صحيح ولا يستقيم ، إذ معيار الصواب ليس هو قلة الناس ، ولكن معيار الصواب هو الحق في نفسه.

لكن كيف نجمع بين فساد سلطة القلة هذه وعدم صلاحها كمعيار مع قوله تعالى :" وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) " ؟ ، الجواب سهل ويسير إن ركزت ، وتأملت وتدبرت إذ أن هذه القلة المحمودة في الآية لم يكتسبوا هذا الحمد لأنهم قلة ، لكنهم اكتسبوا هذا الحمد والثناء لأنهم آمنوا ، فهم كانوا أصحاب الحق فاستحقوا ذلك الثناء ، وكذلك لو كان كثرةٌ من الناس على حقٍ وهُدى لاستحقوا الثناء ، لا لكثرتهم لكن لاتباعهم الحق.

(3) سلطة القديم

يُحكَى أن عالماً أتى بقرودٍ في قفص وعلّق لهم موزاً في أعلى القفص ، فكان كلما صعد أحد القرود إلى أعلى قام هذا العالم بضرب القرد الذي صعد للموز ، وضرب معه جميع القرود التي في القفص ، تكرر هذا الفعل حتى حدث أمرٌ عجيب ! ، إذ ترسخت عقلية عند هؤلاء القرود أنه غير مسموح لأحد من القرود أن يصعد لذلك الموز ، فصار كلما أراد أن يصعد أحدٌ من تلك القرود إلى الموز قامت بقية القرود بضربه !

قام العالم بتغيير في هذه التجربة ، فصار في كل مرة يقوم بإخراج أحد القرود القديمة من القفص ويُدخِلُ قرداً جديداً ، هذا القرد الجديد لا يعلم بتلك القصة ! ، إذ لا يعلم أنه يُمنع الاقتراب من ذلك الموز ، فيذهب هذا القرد بفطرته إلى الموز فينهال عليه بقية القرود بالضرب ، فينزجر هذا القرد وينضم لهذه العصابة ، ثم يقوم العالم بإخراج قرد قديم وإدخال قرد جديد ويتكرر المشهد ، حتى صار جميع القردة داخل القفص قردة جديدة وتم إخراج جميع القردة القديمة من القفص .

العجيب أن القردة الجديدة صاروا يكررون أفعال القردة القديمة دون أن يعلموا سبب ضربهم لكل قردٍ يحاول الصعود إلى الموز !! ، فكل ما أراد قرد الصعود للموز ضربوه ومنعوه وهم لا يعلمون سبب ذلك لكنهم فقط يفعلون ، يفعلون دون أن يسألوا أنفسهم لماذا يفعلون!

ما أكثر القردة في المجتمعات ! ، يفعلون التقاليد الشنيعة الخاطئة وهم لا يسألون أنفسهم لماذا يفعلون ذلك ، بل كل حجتهم في ذلك أن يقولوا :" إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) " ، وتأمل قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه عندما أنكر عليهم شركهم بالله ودعائهم لغيره فقال لهم :" هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) " حُجج عقلية قاطعة ، فما كان جوابهم واحتجاجهم إلا أن قالوا :" بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) " ، فما أوهنها من حجة ! وما أضعفه من جواب.!

واعلم أن هذا الصنف من الناس لا مبدأ له ، وإنما يتلون بلون المجتمع الذي نبت فيه ، فإن كان مجتمعاً صوفياً صار صوفياً ، وإن كان مجتمعاً شيعياً كان شيعياً ، وإن كان مجتمعاً نصرانياً كان نصرانياً ، وهكذا بل إنه يرى أن ما نشأ عليه هو الحق وأن ما سواه باطل ، فتجده يدافع عما وجد عليه الآباء ، فلو كان نشأ على غيره لأنكره ، وإن كان نشأ عليه آمن به ! ، وتجده يُنكِر ما استجد عليه ، ألم تسمع قول الكفار :" مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25) " ، قال تعالى :" وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (8) " ، فيعجبون مما ليس بعجب ! ، " أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (2) " ، يقول الله تعالى :" أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) " جاء في التفسير الميسر :" لا تظن -أيها الرسول- أن قصة أصحاب الكهف واللوح الذي كُتِبت فيه أسماؤهم من آياتنا عجيبة وغريبة؛ فإن خلق السموات والأرض وما فيهما أعجب من ذلك " ، فحتى العجب عليك أن تنظر إليه بمعيار الشريعة ، بل كل شيء عليك أن تنظر إليه بمعيار الشرع.ـ

(4) سلطة الجديد

وعلى عكس السلطة السابقة هناك سلطة الجديد ، وهي التي انتشرت في أبناء عصرنا كالسرطان بسبب وسائل التواصل الاجتماعي ، فتجده يرى أن جميع المجتمع وما كان عليه الآباء جهلٌ كله ، وأن الذي خرجت به الصين وأمريكا والعالم الغربي من معتقدات هو الحق ، فيرى أن كفرهم هو التحضر ، وأن شيوعيتهم هي الثقافة ، وأن العلمانية هي النهضة وهكذا ، فيرى أن كل الماضي جهل ، ويرى أن كل المستقبل علم ، وكذلك هذا من أبطل الباطل.

صحيح أن التكنولوجيا تطور وهي أمور حديثة لم تكن في الماضي ، ولكن هذه أمور دنيا ، " يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7) " أبصرت أعينهم الأمور الدنيوية السطحية ، وعميت وغابت عنهم الحقائق الكُبرى ، فأمور الدين فإنها إنما تؤخذ من العزيز الحكيم ، فقد أرسل لنا العليم سبحانه رُسلاً يدلونا على ما يقربنا إليه ، وأخبرنا بما يدخلنا به الجنة ، فجاء جميع الرسل بالتوحيد ومحاربة الكفر والشرك.

أضف إلى ذلك أن من كان على حقٍ من جهة فإن ذلك لا يسلتزم أن يكون على حقٍ من جميع الجهات ، فكل جهةٍ تعتبر وحدة مستقلة ، فلا ينجر حقه على باطله ، ويمكن أن يكون الإنسان على حق في شيء وعلى باطل في شيء آخر ، فلتعتبر ذلك فإنه مفتاح لحل هذه الإشكالية.

(5) سلطة المكانة

وأنا أُضيف إلى تلك السلطات سلطة خامسة اسميتها بسلطة المكانة ، وهذه السلطة نوع من مغالطة الشخصنة .

فبعض الناس يعتقد صحة القول لمجرد أنه قول فلان ! ، ولا أحد كل كلامه حق وصحيح إلا الله ورسوله ، قال الإمام مالك :" كُلٌ يؤخذ من قوله ويُرد إلا صاحب القبر " وأشار إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فليس هناك أحدٌ يؤخذ كلامه كله إلا الله ورسوله ، قال تعالى :" وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ " ، فكل ما يقوله الله تعالى هو الحق ، وما خالفه هو الباطل .

أما أن يتعصب بعض الناس ويدعي العصمة لقول سيد قبيلته أو شيخ طريقته أو غير ذلك فذلك باطلٌ لا ريب فيه ، إذ هم ليسوا بمعصومين ، وهم بشر يصيبون ويخطئون .

قال الله تعالى :" يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (66) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (68) ".

وإنك لتعجب ممن يترك صريح القرآن ويتابع ما يناقض صريح القرآن وأصل الدين بحجة أن من قال ذلك هو عالم ! ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال :" إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا " [صحيح البخاري.]

ثم من الذي يسمى عالم ؟ ، هل كل من ظهر في التلفاز عالم ؟ ، وهل كل من كتب عالم ؟ ، هل لفظة عالم تُطلق هكذا على أي أحدٍ دون إعطائها حقها ودون التثبت ؟ ، ولماذا لا نفعل ذلك مع كلمة " طبيب " أو " مهندس " أو " محامي " ؟! ، العالِم هو من أخذ الأحكام من الكتاب والسنة على فهمِ سلفِ الأمة ، هذا هو العالم ، أما الذي يأخذ - في دين الله - بأهوائه وآرائه فهذا ليس بعالم ولو لبس أكبر عمامةٍ في العالم ، ومن بنى دينه على الرؤى والمنامات والذوق والوِجد فليس بعالم ، بل هؤلاء جُهّال لبَّس عليهم إبليس.

ما المعيار إذن ؟

جاءك الإسلام بالحق ، فهذِّب نفسك وصفّاها من شوائب الآفات الفكرية ، ويبّن لك معيار الحق ، فلا تتبع الكثرة ولا تتبع القلة ، ولا تتبع القديم ولا تتبع الجديد ، إذن ماذا تتبع ؟ ، عليك باتباع الحق ، هذا هو الصواب ، فإن كان الحق مع الكثرة كُنّا معهم ، لا لإنهم كثرة ولكن لأن الحق معهم ، وإن كان الحق مع القلة كُنّا معهم ، وإن كان الحق مع القديم كُنا معه ، وإن كان الحق مع الجديد كُنا معه.

يقول الله تعالى :" وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170) " ، فعليك أن تتبع ما قاله الله ؛ لأن الله هو الخالق العليم الحكيم ، وهو الذي " أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12) " ، فأوامر الله عز وجل ونواهيه وقضاؤه وقدره كلها صادرةٌ عن حكمته وعلمه سبحانه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا الحق " وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) " ، " فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ... (59) " ، هذا هو المعيار الحق ، هذا هو معيار المؤمن ، فإن الإيمان يجعل المؤمن منصفاً ، إذ أنه لا يتبع إلا الحق.

فلا تستخدم نظرتك ، بل استخدم مقياس الشرع ، وقِس كل أمورك بالشرع ، فهو المقياس الصحيح المستقيم المعتدل ، وإذا كان وزن الأشياء يقاس بالكيلو وطولها يقاس بالمتر فإن الأحكام والأقوال والأفعال والمعتقدات تُقاس بكلام الخالق العليم رب الأرض والسماوات ، تقاس بالكتاب والسنة ، فما وافق ذلك الميزان فهو حق ، وما خالفه فباطل لا ريب فيه.

غياب العقل

كل هذه الآيات التي تملأ هذا الكون غاب عنها عقلُ كثيرٍ من الناس ، فقد تجد من كان حائزاً على درجةِ الدكتوراة يعبُدُ بقرةً ، وقد تجدُ طبيباً يرى عجائب جسد ابن آدم وتعقيده ثم يزعم بعد ذلك أن هذا محضُ صُدفة ! ، وقد تجد من قرأ حُجج الله عز وجل في القرآن على بطلان كل آلهةٍ دونه ثم بعد كل ذلك يعبد غير الله ويدعو غير الله ، فيدعو صنماً أو ميتاً ، وهكذا ، نعوذ بالله من الضلال.

هتف الذكاء فقال لستُ بنافعٍ * إلا بتوفيقٍ من الوهابِ

يقول ابن القيم رحمه الله :" وَمن النَّاس من يكون حَظه من مُشَاهدَة حِكْمَة الأمر أعظم من مُشَاهدَة حِكْمَة الْخلق ، وَهَؤُلَاء خَواص الْعباد الَّذين عقلوا عَن الله أمْرَهْ وَدينه وَعرفُوا حكمته فِيمَا أحكمه وَشهِدت فطنهم وعقولهم أن مصدر ذَلِك حِكْمَة بَالِغَة وإحسان ومصلحة أُرِيدت بالعباد فِي معاشهم ومعادهم ، وهم فِي ذَلِك دَرَجَاتٍ لَا يحصيها إلا الله.

وَمِنْهُم من يكون حَظه من مُشَاهدَة حِكْمَة الْخلق أوفر من حَظه من حِكْمَة الأمر وهم أَكثر الأطباء الَّذين صرفُوا أفكارهم الى اسْتِخْرَاج مَنَافِع النَّبَات وَالْحَيَوَان وقواها وَمَا تصلح لَهُ مُفْردَة ومركبة ، وَلَيْسَ لَهُم نصيب فِي حِكْمَة الأمر إِلَّا كَمَا للفقهاء من حِكْمَة الْخلق ، بل أقل من ذَلِك .

وَمِنْهُم من فتح عَلَيْهِ بمشاهدة الْخلق وَالْأَمر بِحَسب استعداده وقوته فَرَأى الْحِكْمَة الباهرة الَّتِي بهرت الْعُقُول فِي هَذَا وَهَذَا ؛ فَإِذا نظر إلى خلقه وَمَا فِيهِ من الحكم ازْدَادَ إِيمَانًا وَمَعْرِفَة وَتَصْدِيقًا بِمَا جَاءَت بِهِ الرُّسُل ، وإذا نظر إلى أمْرَهْ وَمَا تضمنه من الحكم الباهرة ازْدَادَ إيماناً ويقيناً وتسليماً لا كمن حجب بالصنعة عَن الصَّانِع ، وبالكواكب عَن مكوكبها ، فَعمي بَصَره وَغلظ عَن الله حجابه ، وَلَو أعطى علمه حَقه لَكَانَ من أقوى النَّاس إِيمَانًا ؛ لأنه اطلع من حِكْمَة الله وباهر آيَاته وعجائب صَنعته الدَّالَّة عَلَيْهِ وعَلى علمه وَقدرته وحكمته على مَا خَفِي عَن غَيره ، وَلَكِن من حِكْمَة الله أيضا أن سلب كثيراً من عقول هَؤُلَاءِ خاصيتها وحجبها عَن مَعْرفَته وأوقفها عِنْد ظَاهر من الْعلم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وهم عَن الاخرة هم غافلون ؛ لدناءتها وخستها وحقارتها وَعدم أهليتها لمعرفته وَمَعْرِفَة أسمائه وَصِفَاته وأسرار دينه وشرعه ، وَالْفضل بيد الله يؤتيه من يَشَاء وَالله ذُو الْفضل الْعَظِيم.

وَهَذَا بَاب لَا يطلع الْخلق مِنْهُ على مَا له نِسْبَة إلى الخافِي عَنْهُم مِنْهُ أبداً ، بل علم الأولين والآخرين مِنْهُ كنقرة العصفور من الْبَحْر ، وَمَعَ هَذَا فَلَيْسَ ذَلِك بِمُوجب للإعراض عَنهُ واليأس مِنْهُ ، بل يسْتَدلّ الْعَاقِل بِمَا ظهر لَهُ مِنْهُ على مَا وَرَاءه. "

قال الذهبي بعد أن ترجم لبعض الملحدين الزنادقة قال :" لَعَنَ اللهُ الذَّكَاءَ بِلاَ إِيْمَانٍ، وَرَضِيَ اللهُ عَنِ البَلاَدَةِ مَعَ التَّقْوَى "[2] .

---

(1)

(2) سير أعلام النبلاء.

أنواع عُمر الإنسان

وهُنا فائدة مهمةٌ لطيفة ، ولفتةٌ عجيبة غابت عن كثيرٍ من الناس ، وهي أن للإنسان عُمْران ، العُمْر الجسدي ، والعُمر العقلي ، فعُمر الجسد هو الذي يُبدأ في حسابه من حين ولادة الإنسان ، ويزداد مع مرور الأيام ، وأما عُمْر العقل فهو الذي يزداد بالعلم والقراءة ، فقد تجد من الناس من هو في السبعين لكنه بعقل صبي في العاشرة من عمره ، وقد تجد عكس ذلك تماماً ؛ فتجد صبياً في الخامسة عشرة من عمره لكن حكمته وعلمه وخبرته في الحياة عُمرها سبعون سنة ! " وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) " ، فأُعطي الحكمة وحُسن الفهم وهو صغير السن.

عمر العقل يزداد بالتعلم والقراءة ، وعمر الجسد يزداد فقط بمرور الزمن والأيام ، وعمر العقل كلما كبر كان أكثر حكمة ، وعمر الجسد كلما كبر كان اكثر قوة حتى يصل الذروة ، ثم ينعكس اتجاه السير بعد ذلك فيصير كلما كبر ازداد وهناً ، فعمرك العقلي يقاس بما عكفت عليه من العلم.

والمفارقةُ العجيبة التي وقع فيها كثيرٌ من الناس - إلا من رحم الله – هي أنهم يعاملون الآخرين بعُمرِهم الجسدي لا بعُمرِهم العقلي ! وهذا خطأ فادح ، إذ الأولى أن يُعامل بعُمرِه العقلي لا الجسدي ، فذلك أولى ، والأولى من ذلك أن يُجمَع بينهما ، فيعطى التوقير والاحترام بعُمرِه الجسدي ، وينال الرفعة والمكانة وتُثنى عنده الركب بعمره العقلي ، " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ " فرفعة الدرجات بالعلم والإيمان ، لا بعدد الشيب في الرأس ، فقد تجد ذا شيبة لكنه من صناديد الكُفر ورأس فيه والعياذ بالله ، فهذا ما نفعه كبر سنه ، بل هو حجةٌ عليه ، " أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ " ، ففسر بعض أهل العلم النذير بالشيب ، وأما الشيب مع الإسلام فإنه نور للإنسان ، فقد جاء في الحديث " من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة " ، فشتان بين شيبةِ الكفر والجهل وشيبة العلم والإيمان.

لا مدخل للعقول في الغيبيات

للعقل حدود لا يستطيع الخروج عنها ، فلو خرج عنها فلن يرجع إلا بالحيرة والخيبة والتخبطات ، فحاله كحال الهاتف المحمول لا يزال يعمل بصورة صحيحة ما دام في نطاقه ، فإذا ما خرج من نطاقه لم يعمل بصورةٍ صحيحة.

فالعقل هو آلة إدراك ، وذلك الإدراك له قنواتٌ يأتي منها ، فالسمع قناةٌ ، والبصر قناةٌ له ، واللمس قناةٌ له ، وهكذا ، كما أنه يعقِل بعض الأشياء مجردةً فيدركها ، مثل معرفته أن الواحد مع الواحد اثنين ، فإذا ما أُغلِقت هذه المنافذ والقنوات لم يستطيع العقل إدراك الشيء على حقيقته ، فلو أني مثلاً أخبرتك أن حادثاً وقع في المنطقة الفُلانية ، ولم أخبرك بأي معلومة بعد ذلك ، فهل تستطيع بعقلك المجرد أن تعرِف تفاصيل الحادث ؟! ، هل تستطيع أن تعرف أنواع السيارات التي فعلت الحادث ؟ ، أو هل تستطيع أن تعرف ألوانها ؟! ، هل تستطيع أن تعرف من الذي أُصيب في الحادث وماذا جرى له ؟ ، تستطيع أن تعرف ذلك عن طريق الخبر أو الرؤية ، لكن لا تستطيع إلى ذلك سبيل بعقلك المجرد ، وهذا هو حال العقل بالنسبة للغيبيات ، فالغيبيات هي من غاب عنك ، فأنت لا تستطيع إدراكه إلا عن طريق الخبر ، لذلك فباب الغيبيات توقيفي على النصوص ، فلا يجوز لن أن نتكلم في الغيبيات إلا بما جاءنا به الكتاب والسنة الصحيحة ، إذ لا مدخل للعقول في الغيبيات استقلالاً ، فهي غائبةٌ عن العقل فكيف يدركها ؟

ومن هنا تعرف ضلال وانحراف من أنكر بعض الغيبيات لمجرد أنها غابت عن حسه !! إذ وجود الأشياء ليس موقوفاً على معرفتك بها ، فكم من شيء موجود وأنت لا تعرفه ! ، وكم من شيء في بالك تتمنى لو كان موجوداً وليس بموجود !! ، فوجود الأشياء لا يتوقف على معرفتك بوجودها ، وعدم العلم لا يعني العلم بالعدم ، وعدم علمك بجواب سؤالٍ لا يعني أنه لا يوجد جوابٌ لهذا السؤال ، بل له جواب أنت لا تعلمه ، وهكذا.

وهنا تنبيه وهو أن الإنسان قد يدرك وجود الشيء برؤية أثره لا برؤية ذاته ، إذ الأثر دالٌ على مؤثر ، والمُسبَّبُ دالٌ على سببٍ له ، والحادِث دالٌ على المُحدِث ، فعندما تجد آثار سيرٍ على الأرض دلّ ذلك على المسير ، والبعرُ يدلُ على البعير ، فأرض ذات فِجاج وسماوات ذات أبراج وبحارٌ ذات أمواج أفلا تدلان على اللطيف الخبير ؟

فالإنسان رغم أنه لم ير ربه إلا أنه تكفيه آياته سبحانه وتعالى ، " وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) " ، ورؤية الله ليست شرطاً للإيمان به إذ أنه قد بيّن لنا آياته ، وأنزل إلينا كتبه ، وأرسل إلينا رُسله ،" وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81) " ، " فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) " ، " وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22. " (

الدين يأتي بمحارات العقول لا بمحالاتها

العقلُ ينطلق في بناء العلوم والمعرفة من قاعدةٍ وأساس مركوز في الفطرة البشرية السليمة ، فهناك مبادئ عقلية أولية تُبنى عليها بقية المعلومات وتُقارنُ بها ، وهذه المبادئ كما ذكرنا مركوزة في الفطرة ، فإنك تجدها حتى عند الأطفال الصغار ، فإنك إذا لمست طفلاً على ظهره أو أصدرت له صوتاً من خلفه لبادر إلى الالتفات إليك ، وما ذلك إلا ترجمة لمبدأ مركوز فيه وهو مبدأ السببية ، بمعنى أن كل حادثٍ يحتاج إلى مُحدِث ، وعقل ذلك الطفل لا يقبل أن تقول له أن هذه اللمسة التي شَعَرَ به أو الصوت الذي سمعه لا سبب له ، إذ ذلك مخالفٌ لهذا المبدأ المركوز في الفطرة .

وهذا المبدأ يُردُّ به على الملاحدة ، إذ لا يُمكِن أن يكون هذا الكون حدث بلا مُحدِث ، وحجتهم في إنكار الإله أنهم لا يرونه ، فهم ينطلقون من القاعدة الإلحادية السفسطية :" ما لا يراه تلسكوبي فليس موجوداً " ، وهذا باطل ، إذ وجود الأشياء لا يتوقف على رؤيتهم لها أو علمهم بها ، فرؤيتهم للشيء ليست شرطاً لوجوده ! ، بل يكفي أن تعرف وجود الشيء وتجزم بذلك من مُجرد آثاره ، فإذا سمعت صوتاً فإنك ستجزم بأن له مصدر حتى ولو لم ترى مصدره أو تعرفه ، وإذا رأيت أثر أرجلٍ على الأرض ستعلم أن لها سبباً حتى ولو لم تره ، وما أجمل ما قاله الأعرابي ذو الفطرة السليمة التي اختصرت لنا هذا المبدأ إذ يقول :" البعر يدل على البعير ، والسير يدل على المسير، فأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج ، وسماوات ذات أبراج ألا تدل على اللطيف الخبير ؟."

واعلم أن هناك أدواتٌ للإدراك ، فإن لكل معلومةٍ من المعلومات أداةٌ لتُدرَك بها ، وجِهازٌ ليستقبلها ، ووسيلةٌ لتُكتشف بها ، وعند غياب تلك الأداة لا يمكننا استقبال أو إدراك أو معرفة تلك المعلومة ، ولا يمكن لأداة أُخرى أن تقوم مقامها ، فمثلاً الأنفُ تشمُ ما لا تراه العين ، والأذن تسمع ما لا تراه العين ، وهكذا ، فلا يعني أنك إن شممت شيئاً بأنفك أن ذلك يقتضي رؤية ذلك الشيء ، ولا يستلزم من رؤيتك لشيء أن تسمعه له صوتاً ، وهكذا .

فقد يخفى شيءٌ عن جميع أدوات الإدراك ويكون هذا الشيء موجوداً ، فالذي يُنكِرُ شيئاً موجوداً لمجرد كونه لم يتحسسه فحاله كحال الأعمى الذي يُنكِرُ وجود الناس من حوله لأنه لا يراهم. !

واعلم أن لهذه الأدوات الإدراكية مدى لا تستطيع التقاط المعلومات خارجه ، فمثلاً السمع لا يسمع الأصوات إلا بترددات معينة ، فإذا ما خرجت الأصوات عن نطاق تلك الترددات لم يسمعها ، والنظر له حدود ، حتى العقل له حدود ، فكما يقال لك عن بعض التطبيقات على الجوال أنها غير مدعومة فكذلك عينك لا تدعم بعض أنواع المعلومات ، وهكذا السمع ، والذي أريد أن أقوله أننا لا نقبل ممن لم تدرك حواسه بعض الغيبيات التي أخبرنا به الخالق - الذي يعلم السر وأخفى – أن ينكرها ويزعم عدم وجودها ، فإن هذه الغيبيات نؤمن بها لأنها أتتنا عن طريق الخبر الصادق من الخالق العليم بكل شيء.

والمبادئ العقلية الأولية لا يُقبلُ المساس بها ، فإنها إذا أصابها أي خلل ستنهار منظومة العلوم المبنية عليها.

وكذلك من هذه المبادئ العقلية الأولية مبدأ عدم اجتماع النقيضين ، مثل أن يُقال :" هذا الشيء موجود وغير موجود في نفس الوقت " ، فإن هذا غير مقبول ، فإما أن يكون موجوداً أو لا ، فالنقيضان لا يجتمعان ، وكذلك مبدأ الجزء أقل من الكل.

والحاصل أن الدين لا يأتي بِما يُناقض هذه المبادئ ، ولكنه قد يأتي بما يحير العقل ، وما تحار فيه العقول لا يعني عدم وجوده ، فتحيُّرُ العقول لا يستلزم إنكار الشيء وعدم وجوده ، بل قد جرت العادة أن يكتشف الإنسان أشياء يحار فيها عقله إذ أنها جديدةٌ عليه ولم يعتد عليها ، فمثلاً قد ترى من الناس من له أعضاء أو أطراف فيها زيادة بطريقة غريبة ، فيحار العقل في ذلك ، وهكذا.

وتأمل في الصناعات الحديثة كالحواسيب والهواتف وغيرها فإنك تجد أن العقل يحار فيها غير أنها لا ينكر حقيقتها ، ولو أخبرنا القدماء الذين لم يشهدوا هذه الهواتف بأنه سيكون في المستقبل جهاز تكلم به صديقك الذي في الطرف الآخر من العالم بل قلنا له أنك سترى صديقك الذي الطرف الآخر من العالم ويراك عن طريق هذا الجهاز سيقول لك أن هذا سحرٌ أو ضربٌ من الجنون ، في حين أنه الآن لا هذا ولا ذاك.

وإنك لتجد بعض الملحدين يستنكرون معجزة عصا موسى عليه السلام ويقولون :" كيف لعصا أن تتحول إلى ثعبان " ، فنجيبهم ببساطة :" كيف أنت تحولت من منِّي إلى إنسان ؟ " ، أيهما أعجب ؟ وأيهما أكثر إحارة للعقول ؟! ، فالقادر على أن يحول المني إلى إنسان قادرٌ على أن يحول العصا إلى ثعبان.

فالحاصل أن المعجزات تحار فيها العقول لكن لا تستحيلها ، وأهوال القيامة وأحوال القبر كذلك ، والعقل الصريح لا ينافي النقل الصحيح ، والذي أنزل القرآن وأرسل الرسل بالسنة والبيان هو نفسه الذي خلق العقول ، فإياك أن تجعل الحيرة دليلاً على إبطال النصوص ، بل عليك بالإيمان والتسليم ، " وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8) " .

<u>القوة العلمية والقوة العملية</u>

العقلُ فيه قوة العلم ، والجسم فيه قوة العمل ، والناس يتفاوتون في هاتين القوتين.

يقول ابن القيم رحمه الله في تقسيم الناس من حيث القوة العلمية والعملية:" فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ويكون ضعيفا في القوة العملية ؛ يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها ، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها ، فهو فقيه ما لم يحضر العمل ، فإذا حضر العمل شارك الجهال في التخلف وفارقهم في العلم ، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم ، والمعصوم من عصمه الله ، ولا قوة إلا بالله.

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية ، وتكون أغلب القوتين عليه ، وتقتضي هذه القوة السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل ، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد والانحرافات في الأعمال والأقوال والمقامات كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات ، فداء هذا من جهله ، وداء الأول من فساد إرادته وضعف عقله ، وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم بل على طريق الذوق والوجد والعادة ، يُرى أحدهم أعمى عن مطلوبه لا يدري من يعبد ولا بماذا يعبده ، فتارة يعبده بذوقه ووجده ، وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه من لبس معين أو كشف رأس أو حلق لحية ونحوها ، وتارة يعبده بالأوضاع التي وضعها بعض المتحذلقين وليس له أصل في الدين ، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائنا ما كان ، وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد ، فهؤلاء كلهم عمي عن ربهم وعن شريعته ودينه ، لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه ولا يقبل من أحد دينا سواه ، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التي تعرف بها إلى عباده على ألسنة رسله ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها ، فلا معرفة بالرب ولا عبادة له.

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله ، ورجي له النفوذ ، وقوي على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته ، فإن القواطع كثيرة ، شأنها شديد ، لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد ، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين ، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها ولكن الله يفعل ما يريد ، والوقت كما قيل سيف فإن قطعته وإلا قطعك ، فإذا كان السير ضعيفا والهمة ضعيفة والعلم بالطريق ضعيفا والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة فإنه جهد البلاء ودرك الشقاء وشماتة الأعداء إلا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب فيأخذ بيده ويخلصه من أيدي القواطع ، والله ولي التوفيق " ذكر ذلك رحمه الله في كتابه طريق الهجرتين.

ثمرة العقل

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :" وهذا ثمرةُ العقل الذي به عُرِفَ اللهُ سبحانه وتعالى، وأسماؤُهُ، وصفاتُ كماله، ونعوتُ جلاله، وبه آمن المُؤْمِنُون بكتبِهِ ورُسلِه ولقائِه وملائكته، وبه عُرِفَتْ آياتُ ربوبيته، وأدلةُ وحدانيته، ومعجزاتُ رسله، وبه امْتُثِلَتْ أوامرُه، واجْتُنِبَتْ نواهيه، وهو الذي يَلْمَحُ العواقبَ فرَاقبَها، وعَمِلَ بمقتضى مصالحها، وقاوم الهوى، فردَّ جيشَه مفلولًا، وساعدَ الصبرَ حتى ظَفِرَ به بعد أن كانَ بسهامه مقتولًا، وحثَّ عَلَى الفضائل، ونهى عن الرذائل، وَفَتقَ المعاني، وأدركَ الغوامضَ، وشَدَّ أزْرَ العزم، فاستوى على سُوقه، وقَوَّى أزْرَ الحزم حتى حَظِي من الله بتوفيقه، فاستجلبَ ما يَزِينُ، ونفى ما يَشِينُ، فإذا تُرِكَ وسلطانه أسرَ جنودَ الهوى، فحصرَها في حبس " مَنْ تركَ لله شيئًا عوَّضه الله خيرًا منه " ، ونهضَ بصاحبه إلى منازل الملوك، إذا صيَّر الهوى المَلِكَ بمنزلة العبد المملوك، فهو شجرةٌ عُروقُها الفكر في العواقب، وساقُها الصبر، وأغصانُهَا العِلْم، وورقها حسن الخُلُقِ، وثمرها الحكمة، ومادَّتها توفيق مَنْ أزِمَّة الأمور بيديْه، وابتداؤُها منه وانتهاؤُها إليه."

الوعي وإدراك الذات معضلة للملاحدة

يقول عبدالله العجيري في كتابه ميليشيا الإلحاد :" مسألة الوعي والإدراك وكيف تشكل في ضوء النظرية المادية قضية محيرة فعلاً ، إذ كيف ينتج الدماغ بعناصره المادية المحضة مثل هذا النشاط فتتحقق حالة الوعي بالذات وإدراك الهوية الذاتية للفرد ، إضافة إلى إدراك العالم الخارجي ، والتعرف على الذات والمفارق ، والأنا والآخر."

ويقول :" بل إن بعض الملاحدة يبدئ قدراً من التشاؤم من إمكانية أن يجيب العلم على مثل هذا السؤال ، ومع ذلك يرفض قبول التفسير المتعقل لهذه الظاهرة وهو أن الله جل وعلا هو الذي أحدثها ".

(5القلب

" وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) "
[الشعراء]

"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37) " [سورة ق]

"لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ... (179) " [سورة الأعراف]

"أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وهي القلب"
]البخاري ومسلم[

" وَالْقلب إِنَّمَا خلق لأجل حب الله تَعَالَى"
[أمراض القلوب وشفاؤها - ابن تيمية رحمه الله تعالى]

القلب من الأمور التي اعتنت بها الشريعة اهتماماً شديداً ، فتجِد ذكره في كثيرٍ من النصوص ، وما ذلك إلا لأهميته ومركزيته وعظيمِ أثرِه وتأثره ، فتجد في النصوص إخبارٌ عن القلب وأحواله ، فتجد القرآن يحدثنا عن القلب السليم ، والقلب المريض ، والقلب القاسي كالحجارة ، ويحدثنا عن عمى القلب.

فتأمل هذا القلب الذي هو مركز المشاعر ، وهو مضخة الدم لباقي الجسم ، ما الذي يُحرِّك هذه المضخة ؟ ، وبأي نوعٍ من أنواع الطاقة تعمل ؟. !

ومن تفكَّر في أمر هذه المشاعر لحار عقله ، فكيف يحصل الحب ؟! ، وكيف يحصل البغض ؟! ، وكيف يحصل الغضب ؟! ، وهكذا ، بل وهذه المشاعر لا يمكن فهمها إلا بالشعور بها ، ولا يمكن تعريفها ، فمثلاً الحُب لا يمكن تعريفه بتعريفٍ أوضح من لفظةِ الحُب نفسها ! ، إذ هو أمرٌ تعريفه مُتعلِّقٌ بأن يُشعر به ، ومن أراد تعريف الحب فحاله كحال من أراد أن يصف السماء ولونها لمن وُلِد أعمى ! ، فماذا يقولُ له حتى يفهمه ؟. !

يقول ابن القيم رحمه الله متحدثاً عن القلب :" وَمن حجب الْملك فِي الصُّدُور وَأَجْلسهُ هُنَاكَ على كرْسِي المملكة وأقام جند الْجَوَارِح والأعضاء والقوى الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة فِي خدمته وذللها لَهُ ، فَهِيَ مؤتمرة إِذا أمرها ، منتهية إِذا نهاها ، سامعة لَهُ مطيعة ، تكدح وتسعى فِي مرضاته ، فَلَا تَسْتَطِيع مِنْهُ خلاصا وَلَا خُرُوجًا عَن أمْرَهْ ، فَمِنْهَا رَسُوله ، وَمِنْهَا بريده ، وَمِنْهَا ترجمانه ، وَمِنْهَا أعوانه ، وكل مِنْهَا على عمل لَا يتعداه وَلَا يتَصَرَّف فِي غير عمله ، حَتَّى إِذا أَرَادَ الرَّاحَة أوعز إِليها بالهدوء والسكون ليَأْخُذ الْملك رَاحَته ، فَإِذا اسْتَيْقَظَ من مَنَامه قَامَت جُنُوده بَين يَدَيْهِ على أعمالها ، وَذَهَبت حَيْثُ وَجههَا ، دائبة لَا تفتر ، فَلَو شاهدته فِي مَحل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عَنهُ وواردة والعساكر فِي خدمته وَالْبرد تَتَرَدَّد بَينه وَبَين جنده ورعيته لرأيت لَهُ شَأْنًا عجيبا " ، " ألا وإن في الجسد مضغة. "

يقول ابن القيم :" فَمَاذَا فَاتَ الْجَاهِل الغافل من الْعَجَائِب والمعارف والعبر الَّتِي لَا يحْتَاج فِيهَا إِلَى طول الأسفار وركوب القفار قَالَ تَعَالَى :" وَفِي الأَرْض آيَات للموقنين * وَفِي أَنفسكُم أَفلا تبصرون " فَدَعَا عباده إِلَى التفكر فِي أنفسهم ، وَالِاسْتِدْلَال بهَا على فاطرها وباريها ، وَلَوْلَا هَذَا لم نوسع الْكَلَام فِي هَذَا الْبَاب وَلَأطلنا النَّفس إِلَى هَذِه الْغَايَة ، وَلَكِن الْعبْرَة بذلك حَاصِلَة وَالْمَنْفَعَة عَظِيمَة ، والفكرة فِيهِ مِمَّا يزِيد الْمُؤمن إيماناً ، فكم دون الْقلب من حرس ، وَكم لَهُ من خَادِم ، وَكم لَهُ من عبيد ، وَلَا يشْعر بِهِ ، وَللَّه مَا خلق لَهُ وهيأ لَهُ وأريد مِنْهُ ، وَأعد لَهُ من الْكَرَامَة وَالنَّعِيم أَوْ الهوان وَالْعَذَاب ، فَإِما على سَرِير الْملك فِي مقْعد صدق عِنْد مليك مقتدر ، ينظر إِلَى وَجه ربه وَيسمع خطابه ، وَإِمَّا أسير فِي السجْن الأعظم بَين أطباق النيرَان فِي الْعَذَاب الأليم ، فَلَو عقل هَذَا السُّلْطَان مَا هيأ لَهُ لضن بِملكه ولسعى فِي الْملك الَّذِي لا ينقطع وَلَا يبيد ، وَلكنه ضربت عَلَيْهِ حجب الْغَفْلَة ليقضي الله أمرا كَانَ مَفْعُولا. "

(6آية النوم

"وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِه ۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) "
]سورة الروم[

النومُ آيةٌ من آيات الله سبحانه وتعالى ؛ إذ فيه دليلٌ على البعث والنشور ، فإن النوم موتةٌ صُغرى ، فكما أن الإنسان يموتُ هذه الموتَة الصُغرى ثم يقومُ منها ، فهو كذلك سيموتُ الموتة الكُبرى وسيُبعثُ منها.

ومن عجائب هذا النوم هذا التعطيل والإطفاء الذي يحدث للجسد ، فهو كالجهاز الذي تم إيقاف تشغيله ، فمثلاً إذا أردت أن تُوقِف جهازاً كهربائياً فإنك تفصل التيار عنه ، ولكن جسمك هذا ما الذي توقف فيه ، ما الذي أدى إلى توقف جميع البدن عن العمل والحركة والشعور ؟ ، هل انقطعت عنه الكهرباء ؟ ، أم نفد وقوده ؟ ، ماذا حصل ؟! ، ما الآلية التي يحدث بها هذا النوم ؟.

فتأمل لهذه الآية التي يمارسها الناس كل يوم وهو في غفلةٍ عنها ، فسبحان الله .

(7معجزةُ اليد وتحول شكلها

"لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) "
]سورة المائدة[

تأمل ليدك ، وتأمل كيف يختلف شكلها عن شكل القدم ، فالقدم لمّا خُلِقت للسير عليها كانت منبسطةً لتلائم سطح الأرض فتحمل صاحبها دون كُلفة ، وأما اليد فخُلِقت بصورة مختلفة لتناسب وظائفها ، فإنها لمّا خُلِقت لمهام متعددة جعلها الله عز وجل تتشكل ، فتكون كالطبق إذا أردت أن تُناول بها شيئاً أو تتناول بها شيئاً ، وتُصبِح كالمغرفة لغرف الماء كما عند الوضوء ، وتقبضها فتصير قبضةً وهي آلة دِفاع ، فسبحان الخالق القدير.

قال ابن قدامة المقدسي رحمه الله في كتابه الوصية :" واعلم أنك لا تقدر على معصيته إلا بنعمته ، فكم له عليك من نعمة في يدك التي مددتها إلى معصيته ، وكم له من نعمة في عينك التي نظرت بها إلى ما حرم عليك ، وفي لسانك الذي نطقت به بما لا يحل لك ، وليس من شكر إنعامه أن تستعين بها على معاصيه."

(8الأعضاء ووظائفها

"أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ " (9)
]سورة البلد[

يقول ابن القيم رحمه الله :" فَارْجِع الآن إِلى نَفسك ، وَكرر النّظر فِيك فَهُوَ يَكْفِيك ، وَتَأمل أعضاءك وَتَقْدِير كل عُضْو مِنْهَا للأرب وَالْمَنْفَعَة المهيأ لَهَا ، فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والإعطاء والمحاربة وَالدَّفْع ، وَالرجلَانِ لحمل الْبدن وَالسَّعْي وَالرُّكُوب وانتصاب الْقَامَة ، والعينان للاهتداء وَالْجمال والزينة والملاحة ورؤية مَا فِي السَّمَوَات والارض وآياتهما وعجائبهما ، والفم للغذاء وَالْكَلَام وَالْجمال وَغير ذَلِك ، والأنف للنَّفس وَإِخْرَاج فضلات الدِّمَاغ وزينة للْوَجْه ، وَاللِّسَان للْبَيَان والترجمة عَنْك ، والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك ، وَاللِّسَان يبلغ عَنْك .

والمعدة خزانَة يسْتَقرّ فِيهَا الْغذَاء فتنضجه وتطبخه وتصلحه إصلاحاً آخر وطبخاً آخر غير الإصلاح والطبخ الَّذِي تَوليته من خَارج ، فَأَنت تعاني إنضاجه وطبخه وإصلاحه حَتَّى تظن أنه قد كمل وأنه قد اسْتغنى عَن طبخ آخر وإنضاج آخر ، وطباخه الدَّاخِل ومنضجه يعاني من نضجه وطبخه مَا لا تهتدي إليه وَلَا تقدر عَلَيْهِ ، فَهُوَ يُوقد عَلَيْهِ نيرانا تذيب الْحَصَى وتذيب مَا لا تذيبه النَّار ، وَهِي فِي ألطف مَوضِع مِنْك ، لَا تحرقك، وَلَا تلتهب ، وَهِي أشد حرارة من النَّار ، وَإِلَّا فَمَا يذيب هَذِه الأطعمة الغليظة الشَّدِيدَة جداً حَتَّى يَجْعَلهَا مَاء ذائبا .

وَجعل الكبد للتخليص وأخذ صفو الْغذَاء وألطفه ، ثمَّ رتب مِنْهَا مجاري وطرقا يَسُوق بهَا الْغذَاء إلى كل عُضْو وَعظم وَعصب وَلحم وَشعر وظفر ، وَجعل الْمنَازل والأبواب لإدخال مَا ينفعك وَإِخْرَاج مَا يَضرك ، وَجعل الأوعية الْمُخْتَلفَة خَزَائِن تحفظ مَادَّة حياتك ، فَهَذِهِ خزانَة للطعام ، وَهَذِه خزانَة للحرارة ، وَهَذِه خَزَائِن للدم ، وَجعل مِنْهَا خَزَائِن مؤديات لِئَلَّا تختلط بالخزائن الأخر ، فَجعل خَزَائِن للمرة السَّوْدَاء ، وَأُخْرَى للمرة الصَّفْرَاء ، وَأُخْرَى للبول ، وَأُخْرَى للمني."

ويقول رحمه الله :" ثمَّ تَأمل الْحِكْمَة فِي أن جعل الْحَواس خمْساً فِي مُقَابلَة المحسوسات الْخمس ليلقى خمْساً بِخمْس ؛ كي لَا يبْقى شَيْء من المحسوسات لَا يَنَالهُ بحاسة ، فَجعل الْبَصَر فِي مُقَابلَة المبصرات ، والسمع فِي مُقَابلَة الأصوات ، والشم فِي مُقَابلَة أَنْوَاع الروائح المختلفات ، والذوق فِي مُقَابلَة الكيفيات المذوقات ، واللمس فِي مُقَابلَة الملموسات ، فَأَي محسوس بَقِي بِلَا حاسة ؟! ، وَلَو كَانَ فِي المحسوسات شَيْء غير هَذِه لأعطاك لَهُ حاسة سادسة ، وَلما كَانَ مَا عَداهَا إِنَّمَا يدْرك بالباطن اعطاك الْحَواس الْبَاطِنَة ".

إلى أن يقول رحمه الله:" ثمَّ أعينت هَذِه الْحَواس بمخلوقات أخر مُنْفَصِلَة عَنْهَا تكون وَاسِطَة فِي إحساسها ، فأعينت حاسة الْبَصَر بالضياء والشعاع ؛ فلولاه لم ينْتَفع النَّاظر ببصره ، فَلَو منع الضياء والشعاع لم تَنْفَع الْعين شَيْئاً ، وأعينت حاسة السّمع بالهواء يحمل الأصوات فِي الجو ثمَّ يلقيها إلى الأذن فتحويه ثمَّ تقلبه إلى الْقُوَّة السامعة ، وَلَوْلَا الْهَوَاء لم يسمع الرجل شَيْئا ، وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللَّطِيف يحمل الرَّائِحَة ثمَّ يُؤَدِّيهَا إليها فتدركها ، فلولا هُوَ لم تشم شَيْئا ، وأعينت حاسة الذَّوْق بالريق المتحلل فِي الْفَم تدْرك الْقُوَّة الزائقة بِهِ طعوم الأشياء ، وَلِهَذَا لم يكن لَهُ طعم لَا حُلْو وَلَا حامض وَلَا مالح

وَلَا حريف ؛ لأنه كَانَ يحِيل تِلْكَ الطعوم إلى طعمه وَلَا يحصل بِهِ مَقْصُوده ، وأعينت حاسة اللَّمْس بِقُوَّة جعلهَا الله فِيهَا تدْرك بهَا الملموسات وَلم تحتج إِلَى شَيْء من خَارج ، بِخِلَاف غَيرهَا من الْحَواس ، بل تدْرك الملموسات بِلَا وَاسِطَة بَينهَا وَبَينهَا ؛ لأنها إِنَّمَا تدركها بالاجتماع وَالْمُلَامَسَة فَلم تحتج الى وَاسِطَة ".

يقول ابن القيم رحمه الله :" فَلَو أَرَادَ الله أن يهديك لسألت نَفسك بِنَفْسِك ، وَقلت:" أخبريني عَن هَذِه الطبيعة ؟! ، أهي ذَات قَائِمَة بِنَفسِهَا لَهَا علم وقدرة على هَذِه الأفعال العجيبة ؟! أم لَيست كَذَلِك ؟! ، بل عرض وَصفَة قَائِمَة بالمطبوع ، تَابِعَة لَهُ ، مَحْمُولَة فِيهِ " ، فَإِن قَالَت لَك :" بل هِيَ ذَات قَائِمَة بِنَفسِهَا لَهَا الْعلم التَّام وَالْقُدْرَة والإرادة وَالْحكمَة " ، فَقل لَهَا :" هَذَا هُوَ الْخَالِق البارئ المصور ! فَلم تسمينه طبيعية ؟! ، وَيَا لله من ذكر الطبائع وَمن يرغب فِيهَا ، فَهَلا سميته بِمَا سمى بِهِ نَفسه على ألسن رسله وَدخلت فِي جملَة الْعُقَلَاء والسعداء ؟! ، فَإِن هَذَا الَّذِي وصفت بِهِ الطبيعة صفته تَعَالَى " ، وَإِن قَالَت :" بل الطبيعة عرض مَحْمُول مفتقر إلى حَامِل ، وَهَذَا كُله فعلهَا بِغَيْر علم مِنْهَا وَلَا إِرَادَة وَلَا قدرَة وَلَا شُعُور أصلا " ، وَقد شوهد من آثارها مَا شوهد فَقل لَهَا :" هَذَا مَا لا يصدقهُ ذُو عقل سليم ! كَيفَ تصدر هَذِه الأفعال العجيبة وَالْحكم الدقيقة الَّتِي تعجز عقول الْعُقَلَاء عَن مَعْرفَتهَا وَعَن الْقُدْرَة عَلَيْهَا مِمَّن لَا عقل لَهُ وَلَا قدرَة وَلَا حِكْمَة وَلَا شُعُور ؟! ، وَهل التَّصْدِيق بِمثل هَذَا إِلَّا دُخُول فِي سلك المجانين والمبرسمين ؟. " !

ثمَّ قل لَهَا بعد :" وَلَو ثَبت لَك مَا ادعيت ، فمعلوم أن مثل هَذِه الصّفة لَيست بخالقة لنَفسهَا وَلَا مبدعة لذاتها ! ، فَمن رَبهَا ومبدعها وخالقها ؟! ، وَمن طبعها وَجعلهَا تفعل ذَلِك ؟! ، فَهِيَ إِذا من أدل الدَّلَائِل على بارئها وفاطرها وَكَمَال قدرته وَعلمه وحكمته ! فَلم يجد عَلَيْك تعطيلك رب الْعَالم وجحدك لصفاته وأفعاله إلا مخالفتك الْعقل والفطرة ! ، وَلَو حاكمناك إِلَى الطبيعة لرأيناك أنك خَارج عَن مُوجبهَا ، فَلَا أنت مَعَ مُوجب الْعقل وَلَا الْفطْرَة وَلَا الطبيعة وَلَا الإنسانية أصلاً ، وَكفى بذلك جهلاً وضلالاً ؛ فَإِن رجعت إِلَى الْعقل وَقلت لَا يُوجد حِكْمَة إلا من حَكِيم قَادر عليم ، وَلَا تَدْبِير متقن إلا من صانع قَادر مُخْتَار مُدبر عليم بِمَا يُرِيد قَادر عَلَيْهِ لَا يعجزه وَلَا يؤوده قيل لَك :" فَإِذا أقررت - وَيحك - بالخلاق الْعَظِيم الَّذِي لَا إله غَيره وَلَا رب سواهُ فدع تَسْمِيَته طبيعة أو عقلاً فعالاً أَوْ مُوجبا بِذَاتِهِ ، وَقل هَذَا هُوَ الله الْخَالِق البارئ المصور ، رب الْعَالمين ، وقيوم السَّمَوَات والأرضين ، وَرب الْمَشَارِق والمغارب ، الَّذِي أحسن كل شَيْء خلقه ، وأتقن مَا صنع ، فمالك جحدت أسماءه وَصِفَاته وذاته ؟! ، وأضفت صَنِيعه إِلَى غَيره وخلقه إِلَى سواهُ مَعَ أنك مُضْطَر إِلَى الإقرار بِهِ وَإِضَافَة الإبداع والخلق والربوبية وَالتَّدْبِير إليه وَلَا بُد.

وَالْحَمْد لله رب الْعَالمين على أنك لَو تَأَمَّلت قَوْلك "طبيعة " وَمعنى هَذِه اللَّفْظَة لدلك على الْخَالِق الباريء لَفظهَا كَمَا دلّ الْعُقُول عَلَيْهِ مَعْنَاهَا ؛ لَأن " طبيعة " فعيلة بِمَعْنى مفعولة أَي مطبوعة ، وَلَا يحْتَمل غير هذا الْبَتَّةَ ؛ لأنها على بِنَاء الغرائز الَّتِي ركبت فِي الْجِسْم وَوضعت فِيهِ كالسجية والغريزة والبحيرة والسليقة والطبيعة ، فَهِيَ الَّتِي طبع عَلَيْهَا الْحَيَوَان وطبعت فِيهِ ، وَمَعْلُوم أن طبيعة من غير طَابع لَهَا محَال ، فقد دلّ لفظ الطبيعة على البارئ تَعَالَى كَمَا دلّ مَعْنَاهَا عَلَيْهِ .

والمسلمون يَقُولُونَ أن الطبيعة خلق من خلق الله ، مسخر مربوب ، وَهِي سنته فِي خليقته الَّتِي أجراها عَلَيْهِ ، ثمَّ إنه يتَصَرَّف فِيهَا كَيفَ شَاءَ وكما شَاءَ ، فيسلبها تأثيرها إِذا أراد ، ويقلب تأثيرها إِلى ضِدّه إِذا شَاءَ ، ليري عباده أَنه وَحده الْخَالِق البارئ المصور ، وَأَنه يخلق مَا يَشَاء كَمَا يَشَاء ، وَإِنَّمَا أمْرَهْ إِذا أراد شَيْئا أن يَقُول لَهُ كن فَيكون ، وَإِن الطبيعة الَّتِي انْتهى نظر الخفافيش إليها إِنَّمَا هِيَ خلق من خلقه بِمَنْزِلَة سَائِر مخلوقاته ، فَكيف يحسن بِمن لَهُ حَظّ من إنسانية أو عقل أن ينسى من طبعها وخلقها ويحيل الصنع والابداع عَلَيْهَا ؟! ".

(9آية العين ، ومواضع الأعضاء

"إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) "
]سورة الإنسان[

وتأمل مواضع هذه الأعضاء ؛ إذ وُضِعَت في أليق الأمكنةِ المناسبة لها وأنسبها ، فلو أردت أن تُحرِّك أي عضوٍ منك عن مكانه فإنه لا يستقيم ، فلو كانت العينين مكان الأذنين والأذنين مكان العينين لما استقام ذلك ، ولفاتت حِكَم ومصالح كثيرة بذلك ، ولو كانت الأذنين من خلف الرأس لكان ذلك عبئاً على الإنسان ، إذ أنه إذا أراد أن ينظر لمن يُحدِّثه فسيتقبله بوجهه كي يراه بعينيه ، وإذا أراد أن يسمع جليسه لاحتاج أن يعطيه قفاه إذ فيه أذنيه ؛ وذلك حتى يسمع الصوت بوضوح.

وتأمل كيف أن الأنف مستشعرٌ لسلامة الطعام وصحِّيَّته ، فإنك عندما تُقرِّبُ الطعام من فمك فإن أنفك تقوم بفحص الطعام الداخل إلى الفم ، فإذا ما تبين فساده تحركت يدك راجعةً ومبتعدةً عن فمك ، ومُبعِدةً لذلك الطعام ، فتأمل كيف وُضِعت فوق الفم ، وتأمل كيف أنها وُضعِت تحت العينين ، إذا لو كانت فوقهما لكان شكل الإنسان لا يُطاق ويُستقبح ، بل يكون كالمسخ ، ولو كانت فوق العينين لكان المخاط ينزل على العينين فيضرهما.

وتأمل كيف أن حاسة الذوق اختص به اللسان الذي وُضع في مكان محفوظ ، فلو كانت حاسة التذوق في اليد والقدم وغيرهما من الأعضاء الظاهرة لكانت الحياة لا تطاق ، ولكنها جُعلت في اللسان ، وجُعل له باب ، فإذا أراد الإنسان أن يتذوق فتح هذا الباب وإلا أغلقه.

يقول ابن القيم رحمه الله :" فاعد النّظر فِي نَفسك وَحِكْمَة الخلاق الْعَلِيم فِي خلقك ، وَانْظُر إِلَى الْحَواس الَّتِي مِنْهَا تشرف على الأشياء كَيفَ جعلهَا الله فِي الراس كالمصابيح فَوق المنارة لتتمكن بهَا من مطالعة الأشياء ، وَلم تجْعَل فِي الأعضاء الَّتِي تمتهن كاليدين وَالرّجلَيْنِ فتتعرض للآفات بِمُبَاشَرَة الأعمال والحركات ، ولا جعلها فِي الأعضاء الَّتِي فِي وسط الْبدن كالبطن وَالظّهْر فيعسر عَلَيْك التلفت والاطلاع على الأشياء ، فَلَمَّا لم يكن لَهَا فِي شَيْء من هَذِه الأعضاء مَوضِع كَانَ الرأس أليق الْمَوَاضِع بهَا وأجملها ، فالرأس صومعة الْحَواس."

و يقول رحمه الله :" وَمن الَّذِي جعل الأجفان على الْعَينَيْنِ كالغشاء ، والأشفار كالأشراج ، والأهداب كالرفوف عَلَيْهَا إِذا فتحت ، وَمن الَّذِي ركب طبقاتها الْمُخْتَلفَة طبقَة فَوق طبقَة حَتَّى بلغت عدد السَّمَوَات سبعا ، وَجعل لكل طبقَة مَنْفَعَة وَفَائِدَة ، فَلَو اختلت طبقَة مِنْهَا لاختل الْبَصَر ، وَمن شقهما فِي الْوَجْه أحسن شقّ ، وأعطاهما أحسن شكل وأودع الملاحة فيهمَا وجعلهما مرْآة للقلب وطليعة وحارسا للبدن ورائدا يُرْسِلهُ كالجند فِي مهماته فَلَا يتعب وَلَا يعيا على كَثْرَة ظعنه وَطول سَفَره ؟! ، وَمن أودع النُّور الباصر فِيهِ - فِي قدر جرم العدسة - فَيرى فِيهِ السَّمَوَات والأرض وَالْجِبَال وَالشَّمْس وَالْقَمَر والبحار والعجائب من دَاخل سبع طَبَقَات وجعلهما فِي أعلى الْوَجْه بِمَنْزِلَة الحارس على الرابية الْعَالِيَة ربيئة للبدن " ، ومن بحث عن إعجاز العين لوجد الكثير من العجائب.

وقد كنت حائراً في سؤالٍ يدور في بالي : أيهما أشد فقد البصر أم فقد السمع ؟ ، وكلا الأمرين شديد ، يقول الشاعر:

وأولادنا مثلُ الجوارح إيها * فقدانه كان الفاجع البيِّن الفقدِ
هل العين بعد السمعِ تكفي مكانه * أم السمع بعد العينِ يهدي كما تهدي ؟

ثم وجدت بعد ذلك كلاماً نفيساً لابن القيم رحمه الله في هذه المسألة فقال رحمه الله:" ثمَّ تَأمل حَال من عدم الْبَصَر وَمَا يَنَالهُ من الْخلَل فِي أُمُوره ؛ فَإِنَّهُ لَا يعرف مَوضِع قدمه ، وَلَا يبصر مَا بَين يَدَيْهِ ، وَلَا يفرق بَين الألوان والمناظر الْحَسَنَة من القبيحة ، وَلَا يتَمَكَّن من استفادة علم من كتاب يقرأه ، ولا يتهيأ لَهُ الِاعْتِبَار وَالنَّظَر فِي عجائب ملك الله ، هَذَا مَعَ أنه لَا يشْعر بِكَثِير من مَصَالِحه ومضاره ، فَلَا يشْعر بحفرة يهوى فِيهَا ، وَلَا بحيوان يَقْصِدهُ - كالسبع - فيتحرز لَهُ ، وَلَا بعدو يهوى نَحوه ليَقْتُلهُ ، وَلَا يتَمَكَّن من هرب إن طلب ، بل هُوَ ملق السّلم لمن رامه بأذى ، وَلَوْلَا حفظ خَاص من الله لَهُ قريب من حفظ الْوَلِيد وكلاءته لَكَانَ عطبه أقْربْ من سَلَامَته ؛ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَة لحم على وَضم.

وَلذَلِك جعل الله ثَوَابه إِذا صَبر واحتسب الْجنَّة ، وَمن كَمَال لطفه أن عكس نور بصره إِلَى بصيرته ؛ فَهُوَ أقوى النَّاس بَصِيرَة وحدسا ، وَجمع عَلَيْهِ همه فقلبه مَجْمُوع عَلَيْهِ غير مشتت ليهنأ لَهُ الْعَيْش وتتم مصْلحَته ، وَلَا يظنّ أنه مغموم حَزِين متأسف ، هَذَا حكم من ولد اعمى.

فَأَما من أصيب بِعَيْنيهِ بعد البصر فَهُوَ بِمَنْزِلَة سَائِر أهل الْبلَاء المنتقلين من الْعَافِيَة إِلَى البلية ، فالمحنة عَلَيْهِ شَدِيدَة ؛ لأنه قد حيل بَينه وَبَين مَا ألفه من الْمرَائِي والصور ووجوه الِانْتِفَاع ببصره ، فَهَذَا لَهُ حكم آخر.

وَكَذَلِكَ من عدم السّمع ، فَإِنَّهُ يفقد روح المخاطبة والمحاورة ، ويعدم لَذَّة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية ، وتعظم الْمُؤْنَة على النَّاس فِي خطابه ويتبرمون بِهِ ، وَلَا يسمع شَيْئا من أخبار النَّاس وأحاديثهم ، فَهُوَ بَينهم شَاهد كغائب وَحي كميت وَقَرِيب كبعيد.

وَقد اخْتلف النظار فِي أيهما أقْربْ إِلَى الْكَمَال وأقل اختلالاً لأموره: الضَّرِير اَوْ الأطرش ؟! ، وَذكروا فِي ذَلِك وُجُوهًا ، وَهَذَا مَبْنِيّ على أصل آخر وَهُوَ أَي الصفتين أكمل صفة السّمع اَوْ صفة الْبَصَر؟ ، وَقد ذكرنَا الْخلاف فيهمَا فِيمَا تقدم من هَذَا الْكتاب وَذكرنَا أقوال النَّاس وأدلتهم وَالتَّحْقِيق فِي ذَلِك ، فَأَي الصفتين كَانَت أكمل فالضرر بعدمها أقوى.

وَالَّذِي يَلِيق بِهَذَا الْموضع أن يُقَال عادم الْبَصَر أشدهما ضَرَراً وأسلمهما ديناً وأحمدهما عَاقِبَة ، وعادم السّمع أقلهما ضَرَرا فِي دُنْيَاهُ وأجهلهما بِدِينِهِ وَأَسْوَأ عَاقِبَة ؛ فَإِنَّهُ إِذا عدم السّمع عدم المواعظ والنصائح ، وانسدت عَلَيْهِ أَبْوَاب الْعُلُوم النافعة ، وانفتحت لَهُ طرق الشَّهَوَات الَّتِي يُدْرِكهَا الْبَصَر وَلَا يَنَالهُ من الْعلم مَا يكفه عَنْهَا ، فضرره فِي دينه أكثر ، وضرر الأعمى فِي دُنْيَاهُ أكثر ؛ وَلِهَذَا لم يكن فِي الصَّحَابَة أطرش وَكَانَ فيهم جمَاعَة أضراء ، وَقل أن يبتلى الله أولياءه بالطرش ، ويبتلي كثيرا مِنْهُم بالعمى ، فَهَذَا فصل الْخطاب فِي هَذِه المسألة ، فمضرة الطرش فِي الدّين ، ومضرة الْعَمى فِي الدُّنْيَا ، والمعافى من عافاه الله مِنْهُمَا ومتعه بسمعه وبصره وجعلهما الْوَارِثين مِنْه."

فالخُلاصة أن السمع منفذ العِلم ، والبصر منفذ الشهوات ، فمن أُغِلق عليه باب الشهوات وفُتِح عليه باب العِلم فقد أُوتي خيراً كثيرا.

وأما من فقد نِعمة البيان نِعمة النُطقِ باللسان فإن خطبه شديد ، يقول ابن القيم رحمه الله :" وَمن عدم خَاصَّة الإنسان - وَهِي النُّطْق - اشتدت المؤنة بِهِ وَعَلِيهِ ، وعظمت حسرته ، وَطَالَ تأسفه على رد الْجَواب وَرجع الْخطاب ، فَهُوَ كالمقعد الَّذِي يرى مَا هُوَ مُحْتَاج إليه وَلَا تمتد إليه يَده وَلَا رجله.

فكم لله على عَبده من نعْمَة سابغة فِي هذه الأعضاء والجوارح والقوى وَالْمَنَافِع الَّتِي فِيهِ ، فَهُوَ لَا يلْتَفت إليها وَلَا يشْكر الله عَلَيْهَا ، وَلَو فقد شَيْئا مِنْهَا لتمنى أنه لَهُ بالدنيا وَمَا عَلَيْهَا ، فَهُوَ يتقلب فِي نعم الله بسلامة أعضائه وجوارحه وَقواهُ وَهُوَ عَار من شكرها ، ولو عرضت عَلَيْهِ الدُّنْيَا مَا فِيهَا بِزَوَال وَاحِدَة مِنْهَا لأبى الْمُعَاوضَة وَعلم انها مُعَاوضَة غبن " إن الإنسان لظلوم كفور. " "

10) أعداد الأعضاء

يقول ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل حكمته فِي الأعضاء الَّتِي خلقت فِيك آحادا ومثنى وَثَلَاث وَربَاع وَمَا فِي ذَلِك من الحكم الْبَالِغَة ؛ فالرأس وَاللِّسَان والأنف وَالذكر خلق كل مِنْهُمَا وَاحِدًا فَقَط ؛ إذ لا مصلحَة فِي كَونه أكثر من ذَلِك ، ألا ترى أنه لَو أضيف إلى الرأس رأس آخر لأثقلا بدنه من غير حَاجَة إليه ، لِأَن جَمِيع الْحَواس الَّتِي يحْتَاج إليها مجتمعة فِي رَأس وَاحِد ، ثمَّ إن الإنسان كَانَ يَنْقَسِم برأسه قسمَيْنِ ، فَإِن تكلم من أحدهما وَسمع بِهِ وأبصر وشم وذاق بَقِي الآخر معطلاً لَا أرب فِيهِ ، وَإِن تكلم وأبصر وَسمع بهما مَعًا كَلَاماً وَاحِدًا وسمعا وَاحِدًا وبصراً وَاحِدًا كَانَ الآخر فَضلة لَا فَائِدَة فِيهِ ، وَإِن اخْتلف إدراكهما اخْتلفت عَلَيْهِ أحواله وإدراكاته.

وَكَذَلِكَ لَو كَانَ لَهُ لسانان فِي فَم وَاحِد ، فَإِن تكلم بهما كَلَاما وَاحِدًا كَانَ أحدهما ضائعاً ، وإن تكلم بأحدهما دون الآخر فَكَذَلِك ، وإن تكلم بهما مَعًا كلامين مُخْتَلفين خلط على السَّامع وَلم يدر بأي الْكَلَامَيْنِ يَأْخُذ.

وَكَذَلِكَ لَو كَانَ لَهُ هنوان وفمان لَكَانَ - مَعَ قبح الْخلقَة - أحدهما فضلَة لَا مَنْفَعَة فِيهِ ، وَهَذَا بِخِلَاف الأعضاء الَّتِي خلقت مثنى كالعينين والأذنين والشفتين وَالْيَدَيْنِ وَالرّجلَيْنِ والساقين والفخذين والوركين والثديين ، فَإِن الْحِكْمَة فِيهَا ظَاهِرَة ، والمصلحة بَينة ، وَالْجمال والزينة عَلَيْهَا بادية ؛ فَلَو كَانَ الإنسان بِعَين وَاحِدَة لَكَانَ مُشَوه الْخلقَة ناقصها ، وَكَذَلِكَ الحاجبان.

وَأما اليدان وَالرجلَانِ والساقان والفخذان فتعددهما ضَرُورِيّ للإنسان ، لَا تتمّ مصْلحَته الا بذلك ؛ ألا ترى من قطعت إحدى يَدَيْهِ أوْ رجلَيْهِ كَيفَ تبقى حَاله وعجزه ، فَلَو أن النجار والخياط والحداد والخباز وَالْبناء وأصحاب الصَّنَائِع الَّتِي لَا تتأتى إلا باليدين شلت يَد أحدهما لتعطلت عَلَيْهِ صَنعته ، فاقتضت الْحِكْمَة أن اعطى من هَذَا الضَّرْب من الْجَوَارِح والأعضاء اثْنَيْنِ اثْنَين ، وَكَذَلِكَ أعطى شفتين ؛ لأنه لَا تكمل مصْلحَته إِلَّا بهما ، وَفِيهِمَا ضروب عديدة من الْمَنَافِع وَمن الْكَلَام والذوق وغطاء الْفَم وَالْجمال والزينة والقبلة وَغير ذَلِك.

وَأما الأعضاء الثَّلَاثِيَة فَهِيَ جَوَانِب أنفه وحيطانه ، وَقد ذكرنَا حِكْمَة ذَلِك فِيمَا تقدم.

وأما الأعضاء الرّبَاعِيّة فالكعاب الأربعة الَّتِي هِيَ مجمع الْقَدَمَيْنِ والممسكة لَهما ، وَبِهِمَا قُوَّة الْقَدَمَيْنِ وحركتهما ، وَفِيهِمَا مَنَافِع السَّاقَيْن . وَكَذَلِكَ أجفان الْعَينَيْنِ فِيهَا من الحكم وَالْمَنَافِع أنها غطاء للعينين ووقاية لَهما وجمال وزينة وَغير ذَلِك من الحكم ، فاقتضت الْحِكْمَة الْبَالِغَة أن جعلت الأعضاء على مَا هِيَ عَلَيْهِ من الْعدَد والشكل والهيئة ، فَلَو زَادَت أوْ نقصت لَكَانَ نقصا فِي الْخلقَة.

وَلِهَذَا يُوجد فِي النَّوْع الإنساني مِن زَائِد فِي الْخلقَة وناقص مِنْهَا مَا يدل على حِكْمَة الرب تَعَالَى ، وَأَنه لَو شَاءَ لجعل خلقه كلهم هَكَذَا ، وليعلم الْكَامِل الْخلقَة تَمام النِّعْمَة عَلَيْهِ ، وأنه خلق خلقاً سوياً معتدلاً لم يزدْ فِي خلقه مَا لا يحْتَاج إليه ، وَلم ينقص مِنْهُ مَا يحْتَاج إليه كَمَا يرَاهُ فِي غَيره ، فَهُوَ أجدر أن يزْدَاد شكراً وحمداً لرَبه ، وَيعلم أن ذَلِك لَيْسَ من صنع الطبيعة ، وَإِنَّمَا ذَلِك صنع الله الَّذِي أتقن كل شَيْء خلقه ، وأنه يخلق مَا يَشَاء ."

وبالرغم من أن الناس كلهم عندهم هذه الأعضاء ، فكل الناس له عينين وأنف وهكذا بقية الأعضاء ، إلا أنك تجد بعد كل هذا أن لكل إنسانٍ صورة مُختلفة ، يقول ابن القيم رحمه الله :" من أَيْنَ للطبيعة هَذَا الِاخْتِلَاف وَالْفرق الْحَاصِل فِي النَّوْع الإنساني بَين صورهم ؟ ، فَقل أن يرى اثْنَان متشابهان من كل وَجه ، وَذَلِكَ من أندر مَا فِي الْعَالم ، بِخِلَاف أصناف الْحَيَوَان كالنعم والوحوش وَالطير وَسَائِر الدَّوَابّ ، فَإنَّك ترى السرب من الظباء والثلة من الْغنم والذود من الإبل والصوار من الْبَقر تتشابه حَتَّى لَا يفرق بَين وَاحِد مِنْهُمَا وَبَين الآخر إِلَّا بعد طول تَأمل أوْ بعلامة ظَاهِرَة . وَالنَّاس مُخْتَلفَة صورهم وخلقتهم ، فَلَا يكَاد اثْنَان مِنْهُم يَجْتَمِعَانِ فِي صفة وَاحِدَة وخلقة وَاحِدَة ، بل وَلَا صَوت وَاحِد وحنجرة وَاحِدَة .

وَالْحكمَة الْبَالِغَة فِي ذَلِك أن النَّاس يَحْتَاجُونَ إلى أن يتعارفوا - بأعينهم وحلاهم - لما يجري بَينهم من الْمُعَامَلَات ؛ فلولا الْفرق وَالِاخْتِلَاف فِي الصُّور لفسدت أحوالهم ، وتشتت نظامهم ، وَلم يعرف الشَّاهِد من الْمَشْهُود عَلَيْهِ ، وَلَا الْمَدِين من رب الدّين ، وَلَا البَائِع من المُشْتَرِي ، وَلَا كَانَ الرجل يعرف عرسه[1] من غَيرهَا للاختلاط ، وَلَا هِيَ تعرف بَعْلهَا من غَيره ، وَفِي ذَلِك أعظم الْفساد والخلل.

فَمن الَّذِي ميز بَين حلاهم وصورهم وأصواتهم وَفرق بَينهَا بفروق لَا تنالها الْعبارَة وَلَا يُدْرِكهَا الْوَصْف ؟! ، فسل الْمُعَطل :" أهذا فعل الطبيعة ؟ ، وَهل فِي الطبيعة اقْتِضَاء هَذَا الِاخْتِلَاف والافتراق فِي النَّوْع ؟ "، وَأَيْنَ قَول الطبائعيين :" أن فعلهَا متشابه لأنها وَاحِدَة فِي نَفسهَا لَا تفعل بِإِرَادَة وَلَا مَشِيئَة فَلَا يُمكن اخْتِلَاف أفعالها " ؟ ، فَكيف يجمع الْمُعَطل بَين هَذَا وَهَذَا ؟ ، " فَإِنَّهَا لَا تعمى الأبصار وَلَكِن تعمى الْقُلُوب الَّتِي فِي الصُّدُور " .

وَرُبمَا وَقع فِي النَّوْع الإنساني تشابه بَين اثْنَيْنِ لَا يكَاد يُمَيّز بَينهمَا ، فتعظم عَلَيْهِم الْمُؤْنَة فِي معاملتهما ، وتشتد الْحَاجة إلى تَمْيِيز الْمُسْتَحق مِنْهُمَا والمؤاخذ بِذَنبِهِ وَمن عَلَيْهِ الْحق ، وَإِذا كَانَ هَذَا يعرض فِي التشابه فِي الأسماء كثيراً ويلقى الشَّاهِد وَالْحَاكِم من ذَلِك مَا يلقى ، فَمَا الظَّن لَو وضع التشابه فِي الْخلقَة وَالصُّورَة ؟. !

وَلما كَانَ الْحَيَوَان البهيم وَالطير والوحوش لَا يَضرهَا هَذَا التشابه شَيْئا لم تدعُ الْحِكْمَة إلى الْفرق بَين كل زَوْجَيْنِ مِنْهَا ، فَتَبَارَكَ الله أحسن الْخَالِقِينَ ، الَّذِي وسعت حكمته كل شَيْء. "

---

(1) عرسه: أي زوجته

(11أنواع سوائل الجسم

تأمل أنواع السوائل في جسمك ، واختلاف خصائصها ، فانظر كم من نوعٍ سائلٍ مختلف فيك ، ففيك الشمع في الأذن ، والدمع في العين ، والمخاط في الأنف ، واللعاب في الفم ، والدمُ في أنحاء الجسم ، والمني للتكاثر ، والبول لاستخراج السموم والفضلات ، وغير ذلك من السوائل.

فالشمعُ في الأذن له قوامٌ مُختلف ولونٌ خاص وطعمٌ مميز ووظيفة معينة ، ودموع العين كذلك ، فالشمع ثقيل ، أصفرُ اللون مُر الطعم ، ومن وظيفته صدُّ الحشرات والأوساخ عن هذا المنفذ .

وأما دموعُ العين فلطيفةٌ ، سائلةٌ شفافة ؛ حتى يُرى من خلالها بسهولة ، ومالحة ؛ حتى تحفظ العينين ، ومن عجائب الدموع أنها لا تجمُدُ أبداً حتى في أبرد الأماكن ، فمن الذي خصها بهذه الخواص؟.

وأما المُخاط فلزجٌ ، يُمسِكُ الغبار والأتربة ، ذو لونٍ يميلُ للخُضرة .

وأما اللُعاب فأبيض ، وأما قوامه فإنه مناسبٌ للكلام والطعام.

وأما المني فأبيضٌ ثقيلٌ لزج ، وأما البول فخفيفٌ أصفر ، وفي ذلك إعانة على التفريق بينهما لاختلاف أحكامهما ، فلو لم يكون بينهما فرقٌ واضح لشقّ ذلك على الناس بسبب اختلاف أحكامهما ، فلما اختلفت أحكامهما كان لابد من بيان الفرق بينهما ، والله حكيم عليم ، وهو على كل شيء قدير.

يقول ابن القيم رحمه الله :" وَمن جعل مَاء الْعَينَيْنِ ملحاً ؛ يحفظها من الذوبان ، وَمَاء الأذن مراً ؛ يحفظها من الذُّبَاب والهواء والبعوض ، وَمَاء الْفَم عذبا ، يدْرك بِهِ طعوم الأشياء فَلَا يخالطها طعم غَيرهَا ."

فمن الذي نوّع هذه السوائل وأعطى كل واحدةٍ منها وظيفةً خاصةً بها غير الله سبحانه وتعالى ؟! ، فما أعجب حال من يكابِرُ في هذا ، حُجِب عقله عن هذه الآيات ، وخُتِم على قلبه ، وعلى بصره غِشاوة ، فهذا قد حكم على نفسه بالهلاك .

12) عجائب الشَعر

وتأمل كيف جعل الله عز وجل لهذا الشعر حدوداً يَقِفُ عندها ، فتأمل شعر الرأس مثلاً ، فإنه لو كان يسرح ولا يتوقف لامتلأ الوجه شعراً ، ولَقبُح ذلك ، ولا يحدث ذلك إلا في حالةٍ نادرة كالمتلازمة التي تُسمى بمتلازمة الرجلِ الذئب ، وفيه ينتشر الشعر في كافة البدن.

وتأمل كيف أن هذا الشعر كالأظافر لا إحساس فيه ، إذ لو كان فيه إحساس لشقّ ذلك على الإنسان جداً ، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :" وَمن سلب الإحساس الحيواني الشُّعُور والأظفار الَّتِي فِي الآدمي ؛ لأنها قد تطول وتمتد ، وَتَدْعُو الْحَاجة الى أخذها وتخفيفها ، فَلَو أعطاها الْحس لآلمته وشق عَلَيْهِ أخذ مَا شَاءَ مِنْهَا ، وَلَو كَانَت تحس لوقع الإنسان مِنْهَا فِي إِحْدَى البليتين : إما تَركهَا حَتَّى تطول وتفحش وتثقل عَلَيْهِ ، وَإما مقاساة الألم والوجع عِنْد أخذها. "

وتأمل كيف أن هذا الشعر ينمو على ظاهر اليد ، ولا ينمو ببطنِ الكف ، يقول ابن القيم رحمه الله :" وَمن جعل بَاطِن الْكَفّ غير قَابل لا نبات الشّعْر ؛ لأنه لَو أشعر لتعذر على الإنسان صِحَة اللَّمْس ، ولشق عَلَيْهِ كثير من الأعمال الَّتِي تباشر بالكف.

ولهذه الْحِكْمَة لم يكن هن الرجل قَابلا لإنباته ؛ لأنه يمنعهُ من الْجِمَاع ، وَلما كَانَت الْمَادَّة تَقْتَضِي إنباته هُنَاكَ نبت حول هن الرجل وَالْمَرْأَة.

ولهذه الْحِكْمَة سلب عَن الشفتين وَكَذَا بَاطِن الْفَم وَكَذَا أيضا الْقدَم أخمصها وظاهرها ؛ لأنها تلاقي التُّرَاب والوسخ والطين والشوك ، فَلَو كَانَ هُنَاكَ شعر لأَذى الإنسان جداً ، وَحمل من الأرض كل وَقت مَا يثقل الإنسان ، وَلَيْسَ هَذَا للإنسان وَحده ، بل ترى الْبَهَائِم قد جللها الشّعْر كلهَا ، وأخليت هَذِه الْمَوَاضِع مِنْهُ لهَذِهِ الْحِكْمَة ، أفلا ترى الصَّنْعَة الإلهية كَيفَ سلبت وُجُوه الْخَطَأ والمضرة ، وَجَاءَت بِكُل صَوَاب وكل مَنْفَعَة وكل مصلحَة.

وَلما اجْتهد الطاعنون فِي الْحِكْمَة العائبون للخلقة فِيمَا يطعنون بِهِ عابوا الشُّعُور تَحت الآباط وَشعر الْعَانَة وَشعر بَاطِن الأنف وَشعر الرُّكْبَتَيْنِ ، وَقَالُوا :" أَي حِكْمَة فِيهَا ؟ وأي فَائِدَة ؟ " ، وَهَذَا من فرط جهلهم وسخافة عُقُولهمْ ؛ فَإِن الْحِكْمَة لَا يجب أن تكون بأسرها مَعْلُومَة للبشر ، وَلَا أَكْثَرهَا ، بل لَا نِسْبَة لما علموه إلى مَا جهلوه فِيهَا.

لَو قيست عُلُوم الْخَلَائق كلهم بِوُجُوه حِكْمَة الله تَعَالَى فِي خلقه وَأمره إلى مَا خَفِي عَنْهُم مِنْهَا كَانَت كنقرة عُصْفُور فِي الْبَحْر .

وَحسب الفطن اللبيب أن يسْتَدلّ بِمَا عرف مِنْهَا على مَا لم يعرف ، وَيعلم الْحِكْمَة فِيمَا جَهله مِنْهَا مثلهَا فِيمَا علمه ، بل أعظم وأدق .

وَمَا مثل هَؤُلَاءِ الحمقى النوكى[1] إلا كَمثل رجل لا علم لَهُ بدقائق الصَّنَائِع والعلوم من الْبناء والهندسة والطب ، بل ولا حياكة والخياطة والنجارة إِذا رام الِاعْتِرَاض بعقله الْفَاسِد على أربابها فِي شَيْء من آلاتهم وصنائعهم وترتيب صناعتهم فخفيت عَلَيْهِ ، فَجعل كل مَا خَفِي عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْء قَالَ : " هَذَا لَا فَائِدَة فِيهِ ، وَأي حِكْمَة تَقْتَضِيه ؟ " ، هَذَا مَعَ أن أرباب الصَّنَائِع بشر مثله يُمكنهُ أن يشاركهم فِي صنائعهم ويفوقهم فِيهَا ، فَمَا الظَّن بِمن بهرت حكمته الْعُقُول ، الَّذِي لَا يُشَارِكهُ مشارك فِي حكمته كَمَا لا يشاركه فِي خلقه ، فَلَا شريك لَهُ بِوَجْه ، فَمن ظن أن يكتال حكمته بِمِكْيَال عقله ، أَوْ يَجْعَل عقله عياراً عَلَيْهَا ، فَمَا أدركه أقربه ، وَمَا لم يُدْرِكهُ نَفَاهُ ، فَهُوَ من أجهل الْجَاهِلين ، وَللَّه فِي كل مَا خَفِي على النَّاس وَجه الْحِكْمَة فِيهِ حكم عديدة لا تدفع وَلَا تنكر " .

(1) جمع أنوك وهو الجاهل

(13الأصوات

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :" ثمَّ تَأمل هَذَا الصَّوْت الْخَارِج من الْحلق وتهيئة آلاته ، وَالْكَلَام وانتظامه ، والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها ، تَجِد الْحِكْمَة الباهرة فِي هَوَاء ساذج يخرج من الْجوف فيسلك فِي أنبوبة الحنجرة حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى الْحلق وَاللِّسَان والشفتين والأسنان فَيحدث لَهُ هُنَاكَ مقاطع ونهايات وأجراس يسمع لَهُ عِنْد كل مقطع وَنِهَايَة جرس مُبين مُنْفَصِل عَن الآخر يحدث بِسَبَبِهِ الْحَرْف .

فَهُوَ صَوت وَاحِد ساذج يجري فِي قَصَبَة وَاحِدَة حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى مقاطع وحدود تسمع لَهُ مِنْهَا تِسْعَة وَعشْرين حرفاً يَدُور عَلَيْهَا الْكَلَام كُله : أمْرَهُ وَنَهْيه ، وَخَبره واستخباره ، ونظمه ونثره ، وخطبه ومواعظه وفضوله ، فَمِنْهُ المضحك وَمِنْه المبكي ، وَمِنْه المؤيس وَمِنْه المطمع ، وَمِنْه الْمخوف وَمِنْه المرجي ، والمسلى والمحزن ، والقابض للنَّفس والجوارح والمنشط لَهَا ، وَالَّذِي يسقم الصَّحِيح وَيُبرئ السقيم ، وَمِنْه مَا يزِيل النعم وَيحل النقم ، وَمِنْه مَا يستدفع بِهِ الْبلَاء ويستجلب بِهِ النعماء وتستمال بِهِ الْقُلُوب ويؤلف بِهِ بَين المتباغضين ويوالي بِهِ بَين المتعاديين ، وَمِنْه مَا هُوَ بضد ذَلِك ، وَمِنْه الْكَلِمَة الَّتِي لَا يلقى لَهَا صَاحبهَا بَالاً يهوي بهَا فِي النَّار أبعد مَا بَين الْمشرق وَالْمغْرب ، والكلمة الَّتِي لَا يلقي لَهَا بَالا صَاحبهَا يرْكض بهَا فِي أعلا عليين فِي جوَار رب الْعَالمين ، فسبحان من أنشأ ذَلِك كُله من هَوَاء ساذج يخرج من الصَّدْر لَا يدْرِي مَا يُرَاد بِهِ وَلَا أَيْن يَنْتَهِي ، وَلَا أَيْن مستقره.

هَذَا إِلَى مَا فِي ذَلِك من اخْتِلَاف الألسنة واللغات الَّتِي لَا يحصيها إلا الله ، فيجتمع الْجمع من النَّاس من بِلَاد شَتَّى ، فيتكلم كل مِنْهُم بلغته ، فَتسمع لُغَات مُخْتَلفَة ، كلَاماً منتظماً مؤلفاً وَلَا يدْرِي كل مِنْهُم مَا يَقُول الآخر ، وَاللِّسَان الَّذِي هُوَ جارحة وَاحِد ! ، فِي الشكل والمنظر ، وَكَذَلِكَ الْحلق والأضراس والشفتان ، وَالْكَلَام مُخْتَلف متفاوت أعظم تفَاوت !! .

فالاية فِي ذَلِك كالآيَة فِي الأرض الَّتِي تسقى بِمَاء وَاحِد وَتخرج مَعَ ذَلِك من أنواع النَّبَات والأزهار والحبوب وَالثِّمَار تِلْكَ الأنواع الْمُخْتَلفَة المتباينة ، وَلِهَذَا أخبر الله سُبْحَانَهُ فِي كِتَابه أن فِي كل مِنْهُمَا آيَات، فَقَالَ:"وَمن آيَاته خلق السَّمَوَات والأرض وَاخْتِلَاف ألسنتكم وألونكم إِن فِي ذَلِك لآيات للْعَالمين " وَقَالَ :" وَفِي الأَرْض قطع متجاورات وجنات من أعناب وَزرع ونخيل صنْوَان وَغير صنْوَان يسقى بِمَاء وَاحِد" ، الآيَة .

فَانْظُر الآن فِي الحنجرة كَيفَ هِيَ كالأنبوب لخُرُوج الصَّوْت ، وَاللِّسَان والشفتان والأسنان لصياغة الْحُرُوف والنغمات ، ألا ترى أن من سَقَطت أسنانه لم يقم الْحُرُوف الَّتِي تخرج مِنْهَا وَمن اللِّسَان ، وَمن سَقَطت شفته كَيفَ لم يقم الرَّاء وَاللَّام ، وَمن عرضت لَهُ آفَة فِي حلقه كَيفَ لم يتَمَكَّن من الْحُرُوف الحلقية .

وَقد شبه أصحاب التشريح مخرج الصَّوْت بالمزمار ، والرئة بالزق الَّذِي ينْفخ فِيهِ من تَحْتَهُ ليدْخل الرّيح فِيهِ ، والفضلات الَّتِي تقبض على الرئة ليخرج الصَّوْت من الحنجرة بالأكف الَّتِي تقبض على الزق حَتَّى يخرج الْهَوَاء فِي الْقصب ، والشفتين والأسنان الَّتِي تصوغ الصَّوْت حروفاً ونغماً بالأصابع الَّتِي تخْتَلف على المزمار فتصوغه ألحاناً ، والمقاطع الَّتِي يَنْتَهِي اليها الصَّوْت بالأبخاش الَّتِي فِي القصبة ، حَتَّى قيل أن المزمار إِنَّمَا اتخذ على مِثَال ذَلِك من الإنسان .

فَإِذا تعجبت من الصِّنَاعَة الَّتِي تعملها أكف النَّاس حَتَّى تخرج مِنْهَا تِلْكَ الأصوات ، فَمَا أحراك بطول التَّعَجُّب من الصِّنَاعَة الإلهية الَّتِي أخرجت تِلْكَ الْحُرُوف والأصوات من اللَّحْم وَالدَّم وَالْعُرُوق وَالْعِظَام ، وَيَا بعد مَا بَينهمَا ، وَلَكِن المألوف الْمُعْتَاد لَا يَقع عِنْد النُّفُوس موقع التَّعَجُّب ! ، فَإِذا رَأَتْ مَا لا نِسْبَة لَهُ إليه أصلا إلا أنه غَرِيب عِنْدهَا تَلَقَّتْهُ بالتعجب وتسبيح الرب تَعَالَى ، وَعِنْدهَا من آيَاته العجيبة الباهرة مَا هُوَ أعظم من ذَلِك مِمَّا لَا يُدْرِكهُ الْقيَاس .

ثمَّ تَأمل اخْتِلَاف هَذِه النغمات ، وتباين هَذِه الأصوات مَعَ تشابه الْحَنَاجِر والحلوق والألسنة والشفاه والأسنان ، فَمن الَّذِي ميز بَينهَا أتم تَمْيِيز مَعَ تشابه محالها سوى الخلاق الْعَلِيم ؟! " .

يقول رحمه الله :" وَفِي هَذِه الآلات مآرب أخرى وَمَنَافع سوى مَنْفَعَة الْكَلَام ، فَفِي الحنجرة مَسْلَك النسيم الْبَارِد الَّذِي يروح على الْفُؤَاد بِهَذَا النَّفس الدَّائِم المتتابع ، وَفِي اللِّسَان مَنْفَعَة الذَّوْق فتذاق بِهِ الطعوم وتدرك لذتها ويميز بهَا بَينهَا فَيعرف حَقِيقَة كل وَاحِد مِنْهَا ، وَفِيه مَعَ ذَلِك مَعُونَة على إساغة الطَّعَام وأن يلوكه ويقلبه حَتَّى يسهل مسلكه فِي الْحلق.

وَفِي الأسنان من الْمَنَافِع مَا هُوَ مَعْلُوم من تقطيع الطَّعَام كَمَا تقدم ، وفيهَا إِسْنَاد الشفتين وإمساكهما عَن الاسترخاء وتشويه الصُّورَة ، وَلِهَذَا ترى من سَقَطت أسنانه كَيفَ تسترخي شفتاه ، وَفِي الشفتين مَنَافِع عديدة يرشف بهَا الشَّرَاب حَتَّى يكون الدَّاخِل مِنْهُ إِلَى حلقه بِقدر فَلَا يشرق بِهِ الشَّارِب ، ثمَّ هما بَاب مغلق على الْفَم الَّذِي إليه يَنْتَهِي إليه مَا يخرج من الْجوف ، وَمِنْه يبتدي مَا يلج فيه ، فهما غطاء وطابق عَلَيْهِ ، يفتحهما البواب مَتى شَاءَ ، ويغلقهما إِذا شَاءَ ، وهما أيضاً جمال وزينة للْوَجْه ، وَفِيهِمَا مَنَافِع أخرى سوى ذَلِك ، وَانْظُر إِلَى من سَقَطت شفتاه مَا أشوه منظره.!

وَقد بَان أن كل وَاحِد من هَذِه الأعضاء يتَصَرَّف إِلَى وُجُوه شَتَّى من الْمَنَافِع والمآرب والمصالح كَمَا تتصرف الأداة الْوَاحِدَة فِي أعمال شَتَّى. "

(14الدماغ

ثم تأمل هذه الكتلة اللحمية التي تسمى بالدماغ، كيف لهذا اللحم أن يقوم بالعمليات المُعقَّدةِ من تفكير وحفظٍ وتذكُّرٍ وتمييزٍ وإدارةٍ لأعضاء الجسم والتنسيق بينها وغير ذلك ؟. !

يقول ابن القيم رحمه الله :" هَذَا وَلَو رَأَيْت الدِّمَاغ وكشف لَك عَن تركيبه وخلقه لرأيت الْعجب العجاب ، وَلكشف لَك عَن تركيب يحار فِيهِ الْعقل قد لف بحجب وأغشية بَعْضهَا فَوق بعض لتصونه عَن الأعراض وَتَحفظه عَن الِاضْطِرَاب .

ثمَّ اطبقت عَلَيْهِ الجمجمة بِمَنْزِلَة الخوذة وبيضة الْحَدِيد لتقيه حد الصدمة والسقطة والضربة الَّتِي تصل إليه فتتلقاها تِلْكَ الْبَيْضَة عَنهُ بِمَنْزِلَة الخوذة الَّتِي على رأس الْمُحَارب ، ثمَّ جللت تِلْكَ الجمجمة بِالْجلدِ الَّذِي هُوَ فَرْوَة الرأس يستر الْعظم من البروز للمؤذيات ، ثمَّ كُسِيت تِلْكَ الفروة حلَّة من الشّعْر الوافر وقاية لَهَا ، وستراً من الْحر وَالْبرد والأذى ، وجمالاً وزينة لَه. ،

فسل الْمُعَطل من الَّذِي حصن الدِّمَاغ هَذَا التحصين وَقدره هَذَا التَّقْدِير وَجعله خزانَة أودع فِيهَا من الْمَنَافِع والقوى والعجائب مَا أودعه ، ثمَّ احكم سد تِلْكَ الخزانة وحصنها أتم تحصين ، وصانها أعظم صِيَانة ، وَجعلهَا مَعْدن الْحَواس والإدراكات. "

(15البصمة)

"ليست المعجزة في الـ Androidأو الـ iPhoneالذي يفتح عن طريق بصمة يدك أو وجهك ، فهي مجرد أدوات قراءة تشاهد فحسب ، وإنما في تلك الدقة المتناهية في التصميم الإبداعي لأحسن الخالقين في تصوير تفاصيلك دون أن تشعر في ظلمات بطن أمك وأنت بحجم التمرة الصغيرة بلا ماكينات أو ضوضاء.

من أكبر المعجزات الإلهية في جسم الإنسان هي البصمة الوراثية ، DNA وبصمة اليد ما بين كل البشر الذين عاشوا على وجه الأرض لا يوجد شخص آخر يمتلك بصمتك ، أو حتى بصمه تشبهها !

لو افترضنا وجود رسام ومصمم محترف للغاية للقيام برسم 20 بصمة يد مختلفة فإنه لن يقدر من كثرة تعقيدها وبالرغم من هذا كله ستظل مختلفة.

أنت مميز ، ومميز جداً ، أودع الخلاق بداخلك شفرة وراثية معقدة - أكثر مما تستطيع أن تتخيل - تتجاوز كل ما يمكن أن يتصوره عقلك من أدق منظومات الأرقام التسلسلية لا يدانيها Serial Number أو قيد تقني ".[1]



---

(1) منقول من منشور على الفيسبوك
https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=pfbid0D8y15GR3bvS8Vp4YaXfseGfmJFW3nkiKLMfTByyXmqGxZJTVDNTgVXmMNXLAniyal&id=703171962&mibextid=Nif5oz

(16دواعي النفس والقوة المعطاة

يقول ابن القيم رحمه الله :" فَارْجِع الآن إلى نَفسك ، وفكر فِي هَذِه الأفعال الطبيعية الَّتِي جعلت فِي الإنسان وَمَا فِيهَا من الْحِكْمَة وَالْمَنْفَعَة ، وَمَا جعل لكل وَاحِد مِنْهَا فِي الطَّبْع الْمُجَرّد والداعي الَّذِي يَقْتَضِيهِ ويستحثه ، فالجوع يستحث الأكل ويطلبه لما فِيهِ من قوام الْبدن وحياته ومماته ، والكرى يقتضى النّوم ويستحثه لما فِيهِ من رَاحَة الْبدن والأعضاء وإجمام القوى وعودها إلى قوتها جَدِيدَة غير كالة ، والشبق يَقْتَضِي الْجِمَاع الَّذِي بِهِ دوَام النَّسْل وقضاء الوطر وَتَمام اللَّذَّة .

فتجد هَذِه الدَّوَاعِي تستحث الإنسان لهَذِهِ الأمور وتتقاضاها مِنْهُ بِغَيْر اخْتِيَاره ، وَذَلِكَ عين الْحِكْمَة ؛ فَإِنَّهُ لَو كَانَ الإنسان إِنَّمَا يَسْتَدْعِي هَذِه المستحثات إذا أراد لَأَوْشَكَ أن يشْتَغل عَنْهَا بما يعروه من الْعَوَارِض مُدَّة ، فينحل بدنه وَيهْلك ويترامى إلى الْفساد وَهُوَ لَا يشْعر ، كَمَا إِذا احْتَاجَ بدنه إلى شَيْء من الدَّوَاء وَالصَّلَاح فدافعه وَأعْرض عَنهُ حَتَّى إذا استحكم بِهِ الدَّاء أهلكه .

فاقتضت حِكْمَة اللَّطِيف الْخَبِير أن جعلت فِيهِ بواعث ومستحثات تؤزه أزا إلى مَا فِيهِ قوامه وبقاؤه ومصلحته ، وَتَرِدُ عَلَيْهِ بِغَيْر اخْتِيَاره وَلَا استدعائه ، فَجعل لكل وَاحِد من هَذِه الأفعال محرك من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه عَلَيْهِ .

ثمَّ انْظُر إلى مَا يُعْطِيهِ من القوى الْمُخْتَلفَة الَّتِي بهَا قوامه ، فَأعْطى الْقُوَّة الجاذبة الطالبة المستحثة الَّتِي تَقْتَضِي معلومها من الْغذَاء فتأخذه ويورده على الأعضاء بِحَسب قبُولهَا ، ثمَّ أعطى الْقُوَّة الممسكة الَّتِي تمسك الطَّعَام وتحبسه ريثما تنضجه الطبيعة وتحكم طبخه وتهيؤه لمصارفه وتبعثه لمستحقه ، ثمَّ أعطى الْقُوَّة الهاضمة الَّتِي تصرفه فِي الْبدن وتهضمه عَن الْمعدة ، ثمَّ أعطى الْقُوَّة الدافعة وَهِي الَّتِي تدفع ثقله وما لا مَنْفَعَة فِيهِ فتدفعه وتخرجه عَن الْبدن لِئَلَّا يُؤْذِيه وينهكه .

فَمن أعطاك هَذِه الْقُوَّة عِنْد شدَّة حَاجَتك إليها ؟ ، وَمن جعلهَا خَادِمًا لَك ؟ وَمن أعطاها أفعالها ؟ وَاسْتعْمل كل وَاحِد مِنْهَا على غير عمل الآخر ؟ ، وَمن ألف بَينهَا على تباينها حَتَّى اجْتمعت فِي شخص وَاحِد وَمحل وَاحِد وَلَو عادى بَينهَا كَانَ بَعْضهَا يذهب بَعْضًا ، فَمن كَانَ يحول بَينه وَبَين ذَلِك ؟ ، فلولا الْقُوَّة الجاذبة كَيفَ كنت متحركاً لطلب الْغذَاء الَّذِي بِهِ قوام الْبدن ؟ ، وَلَوْلَا الممسكة كَيفَ كَانَ الطَّعَام يذهب فِي الْجوف حَتَّى تهضمه الْمعدة ؟ ، وَلَوْلَا الهاضمة كَيفَ كَانَ يطْبخ حَتَّى يخلص مِنْهُ الصفو إلى سَائِر أجزاء الْبدن وأعماقه ؟ ، وَلَوْلَا الدافعة كَيفَ كَانَ الثّقل المؤذي الْقَاتِل لَو انحبس يخرج أولاً فأولاً فيستريح الْبدن فيخف "

وهنا تنبيه ولفتة وبيانٌ للفرق بين نظرةِ المؤمن العارف وبين نظر الطبيب والملحد ، إذ يقول ابن القيم رحمه الله :" فرق بَين نظر الطَّبِيب والطبائعي فِي هَذِه الأمور فنظرهما فيها مقصور على النّظر فِي حفظ الصِّحَّة وَدفع السقم ، فَهُوَ ينظر فيها من هَذِه الْجِهَة فَقَط ، وَبَين نظر الْمُؤمن الْعَارِف فِيهَا فَهُوَ

ينظر فِيهَا من جِهَة دلالتها على خَالِقهَا وباريها وَمَاله فِيهَا من الحكم الْبَالِغَة وَالنعَم السابغة والالاء الَّتِي دَعَا الْعباد الى شكرها وَذكرهَا ".

إنعام الله على الإنسان بالعلوم

"عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ "
]سورة العلق[

"وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا
وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) "
]سورة النحل[

يقول ابن القيم رحمه الله :" وَكَذَلِكَ أعطاهم من الْعُلُوم الْمُتَعَلّقَة بصلاح معاشهم ودنياهم بِقدر حاجاتهم كعلم الطِّبّ والحساب ، وَعلم الزِّرَاعَة وَالْغِرَاس ، وضروب الصَّنَائِع ، واستنباط الْمِيَاه ، وَعقد الأبنية ، وصنعة السفن ، واستخراج الْمَعَادِن وتهيئتها لما يُرَاد مِنْهَا ، وتركيب الأدوية ، وصنعة الأطعمة ، وَمَعْرِفَة ضروب الْحِيَل فِي صيد الْوَحْش وَالطير ودواب المَاء ، وَالتَّصَرُّف فِي وُجُوه التِّجَارَات ، وَمَعْرِفَة وُجُوه المكاسب ، وَغير ذَلِك مِمَّا فِيهِ قيام مَعَايشهم.ه

ثمَّ مَنعهم سُبْحَانَهُ علم مَا سوى ذَلِك مِمَّا لَيْسَ فِي شَأْنهمْ وَلَا فِيهِ مصلحَة لَهُم وَلَا نشأتهم قَابِلَة لَهُ كعلم الْغَيْب ، وَعلم مَا كَانَ وكل مَا يكون ، وَالْعلم بِعَدَد الْقطر وأمواج الْبَحْر وذرات الرمال ومساقط الأوراق وَعدد الْكَوَاكِب ومقاديرها ، وَعلم مَا فَوق السَّمَوَات وَمَا تَحت الثرى وَمَا فِي لجج الْبحار وأقطار الْعَالم ، وَمَا يكنه النَّاس فِي صُدُورهمْ ، وَمَا تحمل كل أنثى وَمَا تغيض الارحام وَمَا تزداد ، إِلَى سَائِر مَا عزب عَنْهُم علمه .

فَمن تكلّف معرفَة ذَلِك فقد ظلم نَفسه ، وبخس من التَّوْفِيق حَظه ، وَلم يحصل إلا على الْجَهْل الْمركب والخيال الْفَاسِد فِي أَكثر امْرَهْ ، وَجَرت سنة الله وحكمته أن هَذَا الضَّرْب من النَّاس أجهلهم بِالْعلمِ النافع وَأَقلهمْ صَوَابا ، فترى عِنْد من لَا يرفعون بِهِ رَأْسا - من الحكم وَالْعلم الْحق النافع - مَا لا يخْطر ببالهم أصلا ، وَذَلِكَ من حِكْمَة الله فِي خلقه ، وهو العزيز الْحَكِيم ، وَلَا يعرف هَذَا إلا من اطلع على مَا عِنْد الْقَوْم من أنواع الخيال وضروب الْمحَال وفنون الوساوس والهوى والهوس والخبط ، وهم " يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18) " ، فَالْحَمْد لله الَّذِي منَّ على الْمُؤمنِين " إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (164) . "

وَمن حكمته سُبْحَانَهُ مَا مَنعهم من الْعلم علم السَّاعَة وَمَعْرِفَة آجالهم ، وَفِي ذَلِك من الْحِكْمَة الْبَالِغَة مَا لا يحْتَاج إِلَى نظر ؛ فَلَو عرف الإنسان مِقْدَار عمره فَإِن كَانَ قصير الْعُمر لم يتهنأ بالعيش ، وَكَيف يتهنأ بِهِ وَهُوَ يترقب الْمَوْت فِي ذَلِك الْوَقْت ؟! ، فلولا طول الأمل لخربت الدُّنْيَا ، وأنما عمارتها بالآمال ، وَإِن كَانَ طَوِيل الْعُمر - وَقد تحقق ذَلِك - فَهُوَ واثق بِالْبَقَاءِ ، فَلَا يُبَالِي بالانهماك فِي الشَّهَوَات والمعاصي وأنواع الْفساد ، وَيَقُول :" إِذا قرب الْوَقْت أحدثت تَوْبَة " ، وَهَذَا مَذْهَب لَا يرتضيه الله - تَعَالَى عز وَجل - من عباده وَلَا يقبله مِنْهُم ، وَلَا تصلح عَلَيْهِ أحوال الْعَالم ، وَلَا يصلح الْعَالم إِلَّا على هَذَا الَّذِي اقتضته حكمته وَسبق فِي علمه ، فَلَو أن عبداً من عبيدك عمل على أن يسخطك أعواما ثمَّ يرضيك سَاعَة وَاحِدَة إِذا تَيَقّن

أنه صائر إليك لم تقبل مِنْهُ وَلم يفز لديك بِمَا يفوز بِهِ من همه رضاك ، وَكَذَا سنة الله عز وَجل أن العَبْد إِذا عاين الِانْتِقَال إِلى الله تَعَالَى لم يَنْفَعهُ تَوْبَة وَلَا إقلاع ، قَالَ تَعَالَى :" وَلَيْسَت التَّوْبَة للَّذين يعْملُونَ السَّيِّئَات حَتَّى إِذا حضر أحدهم الْمَوْت قَالَ إِنِّي تبت الْآن" ، وَقَوله :" فَلَمَّا رَأَوْا بأسنا قَالُوا آمنا بِاللَّه وَحده وكفرنا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكين ، فَلم يَك يَنْفَعهُمْ إِيمَانهم لما رَأَوْا باسنا سنة الله الَّتِي خلت فِي عباده " .

وَالله تَعَالَى إِنَّمَا يغْفر للْعَبد إِذا كَانَ وُقُوع الذَّنب مِنْهُ على وَجه غَلَبَة الشَّهْوَة وَقُوَّة الطبيعة فيواقع الذَّنب مَعَ كَرَاهَته لَهُ من غير إِصْرَار فِي نَفسه ، فَهَذَا ترجى لَهُ مغْفرَة الله وصفحه وعفوه ؛ لعلمه تَعَالَى بضعفه وَغَلَبَة شَهْوَته لَهُ ، وَأَنه يرى كل وَقت مَا لا صَبر لَهُ عَلَيْهِ ، فَهُوَ إِذا وَاقع الذَّنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لرَبه خَائِف مختلج فِي صَدره شَهْوَة النَّفس والذَّنب وَكَرَاهَة الْإِيمَان لَهُ ، فَهُوَ يُجيب دَاعِي النَّفس تارة ، وداعي الإيمان تارات .

فأما من بنى أمْرَهْ على أن لَا يقف عَن ذَنْب ، وَلَا يقدِّم خوفًا ، وَلَا يدع لله شَهْوَة وَهُوَ فَرح مسرور يضْحك ظهراً لبطن إِذْ ظفر بالذنب فَهَذَا الَّذِي يخَاف عَلَيْهِ أن يُحَال بَينه وَبَين التَّوْبَة وَلَا يوفق لَهَا " .

قال ابن القيم :" فَلَو لم يكن فِي عباده من يخطئ ويذنب ليتوب عَلَيْهِ وَيغْفر لَهُ وَيَعْفُو عَنهُ لم يظْهر أثر أسمائه الغفور وَالْعَفو والحليم والتواب وَمَا جرى مجْراهَا ، وَظُهُور أثر هَذِه الأسماء ومتعلقاتها فِي الخليقة كظهور آثَار سَائِر الأسماء الْحسنى ومتعلقاتها ، فَكَمَا أن اسْمه الْخَالِق يَقْتَضِي مخلوقاً ، والبارئ يَقْتَضِي مبروءً ، والمصور يقتضي مصوراً وَلَا بُد ، فأسماؤه الْغفار التواب تَقْتَضِي مغفورا لَهُ ومَا يغفره لَه."

تكريم بني آدم

"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70) "
]سورة الإسراء[

يقول ابن القيم رحمه الله :" فسبحان من ألبس خلع الْكَرَامَة كلهَا لبني آدم من الْعقل وَالْعلم ، وَالْبَيَان والنطق ، والشكل وَالصُّورَة الْحَسَنَة والهيئة الشَّرِيفَة وَالْقد المعتدل ، واكتساب الْعُلُوم بالاستدلال والفكر ، واقتناص الأخلاق الشَّرِيفَة الفاضلة مِن الْبِر وَالطَّاعَة والانقياد ، فكم بَين حَاله وَهُوَ نُطْفَة فِي دَاخل الرَّحِم مستودع هُنَاك ، وَبَين حَاله وَالْمَلَك يدْخل عَلَيْهِ فِي جنَّات عدن ، " فَتَبَارَكَ الله أحسن الْخَالِقِينَ ".

فالدنيا قَرْيَة ، وَالْمُؤمن رئيسها ، وَالْكل مَشْغُول بِهِ ، ساع فِي مَصَالِحه ، وَالْكل قد أقيم فِي خدمته وحوائجه ، فالملائكة الَّذين هم حَملَة عرش الرَّحْمَن - وَمن حوله - يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ ، وَالْمَلَائِكَة الموكلون بِهِ يَحْفَظُونَهُ ، والموكلون بالقطر والنبات يسعون فِي رزقه ويعملون فِيهِ ، والأفلاك سخرت منقادة دَائِرَة بِمَا فِيهِ مَصَالِحه ، وَالشَّمْس وَالْقَمَر والنجوم مسخرات جاريات بِحِسَاب أزمنته وأوقاته وَإِصْلَاح رواتب أقواته ، والعالم الجوي مسخر لَهُ برياحه وهوائه وسحابه وطيره وَمَا أودع فِيهِ ، والعالم السفلي كُله مسخر لَهُ مَخْلُوق لمصالحه أرضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه وكل مَا فِيهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :" اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، " (13)وَقَالَ تَعَالَى :" اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ (اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)33(" .

فالسائر فِي معرفَة آلَاء الله - وَتَأمل حكمته وبديع صِفَاته - أطول باعاً وَأَمْلَأُ صواعاً من اللصيق بمكانه ، الْمُقِيم فِي بلد عَادَته وطبعه ، رَاضِياً بعيش بني جنسه ، لَا يرضى لنَفسِهِ إِلَّا ان يكون وَاحِدًا مِنْهُم ، يَقُول :" لي أسوة بهم ، وَهل أنا إلا من ربيعَة أَوْ مُضر " ، وَلَيْسَت نفائس البضائع إلا لمن امتطى غارب الاغتراب وطوَّف فِي الآفاق حَتَّى رضي من الْغَنِيمَة بالإياب ، فاستلان مَا استوعره البطالون ، وَأنس بِمَا استوحش مِنْهُ الجاهلون."

الفصل الثالث: التعرف على الله وأسمائه وصفاته

معرفة الله ، وبيان أنها حلٌ جذري لأي إشكالٍ عقدي

" لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12) "
[سورة الطلاق]

"هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ
يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24" (
[سورة الحشر]

قال الشافعي رحمه الله " جَمِيعُ مَا تَقُولُهُ الْأُمَّةُ شَرْحٌ لِلسُّنَّةِ
وَجَمِيعُ السُّنَّةِ شَرْحٌ لِلْقُرْآنِ
وَجَمِيعُ الْقُرْآنِ شَرْحُ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا "
[البرهان في علوم القرآن - للزركشي]

قال مالك بن دينار :" خَرَجَ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَذوقُوا أَطْيَبَ شَيْءٍ فِيْهَا " ، فقيل له :" ما هو ؟ "
قال :" معرفةُ الله "
[سير أعلام النبلاء]

" فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبَّه لا محالةَ "
[مدراج السالكين]

" من كبرت همته لم يرض بطلب شيءٍ سوى الله سبحانه وتعالى "
[المحجة في سير الدلجة - ابن رجب الحنبلي]

" ومن عرف الله لم يبق له رغبةٌ في سواه "
[مدارج السالكين]

قال ابن القيم :" فَمن عرف الله عرف مَا سواهُ ، وَمن جهل ربه فَهُوَ لما سواهُ أجهل"
[مفتاح دار السعادة]

قال ابن القيم :" فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصلٌ لسائر العلوم
فمن أحصى أسماءَه - كما ينبغي للمخلوق - أحصى جميعَ العلوم
إذ إحصاءُ أسمائه أصلٌ لإحصاء كلِّ معلوم؛ لأنَّ المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطةٌ بها "
[فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحُسنى]

معرفة أسماء الله تعالى هي مفاتيح لكل أبواب الدين
ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته هي الحلول الجذرية لجميع الإشكالات العقدية

لو أحببت إنساناً أو اهتممت به فإنك تسعى وتُهرول وتبذل غاية الجُهدِ في معرفة هذا المحبوب والتعرف عليه ، ومعرفةِ صفاته وما يحبه ، فكيف بالله ؟. !

فإذا ما عَرِف العبدُ أن له رباً وخالقاً فعليه أن يسعى ويقضي الأوقات في معرفة خالقه وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وعليه أن يسعى ليعرف ما يُحب وما يكره ، وأن يتقرب إليه لينال لرضاه ، إذ رضا الله هو الغاية العُليا ، وهو الغايةُ الأسمى ، وأعظم البشر ليس هو من اخترع اختراعاً دنيوياً أو صار طبيباً ، بل أعظم البشر من رضي الله عنه ، " وفي ذلك فليتنافس المتنافسون " ، ومعرفة الله سبحانه وتعالى مطلوبة لذاتها ، والدنيا وما فيها ليست مطلوبة لذاتها ، بل مطلوبة لغيرها ، فهي وسيلة لا غاية.
والمفترض أن الإنسان - بطبيعته - يكون محركاً لمعرفة الله تعالى ، وأن يشتاق إلى معرفة ربه وخالقه سبحانه ، يقول ابن تيمية :" وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر " أي معرفة الله. ويقول رحمه الله :" من كان في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم أو نهمة للعبادة يكون البحث في هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكبر مقاصده وأعظم مطالبه ".

والله عز وجل رحيم حكيم ، دلّنا على وجوده بوجودنا ، وعلى علمه بجهلنا ، وعلى قدرته بعجزنا ، وعلى قوته بضعفنا ، وعلى حكمته بطيشنا ، وعلى كماله بنقصنا ، وعلى حياته بموتنا ، وعلى أنه خالقنا بخلقه لنا ، يقول ابن القيم رحمه الله في مدراج السالكين :" فمن عرف الله وعرف نفسه لم يَرَ نفسه إلّا بعين النُّقصان."

ومعرفة الله عزّ وجل أجلُّ العلوم وأعظمها ، بل غايةُ العلوم ومنتهاها ، وخير الكلام كلام الله ، وأعظم المواضع في كتاب الله هي تلك التي تحدثت عن الله ، فأعظم آية هي آية الكرسي ، وهي لا تتحدث عن الجنة ولا عن النار ، لكنها تتحدث عن الله ، وتلك السورة التي تعدل ثلث القرآن - سورة الإخلاص - تتحدث عن صفة الله ، فنحاول في هذا الفصل أن نغوص في أسماء الله وصفاته ونعرف معانيها ، ونستشعر العظمة التي فيها ، ومعرفة أسماء الله وصفاته كفيلٌ بأن يغير كثيراً من مفاهيمك ويغير نظرتك للأمور ، بل وسيحل عندك كثيراً من الإشكالات ، كما أنه سيجعلك تشعر بالرضا ويدفعك لمحبة ربك سبحانه وتعالى.

وأفضل الناس بين الناس من عِرف الله عز وجل ، وليس العارف هو ذلك الذي يعرف الأسماء مُجرَّدة ، ولكن هو الذي انعكست تلك المعرفةُ على أقواله وأفعاله ، فهي معرفةٌ يُترجِمُها سلوكه ، فعرِف أن الله هو البصير فراقب أفعاله ، وعَلِم أن الله هو السميع فراقب أقواله ، وعَلِم أن الله هو العليم ، فآمن بكلِ أخباره ، وعَلِم بأن الله هو الحكيم فسلّم لكل أحكامه ورضي بكل أقداره ، وعَلِم أن الله هو الرقيب فراقب سائر حياته ، وهكذا ، يقول ابن القيم رحمه الله في المدارج :" فالعارف عندهم من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثمَّ صدق الله في معاملاته، ثمَّ أخلص له في قصوده ونيَّاته، ثمَّ انسلخ من أخلاقه الرديَّة وآفاته، ثمَّ تطهَّر مِن أوساخه وأدرانه ومخالفاته، ثمَّ صبر على أحكامه في نِعَمه وبليَّاته، ثمَّ دعا إليه على بصيرةٍ بدينه وآياته، ثمَّ جرَّد الدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله، ولم يَشُبها بآراء الرِّجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم، ولم يزن بها ما جاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته؛ فهذا الذي يستحقُّ اسم العارف على الحقيقة."

ويقول رحمه الله في زاد المعاد :" وأكثر الناس يظنون بالله غيرَ الحق ظنَّ السَّوءِ فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءَه وصفاتِه."

ومحبة العبد لله عز وجل تكون على قدرِ معرفته به ، يقول ابن القيم رحمه الله في طريق الهجرتين :" ومن عرف اللَّه اشتدَّ حياؤه منه وخوفه له وحبّه له، وكلَّما ازداد معرفةً ازداد حياءً وخوفًا وحبًّا " ، ويقول :" فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب ، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيماً وإجلالاً " ، ويقول :" وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ أَحَبَّهُ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ، وَخَافَهُ وَرَجَاهُ، وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَأَنَابَ إِلَيْهِ، وَلَهِجَ بِذِكْرِهِ، وَاشْتَاقَ إِلَى لِقَائِهِ، وَاسْتَحْيَا مِنْهُ، وَأَجَلَّهُ وَعَظَّمَهُ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ " ، فتعظيم الله فرع عن معرفته.

ويقول ابن تيمية رحمه الله:" وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها فآمن بها كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء؛ بل آمن بها إيماناً مجملاً ، أو عرف بعضها، وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته كان إيمانه به أكمل "، ومجرد محاولتك لحفظ أسماء الله هي عبادة عظيمة ، بل ربما بمجرد قراءتك لكتاب يشرح أسماء الله الحسنى تدخل الجنة.

والتفاوت بين العباد يكون بقدر معرفة الله تعالى ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم " أَمَا واللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وأَتْقَاكُمْ له " ، وفي رواية :" إنَّما أنا أعلمُكُم باللَّهِ و أخشاكم له " ، كيف لا يكون ذلك وهو الذي كلمه ربه.!

روى البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ : بِمَا أُمِرْتَ ؟ قَالَ : أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ ، قَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، فَرَجَعْتُ ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ ... فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ قَالَ : سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ ". قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله - في فتح الباري:" هذا من أقوى ما استُدل به على أن الله سبحانه وتعالى كلَّم نبيَّه محمَّداً صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بغير واسطة."

وقال ابن كثير – رحمه الله - :" (مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ) يعني : موسى ومحمَّداً صلى الله عليه وسلم ، وكذلك آدم . (وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل."

يقول النبي صلى الله عليه وسلم :" لله تسعة وتسعون اسماً مئة إلا واحد ، من أحصاها دخل الجنة " ، " لله تسعة وتسعون اسماً " ليس المقصود بهذا العدد الحصر ، فإن أسماء الله عز وجل أكثر من ذلك بدليل دعاء النبي صلى الله عليه وسلم :" أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك " الحديث ، فدلّ الحديث على

أن هناك أسماء استأثر بها الله عز وجل في علم الغيب عنده ، فيكون معنى قوله :" لله تسعةٌ وتسعون " هو بيانُ لفضلٍ مترتب على هذه الأسماء التسع وتسعين ، وليس هو نفي لما عداها ، وهو كأن تقول :" لي ألف دينار جعلتها للصدقة " فكلامك هذا لا ينفي أن يكون عندك غير هذه الألف دينار ، وإنما معناه أن لك ألف دينار للصدقة ، فكذلك هذا الحديث معناه أن هناك تسعاً وتسعين اسماً جزاءُ من أحصاها دخل الجنة.

والإحصاء كما بيّنه ابن القيم رحمه الله وغيره أنه على مراتب:

- المرتبة الأولى: معرفة الألفاظ وحفظها.
- المرتبة الثانية: معرفة معاني هذه الألفاظ ومدلولاتها.
- المرتبة الثالثة: دعاء الله بها.
- المرتبة الرابعة: العمل بمقتضاها والتخلق بما يليق بالعبد منها ، كأن تكون رحيماً بالخلق ، حليماً بهم .

يقول ابن تيمية رحمه الله في بيان أسماء الله الحسنى:" الأسماء الحسنى المعروفة هي التي يدعى الله بها، وهي التي جاءت في الكتاب والسنة ، وهي التي تقتضي المدح والثناء بنفسها. "

ومن حُسنِ أسماء الله سبحانه وتعالى أنها تُريك الأشياء على حقيقتها ، فمن عَلِم أن الله هو الحكيم علم أن شرعه مُحكم لا خطأ فيه ، ومن عَلِم أن الله هو العليم عَلِم أن جميع أخباره صدقٌ وأن جميع أوامره ونواهيه خيرٌ ونفع ، ومن علِم أن الله هو الغني عَلِم أن العباد فُقراء ، ومن عَلِم أن الله هو الحي الآخر الذي يبقى عَلِم أن ما سواه سيموتُ وسيفنى ، ومن علم أن الله هو الخالق علم أن ما سواه مخلوق ، ومن علم أن الله هو الرازق علم أن ما سواه مرزوق.

وتأمل معي الآيات التالية التي تدلك على عظمة الله وملكه وقدرته وعلمه وكماله سبحانه، يقول الله عز وجل :" تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) ".

فقوله تعالى :" تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) " فيها كمال القدرة ، وقوله تعالى :" الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) " فيها كمال المشيئة والإرادة ، وقوله :" لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) " فيها كمال الملك ، وقوله تعالى :" وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) " فيها كمال العلم ، فمن كانت تلك صفاته فحقه الحُب والطاعة ، وكيف لا يُحبُّ ولا يُطاع ؟ !

وتأمل كيف أن الأدعية والأذكار خلال يومنا هي ترسيخ لمعاني أسماء الله عز وجل وصفاته ، ففي الصلاة نقول :" سمع الله لمن حمده " تذكير بأن الله يسمع ، وأن الله يجيب من دعاه ، ونقول :" الله أكبر " ، تذكيراً لأنفسنا أن الله عز وجل أكبر من كل شيء ، وأنه هو الغاية العظمى ، وأن رضاه أسمى المطالب ، ونقول :" سبحان الله " تقديساً وتنزيهاً وتعظيماً ، ونقول :" استغفر الله " طلباً لمغفرة الله ، وهكذا ، فهذا كله ترسيخٌ واستحضارٌ دائماً لله سبحانه وتعالى ، فتذكره قائماً وقاعداً وعلى جنب ، إذا نزل بك كرب تذكرت ربك فاطمئن قلبك ، وإذا استشعرت نعمةً بك حمدت ربك ، فأنت لله وبالله وإليه أنت راجع.

1) الخلاق الخالق

" إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) "[(1)]

" هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ " [(2)]

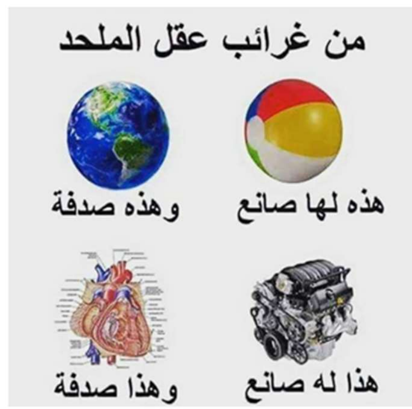
" نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57) "[(3)]

"هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11) "[(4)]

"كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) "[(5)]

" وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) "[(6)]









---

1. **(1) سورة الحجر.**
2. **(2) سورة الحشر.**
3. **(3) سورة الواقعة.**
4. **(4) سورة لقمان.**
5. **(5) سورة آل عمران.**
6. **(6) سورة النحل.**

لو تأملت مسألة الخلق ودرستها في ضوء القرآن لوجدت أن الله عز وجل أعطاها أهميةً بالغةً في القرآن ؛ إذ ذُكِرت في آيات عديدة ، فهي من أبين الدلائل التي عرَّفنا الله بها على نفسه ، وأظهر لنا فيها قدرته ، وبيَّن لنا فيها كمال علمه وحكمته ، فالمخلوقات دالةٌ على خالقها ، فالخالق هو الذي خلق جميع الموجودات وبرأها ، وسوّاها بحكمته وصوَّرها.

هل نظرت يوماً إلى السماوات الشدادِ ولونها ؟! ، وإلى النجوم الباهرات وضوئها ؟! ، وإلى الطيور المحلقات وشكلها ؟! ، وفي الأرض وسطحها ؟! ، وفي نفسك وصورتها ؟! ، فهل سبحت خالقها ؟! ، أيُ إبداعٍ هذا ؟! ، أي جمالٍ هذا ؟! ، أي إتقانٍ هذا ؟! ، " هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11) " ، " الكونُ كتابٌ مسطور ينطق تسبيحاً وتوحيدا ، وذراته تهتف تمجيدا " هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11) ".[1]

يقول الله تعالى :" أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) " ، وجود الإنسان في هذه الحياة لا يخرج عن ثلاث : إما أنه خُلقِ من غير شيء " أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ... (35) " وذلك يستحيل ؛ إذ لا يمكن للعدم أن يُنتِجَ وجوداً ، وكيف يُنتِجُ العدم الإتقان ؟! الإنسان بعلمه يتخلل الخلل مصنوعاته ، فكيف يتقن العدم ما لا يقدر عليه الإنسان ؟! ، والخيار الثاني أن الإنسان خلق نفسه بنفسه " أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) " وذلك يستحيل ؛ إذ كيف يخلق نفسه ولم يكن موجوداً أصلاً ؟! ، فذكر الله عز وجل الخياران الممتنعان ، ولم يتبق إلا الخيار اليقينُ الحقُ الوحيد وهو أن لهم خالقا.

يقول الصحابي جُبير بن مطعِم - كما في صحيح البخاري - يحكي حاله عندما سمع هذه الآية من سورة الطور - وكان ذلك قبل إسلامه - قال رضي الله عنه :" كاد قلبي أن يطير " ، يقول ابن كثير :" وَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جُمْلَةِ مَا حَمَلَهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِك."

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية :" هَذَا الْمَقَامُ فِي إِثْبَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} أَيْ: أَوُجِدُوا مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ؟ أَمْ هُمْ أَوْجَدُوا أَنْفُسَهُمْ؟ أَيْ: لَا هَذَا وَلَا هَذَا، بَلِ اللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَأَنْشَأَهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا " إلى أن قال :" ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ} أَيْ: أَهُمْ خَلَقُوا السموات وَالْأَرْضَ؟ وَهَذَا إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ. وَلَكِنَّ عَدَمَ إِيقَانِهِمْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِك. "

يقول صاحب التفسير الوسيط عن هذه الآيات من سورة الطور :" وبخهم- سبحانه- على عدم تفكرهم في خلق أنفسهم فقال: " أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (36) " أي: أخلقوا على هذه الكيفية البديعة، والهيئة القويمة، من غير أن يكون هناك خالق لهم؟ أم هم الذين خلقوا أنفسهم بدون احتياج لخالق؟ أم هم الذين قاموا بخلق السموات والأرض؟ ، لا، إن شيئا من ذلك لم يحدث، فإنهم لم يخلقوا من غير شيء، وإنما الذي خلقهم بقدرته- تعالى- هو الله وحده، كما خلق- سبحانه- السموات والأرض بقدرته- أيضا- وهم يعترفون بذلك."

---

(1) مقتبس من فصيح الحجاز الشيخ علي القرني.

حكى الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرحه لكتاب العقيدة الواسطية أن طائفة من السُّمنية - وهم من أهل الهند - جاؤوا إلى أبي حنيفة رحمه الله فناظروه في إثبات الخالق عز وجل، وكان أبو حنيفة من أذكى العلماء فوعدهم أن يأتوا بعد يوم أو يومين، فجاؤوا، قالوا: ماذا قلت؟ ، فقال: أنا أفكر في سفينة مملوءة من البضائع والأرزاق ، جاءت تشق عباب الماء حتى أرست في الميناء ونزلت منها الحمولة ، ثم ذهبت السفينة بعد ذلك لوحدها ، وليس فيها قائد ولا حمالون قالوا: تفكر بهذا؟! قال: نعم. قالوا: إذاً ليس لك عقل! هل يُعقل أن سفينة تأتي بدون قائد وتنزل منها البضاعة لوحدها ثم تنصرف؟! هذا ليس معقول! قال: كيف لا تعقلون هذا، وتعقلون أن هذه السماوات والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس كلها بدون صانع؟ فعرفوا أن الرجل خاطبهم بعقولهم، وعجزوا عن جوابه هذا .

وقيل لأعرابي من البادية: بم عرفت ربك؟ فقال: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على السميع البصير؟ "

قال العثيمين :" فحينئذ يكون العقل دالاً دلالة قطعية على وجود الله ".

ومن الأدلة العقلية على الخالق سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته خلقه للأشياء أزواجاً ، يقول سبحانه وتعالى :" سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36) " ، وقال سبحانه : " وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) " ، قال البغوي رحمه الله في تفسير الآية :" " وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ " ، أي صِنْفَيْنِ وَنَوْعَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ كَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالسَّهْلِ وَالْجَبَلِ، وَالشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ، وَالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَالسَّعَادَةِ والشقاوة، والجنة والنار، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْحُلْوِ وَالْمُرِّ . " لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " ، فتعملون أَنَّ خَالِقَ الْأَزْوَاجِ فَرْدٌ " ، ومن هنا تعرف بطلان الإلحاد ، كيف للأشياء أن تتناسق وتتكامل صدفةً ؟ ، فإذا افترض الملحد أن الذكر جاء صدفة فكيف للأنثى أن تأتي بصورة مكاملة للذكر ؟ ، أذلك صدفة أيضاً ؟! ، ثم انتبه إلى أن مسألة الذكورة والأنوثة ليست في جنس البشر فحسب ، بل هي عامة ، حتى في الحيوانات والنباتات ، فهل الصدفة تفعل كل هذا ؟ وهل الصدفة تخلق كل هذه الأزواج التي يكمل بعضه بعضاً ؟! ، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وكذلك خلق الله للمخلوقات فيه إبطال للشرك ، قال سبحانه وتعالى :" لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) " ، وقال سبحانه :" مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) " ، فذلك يدل على وحدانيته.

والله عز وجل يُقرِّرُ ويستدل على ألوهيته بربوبيته ، فكما أنه الرب سبحانه وتعالى وهو الخالق فهو المستحق للعبادة ، يقول الله سبحانه وتعالى :" ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ... (102) " ، وقال سبحانه وتعالى :" اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَلِ

اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67." (

ويبين الله سبحانه وتعالى بطلان ألوهية غيره بسلبهم لقدرة الخلق وعجزهم عن ذلك ، فهم لا يخلقون شيئاً ، فلا يستحقون العبادة ، يقول الله سبحانه وتعالى :" أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191) " ، وقال سبحانه :" أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22. " (

وقال تعالى :" وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3) " ، وقال سبحانه وتعالى :" قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (6." (

وقال تعالى :" اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54." (

وقال سبحانه وتعالى :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74) " ، فلو جمعت جميع أطباء العالم ومهندسيهم بل جئت بكل بروفيسور على وجه الأرض ، بل ولو جمعت الجن والإنس - من أولهم إلى آخرهم - على أن يخلقوا ذبابة واحدة لما استطاعوا ، وكيف ينفخون فيها الروح ؟! ، فإذا كان البشر والجن بما عندهم من العلم لا يقدرون على خلق ذبابة ، فكيف تخلقها الصدفة العمياء ؟ ، بل وكيف ويزعم الملحد أن الكون أتى صدفة من غير خالق ؟! ، " سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67." (

ومن هنا تعرف ضلال الذين جعلوا لله أنداداً ، ومن هنا تعرف سفه العقول التي تركت الله وتعلقت بغير الله.

وإذا سألك ملحد فقال لك :" لما تثبت وجود الله ؟ " ، فاقلب عليه كلامه وقل له :" بل أنت لماذا تُنكِر وجود الله ؟ " ، صدقني لن يكون له حجة ، بل جميع حججه واهية ، يضرب بعضها بعضاً ، ستجده يقول لك :" لأنني لا أراه " ، وسنسأله :" هل الرؤية شرطٌ لوجود الشيء ؟ وهل وجود الشيء يتوقف على رؤيته ؟ " ، فالعقل أداة لإدراك الموجودات ، وليس أداة لإنشاء الموجودات ، فصدقني الملحد لا حجة له ، وأما المؤمن فقوي الحجة فيقول :" إني عرفت الله بمخلوقاته وآياته ، فآثار الشيء تدل عليه ، فعرفته بمخلوقته ، بل وعرفت صفاته ، فعرفت أنه خالق قدير عليم حكيم واحد عظيم ، وعرفته برسله الذين أرسلهم لنا ، وبكتبه التي أنزلها إلينا " ، فأي الحجتين أقوى ؟. !

بل أنت عليك أن تبادر ذلك الملحد بالسؤال :" لماذا تُنكِر وجود الله " ، ولا تنتظره حتى يبادرك ، بل وكن على يقين أن هؤلاء الملاحدة والكفار ليس لديهم منظومة متكاملة يجيبون بها على القضايا والأسئلة الكبرى ، فعقيدتهم خبط عشواء ليست مبنية على يقين.

وإذا اعترض عليك بعض هؤلاء التطوريين بأن الكون أتى بالتطور ، والإنسان تطور من القرود ، فاسألهم ما بالنا نرى قروداً لم تتطور ، وما بالنا لا نرى كائنات وسيطة بيننا وبين القرود ، ولو افترضنا أن الذي تطور هو الذكر فهل تطورت الأنثى بصورةٍ مزامنة له ؟! ، ما هذا إلا ضرب خيال ، ونتاج ملاحظات باطلة خاطئة ، وأوهام وخرافات ، وهذه نظرية لا تمت للعلم الصحيح بصلة ، بل هو علم زائف . بل يكفي في دحض هذه النظرية قاعدة أحيائية ، تنص على أن الصفات المكتسبة لا تورث بل تبقى صفات الأصل.

وكل ما عرضت عليك شبهة شيطانية إلحادية ولم تستطع ردها فتأمل يديك ، فإن ذلك يقطع دابر الإلحاد ، وإذا ما أردت أن تُعلِّق ابنك بخالقه سبحانه وتعالى فامسك يده ، واجعلها أمام ناظريه ثم قل له :" يا بني ، يدك هذه لم تعطها لك أمك ، ولم اشترها لك من السوق ، وإنما أعطاها لك الله الذي خلقك " ، صدقني أنه بعد ذلك لن تعرض عليه شبهة إلا ويرفع يده وينظر إليها ويتذكر قدرة خالقه وعلمه وحكمته فما تلبث أن تنصرف تلك الشبهة.

وبعد أن قرأت ما تقدّم أعِد النظر في الفِكر الإلحادي ، إذ أن " من القضايا التي تتأسس عليها الفكرة الإلحادية مبدأ الصدفة ، إذ أنها بإنكارها لوجود الخالق – والذي يخلق بعلم وحكمة – لجأت إلى الصدفة والاحتمالات العشوائية كمفسر لحدوث كثير من الظواهر المعقَّدة ، وهو ما يتكرر كثيراً في حججهم ومناقشاتهم . كيف حدث الكون ؟ بالصدفة . ، كيف ابتدأت الحياة ؟ بالصدفة . كيف انضبطت هذه القوانين والسنن ؟ بالصدفة ... الخ "[1] ، فأي صدفة هذه ؟!!! ، أخذوا صفات الله عز وجل ونسبوها للطبيعة والصدفة العمياء ! ، فهل هذه عقول سليمة ؟. !

يقول الله تعالى :" يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ " هذه الآية كافية في إثبات الخالق ، فالله عز وجل أخبرنا فيها أنه هو الذي خلقنا ، أخبرنا أنه خلقنا ، وأخبرنا أنه جعل زوجين ذكراً وأنثى ، ثم أخبرنا بالمعيار الكرامة وهو التقوى.

والخالق سبحانه يُعرِّفُك بنفسه فيقول :{ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ } ، جاءت هذه الآية في 5 مواضع في القرآن ، في سورة الحجر والمؤمنون و ق والبلد والتين ، فالخالق قد أخبرك بنفسه فلا تكن في ريبة .

---

(1) كتاب ميليشيا الإلحاد - عبد الله العجيري.

1) مقارنة المصانع التي صنعها الله ، ومصانع الإنسان

" صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ... (88) "
]سورة النمل[

"وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِين".
]سورة النحل[

اِعقِد مُقارنةً بين ما خلقه الله سبحانه وتعالى من المصانع المُنتجةِ للمنتجات ، وبين المصانع التي صنعها الإنسان ، فإنك لو تأملت مصانع الإنسان لوجدت فيها الكثير من المخلفات والأضرار ، فتجد أنها تُحدِث تلوثاً في الهواء يُضرُّ بالأنفاس ، وتلوثاً في الماء يُضرُّ بالأسماك والأمعاء ، وتلوثاً ضوضائياً يُضرُّ بالأسماع ، وتلوثاً بيئياً ؛ إذ أنها تُخلِّف مُخلفاتٍ كيميائية ضارة.

ثم تعال وتأمل في تلك المصانع التي سخَّرها الله عز وجل للإنسان ، وكيف أنها تخِدمُ البيئة بدلاً من أن تضرها ، فتأمل البقرة مصنع اللبن ، وتأمل النحلة مصنع العسل ، وتأمل دودة القز مصنع الحرير ، وتأمل المحار مصنع اللؤلؤ ، وتأمل الحوت مصنع العنبر ، وتأمل الغزال مصنع المسك ، وهكذا.

فإنك تجدها خادمةً للبيئة ، فتلك البقرة التي تُنتجُ اللبن تجدها ترعى في المرعى بسلام ، تأكل ثُم تنتج منتجاً هو من أهم المنتجات يدخلُ في كثيرٍ من التركيبات ، فيُصنع منه الجبن وغيره، وهكذا ، كل هذا دون أضرار جانبية.

يقولُ ابن القيم رحمه الله :" ثمَّ تَأمل الْعبْرَة الَّتِي ذكرهَا الله عز وَجل فِي الأنعام وَمَا سقانا من بطونها من اللَّبن الْخَالِص السائغ الهنيء المريء الْخَارِج من بَين الفرث وَالدَّم ، فَتَأمل كَيفَ ينزل الْغذَاء من أفواهها إِلَى الْمعدة فينقلب بعضه دَمًا بإذن الله وَمَا يسري فِي عروقها وأعضائها وشحومها ولحومها ، فَإِذا أرسلته الْعُرُوق فِي مجاريها إِلَى جملَة الأجزاء قلبه كل عُضْوٍ أَوْ عصب وغضروف وَشعر وظفر وحافر إِلَى طَبِيعَته ، ثمَّ يبْقى الدَّم فِي تِلْكَ الخزائن الَّتِي لَهُ إِذْ بِهِ قوام الْحَيَوَان ، ثمَّ ينصب ثقله إِلَى الكرش فَيصير زبلاً ، ثمَّ يَنْقَلِب بَاقِيَه لَبَنًا صافياً أبيض سائغاً للشاربين فَيخرج من بَين الفرث وَالدَّم.

حَتَّى إذا أُنهكت الشَّاة اَوْ غَيرهَا حَلبًا خرج الدَّم مشوبا بحمرة ، فصفّى الله سُبْحَانَهُ الألطف من الثفل بالطبخ الأول فانفصل إِلَى الكبد وَصَارَ دَمًا وَكَانَ مخلوطا بالأخلاط الأربعة ، فَأَذْهب الله عز وَجل كل خلط مِنْهَا إِلَى مقره وخزانته المهيأة لَهُ من المرارة وَالطحَال والكلية ، وَبَاقِي الدَّم الْخَالِص يدْخل فِي أوردة الكبد فينصب من تِلْكَ الْعُرُوق إِلَى الضَّرع فيقلبه الله تبَارك وَتَعَالَى من صُورَة الدَّم وطبعه وطعمه إِلَى صُورَة اللَّبن وطبعه وطعمه فاستخرج من الفرث وَالدَّم.

فسل الْمُعَطل الجاحد من الَّذِي دبر هَذَا التَّدْبِير وَقدر هَذَا التَّقْدِير وأتقن هَذَا الصنع ولطف هَذَا اللطف سوى اللَّطِيف الْخَبِير."

ثم إن الإنسان ما هو إلا مُقلدٌ لخلق الله ، نظر إلى الطيور ودرسها فصنع الطائرة ، قلد الأسماك والحيتان ودرس تقنياتها فصنع الغواصة ، درس عين الإنسان فصنع الكاميرا ، وهكذا .ثم تأمل كيف أن

مصنوعات الإنسان تمر بمراحل من التحسين والتطوير المستمر ؛ إذ أن فيها الكثير من العيوب ، أما ما يخلقه ذو العلم الكامل فإنك تجده من أجود ما يكون ، فسبحان من خلق كل شيء وأتقنه.

2) أتقن كل شيء

تأمل الشمس التي هي مصباحُ الأرض تُنيرُها كُلها ، وقارنها بالمصباح الذي صنعه الإنسان ، يتبين لك ضعف ما صنعه الإنسان وجودة ما صنعه الله ، إذ هذا المصباح الكهربائي لا يلبث كثيراً حتى يحتاج إلى صيانةٍ أو غِيار ، أما هذه الشمس فإنها مُضيئةٌ من قَبلِ أن نُولد ، بل من قبل آلاف السنين ، لم تحتج يوماً واحدً إلى صيانة أو قِطع غيار ، فاسأل الملحد كيف تدَّعي أن هذا المصباح الكهربائي يحتاج إلى صانعٍ ومُوجدٍ ومُخترع ولا تحتاج هذه الشمس إلى خالق ؟. !

مما يترتب على معرفة اسم الله الخالق

1- الخالق لم يخلقنا عبثاً ، وإنما خلقنا للعبادة ، يقول الله سبحانه وتعالى :" وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) " ، وقال سبحانه :" وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) " ، وقال سبحانه :" وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27." (

2- الذي لا يخلق لا يستحق العبادة ، ولذلك تجد المؤمن قوي الحجة في عبادته لله ؛ إذ معبوده كامل الصفات حسن الأسماء ، أما معبودات الكافرين فهي باطلةٌ لا حسن فيها ولا كمال ، ولذلك سأل ملحدٌ هندوسياً ممن يعبد البقر فقال له :" لماذا تعبدون البقر ؟ لماذا لا تعبدون الأسد فالأسد جميل وهو أولى من البقرة ؟ " ، لم يستطع الهندوسي أن يجيب عليه ، في حين أنك لو سألت المسلم :" لماذا تعبد الله ؟ " لقال لك مباشرة من دون تردد :" لأنه هو الخالق الرازق القدير الحكيم العليم السميع البصير ، ذو الأسماء الحسنى والصفات العُلى ، لا إله إلا هو ، وهو الذي له ملك السماوات والأرض ، وهو الذي بيده الجنة دار الثواب والنار دار العقاب " وهكذا ، وتأمل حجة إبراهيم عليه السلام على قومه :" الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82." (

3- كما أنه لا يعطي التعليمات إلا الصانع ، فكذلك لا يعطي الأوامر الشرعية إلا الخالق سبحانه ، قال تعالى :" ألا له الخلق والأمر " ، فكما أنه المنفرد بالخلق فهو المنفرد بالأمر ، فلا مُشرِّع إلا هو سبحانه ، ولا حق لأحد بوجه من الوجوه أن يشرع مع الله سبحانه ، يقول تعالى :" أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ... (21) " ، فهو الذي يقول هذا حلال وهذا حرام ، هذا حقٌ وهذا باطل.

4- كما أن الخالق منفردٌ بالخلق فهو منفردٌ بالاختيار ، قال تعالى :" وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) " ، فكما خلقهم وحده سبحانه اختار وحده ، والاختيار دالٌ على ربوبيته سبحانه ، فكما أنه لا شريك له يخلق كخلقه فلا شريك له يختار كاختياره ، ويترتب عليه أنه لا يحق لأحدٍ أن يزعم أفضلية أو بركة زمان أو مكانٍ أو عينٍ أو غير ذلك إلا بدليل ، إذ هذا أمر بيده سبحانه وتعالى ، فالله عز وجل خلق البقاع واختار منها مكة ، وخلق الأزمنة واختار منها يوم النحر ، واختار من الملائكة المقربين ، واختار من البشر الرسل والأنبياء ، ومن الرسل والأنبياء أولي العزم الخمسة ، ومن أولي العزم الخمسة اختار الخليلين ، ومن الخليلين اختار محمداً صلى الله عليه وسلم فهو أفضل الخلق ، فأفضليته آتيةٌ من تفضيل الله له وتكريمه سبحانه ، واختار من العالمين الصحابة رضي الله عنهم ، ومن اختياره سبحانه وتعالى اختياره لهذه الأمة ، واختياره للقرآن الكريم من بين الكتب ، واختياره للغة العربية من بين اللغات ، فكل ما اختاره الله فهو الأفضل والأسمى والأكمل ، وهو الحق الذي لا التباس فيه.

5- الخالق هو الرازق الذي تكفل برزق العباد ، فليطمئن قلبك ، وإياك أن يصيبك الهم بسبب الرزق ، يقول تعالى :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3) " فتأمل كيف قرن بين خلقه لنا ورزقه لنا ، وقال تعالى :" وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58. " (

6- الخالق هو الغني ، فهو الغني الذي لا يحتاج إلى أحدٍ من خلقه ، وهو الغني ذو الخزائن التي لا تنفد ، قال تعالى :" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20) " ، وقال تعالى :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17) " ، وقال تعالى :" مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ... (96) " ، فطاعتك لا تزيد في ملكه شيئاً ، ومعصيتك لا تنقص من ملكه شيئا ، ومن عصى الله فلن يضر الله شيئاً ، ولا يضر إلا نفسه ، " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ " ، وكذلك احذر من أن تتصدق بالخبيث وبأسوأ ما تملك ؛ فالله عز وجل غني ، بل تصدق بالطيب ، فإن صدقتك إنما هي أمرٌ تُقدِّمه أنت وتدخره لنفسك في آخرتك.

(2القدير

"لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "
]سورة الطلاق[

"كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ "
]سورة آل عمران[

"وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47 " (
]سورة النساء[

"وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (38 " (
]سورة الأحزاب[

من تأمل ونظر وفكر في المخلوقات والآيات من حوله - التي آراها الله لخلقه في الآفاق - تبيّن له قدرة هذا الخالق سبحانه وتعالى ، وأنه لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، قال تعالى :" وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44) " ، فكِّر في رئتيك ، تأمل عينيك التي تنقل لك أعلى درجات جودة الصور ، وأذنيك التي تنقل لك الأصوات بأعلى درجات النقاء ، تأمل جميع ما حولك ، كلها تدلك على قُدرةِ خالقها ، كلها تقول لك :" إن الله على كل شيء قدير."

"إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) " هذه قاعدةٌ قرآنية ، وردت بهذا اللفظ 11 مرة ، ووردت بلفظ " وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (284) " 9 مرات ، فيكون المجموع 20 مرة ، 20 مرة في القرآن يخبرك الله تعالى نصّاً أنه على كل شيء قدير ، ولفظة " كل شيء " تشمل كل شيء .

هذه القاعدة قاعدةٌ يُجابُ بها على كثيرٍ من الأسئلة التشكيكية ، بل كل الأسئلة المشكلة ، وكذلك يُجاب بها على غيرها من الأسئلة ، وهذه القاعدة تهون بها المصائب ؛ إذ أن الله قادرٌ على رفعها.

والقدير سبحانه هو الذي خلق البشر :" وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ، فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54 . " (

والقدير هو الذي يُعطِي المُلك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويُعزُ من يشاء ، ويُذل من يشاء ، قال تعالى :" قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27. " (

وهو القدير على مغفرة الذنوب ، وهو الذي يُقلبُ القلوب.

والقدير يدخل في معناها ذو القدرِ العالي ، فقد ذكر بعضهم أن قدير من القدر مثل سميع من السمع ، فالله ذو قدرٍ عالٍ ، وذو المكانة الكبيرة ، والمنزلة السامية ، قال تعالى :" وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ... (91) ".

وتأمل معي أثر استحضار هذا الاسم في حياتنا ، فإنه يجعل جميع الأمور في عينيك مهما كبرت صغيرة ، وذلك لأن الله قادرٌ عليها ، كل الذي عليك هو أن ترفع حوائجك إلى القدير سبحانه.

ومن تأمل قصص الأنبياء تجلى له استحضار الأنبياء لأسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته ، فإنهم أعرف الناس بالله ، ومن أراد التطبيق العملي لمعرفة أسماء الله وصفاته وما يترتب عليها فليتأمل قصص الأنبياء ، فإن معرفة الأنبياء لربهم سبحانه تتجلى في قصصهم.

تأمل معي قصةُ موسى عليه السلام ، يقول الله تعالى :" فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(٦١)) قَالَ كَلَّاۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ(٦٢)) "، البحر أمامه، وفرعون من خلفه ، ماذا يفعل ؟ يعلم موسى عليه السلام يقيناً قدرة ربه سبحانه وتعالى ، فيزجر قومه بقوله :" كَلَّا " ، ثم يبين لهم قدرة ربه :" إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين " ، فيأتيه الوحي فوراً " فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَۖ " ، هذا السبب الذي أمر الله به موسى أن يتخذه ، فضرب موسى عليه السلام البحر امتثالاً لأمر ربه ، وسارع بتنفيذ ذلك دون تردد ، " فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَۖ فَانفَلَقَ " ، تأمل معي أن الله عز وجل لم يقل :" فضرب موسى بعصاه البحر " ! ، إذ أن ذلك أمرٌ بدهي أن يمتثل موسى عليه السلام أمر ربه ، فلم يُحتَج إلى التنويه إلى ذلك ، انفلق البحر بقدرة ربه.

مهما كان الأمر خارق للطبيعة ومخالف لما اعتاد عليه البشر إلا أنه على الله يسير ، يقول تعالى :" أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا " ، جاء في التفسير الميسر :" لا تظن -أيها الرسول- أن قصة أصحاب الكهف واللوح الذي كُتِبت فيه أسماؤهم من آياتنا عجيبة وغريبة؛ فإن خلق السموات والأرض وما فيهما أعجب من ذلك."

كذلك تأمل معي قصة موسى عليه السلام عندما استسقى لقومه ، الأمر الذي يتوقعه الناس أن تهطل الأمطار أو شيء مثل ذلك ، لكن الله يأمر موسى عليه السلام بضرب الحجر ! ، يقول تعالى:" وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ ، فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ ، عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ " ، أمرٌ غيرُ متوقع للبشر ، لكنها قدرة الله ، وتأمل للمرة الثانية تتابع أمر الله وفعل موسى عليه السلام ، " فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْفَجَرَت " ، يفعل موسى عليه السلام أمر ربه مباشرة ، دون تردد ، ولا تفكير ، إنه الانقياد لأمر الله ، والمسارعة إلى طاعته ، وقصص الأنبياء فيها الكثير من ذلك.

فكن كموسى عليه السلام ، إذا قال الله لك :" افعل " فافعل دون تفكيرٍ ولا تردد ، بل عليك بالامتثال والانقياد مباشرة.

-1المعجزات

القدير سبحانه هو الذي وضع لهذا الكون نظاماً وقوانين ، وهو قادرٌ على تغييرها سبحانه ، فهو الذي جعل في النار خاصية الإحراق ، وهو قادرٌ على سلبها إذا أراد كما فعل ذلك بنار إبراهيم عليه السلام ، وهو الذي أسرى بنبيه صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فسبح نفسه سبحانه :" سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) " ، فتنزه سبحانه عن النقص ، فنزِّه ربك سبحانه ، وأعجب لقدرته سبحانه.

والقدير هو الذي نادى موسى عليه السلام :" فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16) " ، ثم أراه آياته وقدرته :" وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) " ، فالله عز وجل أراه من آياته الكبرى ، وتأمل قول الله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم :" لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18) " ، ومن رأى هذه الآيات بعيني قلبه خضع قلبه وأذعن.

والقدير هو الذي رزق زكريا عليه السلام على كِبر سنه ووهن عظمه واشتعال رأسه وعقر زوجته ، فقال القدير سبحانه :" هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) " ، فمهما كان الأمر مُعقداً وكبيراً فهو على الملك القدير هينٌ وصغير ، فالذي خلقك من عدم قادرٌ على أن يرزقك الذرية بعد سنين من العُقم ، فلا تيأس ، ولا تتعلق بالأطباء بل برب الأطباء.

والكون كله ملك للقدير يتصرف فيه كيف شاء ، فيأمر الشمس بالجريان فتجري ، وإذا أمرها بالتوقف توقفت ، وإذا أرادها أن تخرج من المغرب خرجت ، فهي تحت أمره سبحانه ، وهكذا كل الكون.

فإياك أن تحتج بعقلك ، أو عدم اقتناعك لترد خبراً أو أمراً من القدير ، بل صدِّق أخباره ، وانقد لأوامره فهو القدير العليم ، وانقد له ، وسلِّم له أمرك ، فهو يعلم ما ينفعك ، واعلم أن من انقاد لأمر الله فإن عاقبة أمره خيرٌ ولابد.

إذا كان جبريل عليه السلام يخسف قرية كاملة بطرف جناحه ، وإذا كان عيسى عليه السلام يحيى الموتى بإذن الله ، وإذا كان سليمان عليه السلام يسمع ويفهم النمل فما بالك بقدرة القدير سبحانه ؟! ، كل هؤلاء المذكورين مخلوقات من مخلوقات الله وأعطاهم شيئاً من القدرة فما بالك بالخالق كامل القدرة ؟. !

مما يترتب على معرفة اسم الله القدير الإيمان بيوم القيامة وأهواله وما يحدث فيه ، فيوم القيامة وأحداثه حقٌ لا ريب فيه.

قد يستنكر من لا يؤمن بالقدير نطق الأعضاء يوم القيامة وشهادتها ، ومنبع هذا الإشكال هو شرطٌ ضمنيٌ في ذهن هذا المستشكل ، وهو أنه يعتبر أن اللسان شرطٌ للنطق ، وفي الحقيقة ذلك ليس بصحيح ، فاللسان ليس شرطاً لإصدار الأصوات ، واليوم نرى الهواتف وأجهزة الراديو وغيرها تُصدِر الأصوات ولا لسان لها ! ، والصناعات الحديثة حججٌ على الإنسان.

وهنا لفتة ، وهي أنك لتحل الإشكالات عليك أن تطلع وتبحث عن أسباب ذاك الإشكال ثم تقتلعها من جذورها ، إذ هي أسبابٌ واهية لا قرار لها.

واعلم أن حل كثير من من الإشكالات يكمن في حل التلازمات ، كثير من الإشياء يُتوهَّم فيها التعارض بسبب ظن أن بينها تلازم، وذلك يكون غير صحيح.

والخلاصة أن عليك أن تسأل نفسك :" من القدير ؟ " الله ، إذن هو الذي يحدد ما الذي يحدث وما الذي لا يحدث ، يريد أن ينشق القمر إذن ينشق القمر ، يريد أن يبطل تأثير نار إبراهيم إذن يبطل تأثيرها ، يريد أن ينشق البحر لموسى عليه السلام إذن ينشق له ، ومن العليم ؟ الله ، إذن هو الذي يحدد ما الحق وما الباطل ، وهو الذي يحدد ما الصواب وما الخطأ ، ومن الحكيم ؟ الله ، إذن هو الذي يحدد ما الذي يصلح وينفع العباد وما الذي لا يصلح لهم ، فشرعه هو الذي يجب أن يُتبع ، وهكذا .

2-البعث

" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ
إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) "
]سورة فصلت[

"أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى(36(
أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ(37(
ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ(38(
فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ(39(
أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ(40) "
]سورة القيامة[

مما يترتب على معرفة أن الله سبحانه وتعالى قدير أنه قادرٌ على أن يحيى الموتى.

ويمكنك الرجوع إلى فصل التفكر في النباتات والإطلاع على الحجج العقلية المذكورة فيه ، ففيه كفاية وغنية عن إعادة ذكره هنا.

<u>مما يترتب على معرفة اسم الله القدير</u>

1- **القدير سبحانه قادرٌ على إحياء الموتى كما أنه قادرٌ على أن يحيي الأرض بعد موتها.**

2- **القدير سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يؤيد أنبيائه بمعجزاتٍ - تُعجِزُ البشر – ليبين صدقهم.**

3- **القادر على إيلاج الليل في النهار ، وإيلاج النهار في الليل ، وإخراج الميت من الحي ، وإخراج الحي من الميت قادرٌ على أن يُخرِجُك من الفقر إلى الغنى ، ومن الحزن إلى السعادة ، فلا تيأس ، ولا تعجز ، وهو كذلك قادرٌ على أن يُخرِجك من الغنى إلى الفقر ، ومن القوة إلى الضعف فلا تتكبر ولا تتجبر.**

4- **على العبد أن يتذكر قدرة الله عليه فلا يعتدي ولا يظلم ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي، فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ، فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ»، أَوْ «لَمَسَّتْكَ النَّارُ» [رواه مسلم[**

5- **مهما عظم البلاء واشتد الكرب وصعب المرض فاعلم أن الله قادر على رفعه وكشفه ، فتضرع إليه وألِحَّ عليه وأكثر من الدعاء ، ومن داوم على قرع الباب فُتِح له ولابد.**

(3العليم الحكيم

من تأمل مخلوقات الله سبحانه وتعالى وجدها في غاية الإتقان ، وذلك يدل العبد على أن ربه ذو علم كامل وحكمة كاملة ، ولو كان الطبيب يُفني حياته كلها في تخصصٍ واحد في مجاله فتجده طبيب أسنان ، أو طبيب قلب أو غير ذلك ، فما بالك بالذي خلق كل عضوٍ في الإنسان ؟! ، بل الذي خلق البشر كلهم بأعلى إتقان ؟ ، من المؤكد أنه أعلم من هؤلاء الأطباء بل من البشرية أجمعين.

الحكيم ذو الأحكام المُحكمة التي هي في غايةِ الإحكام ، والتي لا ظلم فيها ولا جور ، " وما ربك بظلام للعبيد. "

أحياناً نحن نمنع صغارنا وأطفالنا وننهاهم عن أمور هم لا يفهمون لماذا نمنعهم عنها ، وربما يحزنون بسبب ذلك ، لكننا نفعل ذلك لمصلحتهم ، والله سبحانه وتعالى حكيم لا يأمرنا إلا بما ينفعنا ، ولا ينهانا إلا عما يضرنا ، فالله حكيم في شرعه ، وحكيم في خلقه كأن يجعل هذا غنياً وهذا فقيراً ، هذا قوياً وهذا ضعيفاً ، وهكذا ، حتى الشر خلقه الله بحكمته.

يقول ابن القيم رحمه الله :" فإياك أن تظن بظنك الفاسد أن شَيْئا من أقضيته وأقداره عَارٍ عَن الْحِكْمَة الْبَالِغَة ، بل جَمِيع أقضيته تَعَالَى وأقداره وَاقعَة على أتم وُجُوه الْحِكْمَة وَالصَّوَاب ، وَلَكِن الْعُقُول الضعيفة محجوبة بضعفها عَن إِدْرَاكهَا كَمَا أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عَن ضوء الشَّمْس ، وَهَذِه الْعُقُول الضِّعَاف إِذا صادفها الْبَاطِل جالت فِيهِ وصالت ونطقت وَقَالَت كَمَا أن الخفاش إِذا صادفه ظلام اللَّيْل طَار وَسَار. "

وعلينا أن نستحضر دائماً أمراً مهماً ، وهو أنه كما أن لبصرنا حدود ، ولسمعنا حدود ، فكذلك لعلمنا حدود ، فلا ندرك ما خرج عن الحدود التي جعلها الله لنا ، ونحن حالنا كحال الذي يريد أن يحل لعبة تركيب الصور ، وليس في يده سوى قطعة واحدة ويريد أن يعرف كل الصورة بهذه القطعة التي في يده ! ، لن تعرف الصورة لأنها ليست كاملة عندك ، فالحاصل أن الإنسان قاصر العلم ولا يدرك كل الحكم ، أما الله عز وجل فهو كامل العلم كامل الحكمة ، والواجب على ناقص العلم أن ينقاد ويذعن ويطيع كامل العلم ، كما أن عليه أن يرضى بأقداره.

مثلاً قد تدعو الله سبحانه وتعالى أن تسافر لبلدٍ ما ولكنك في نفسك لا تريد الذهاب إليه لذاته ، وإنما تريد السفر إلى ذلك البلد للحصول على وظيفةٍ جيدة ، فيأتيك الله بهذه الوظيفة في بلدك دون أن تسافر لتلك البلد ، أو قد تريد الذهاب إلى بلدٍ ما ولكن في ذلك البلد ما يضرك ، فيمنع العليم سبحانه وتعالى عنك هذا السفر لتجنيبك ذلك الضرر ، ويبدلك بدل ذلك حسناتٍ في الآخرة ، وفي الحقيقة هذا المنعُ هو عينُ العطاء.

ونحن قد لا ندرك بعض الحكم في البداية ، ولكن لو عملنا بما أمر الله فقد نرى الحكمة في النهاية ، وتأمل قصة موسى عليه السلام ، بدايتها " فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ... (39) " ، وآخرها أن يكون موسى كليماً لله.

والعليم سبحانه هو وحده الذي يعلم الغيب ، فلا يشاركه في ذلك أحد ، ومن زعم أن غير الله يعلم الغيب فقد كفر ، قال تعالى :" قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) " ، وقال تعالى :" وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ... (179. " (

والمؤمن يستخير العليم الذي يعلم الغيب ، ففي دعاء الاستخارة :" فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ " ، فالمؤمن لا يعلم ما الذي سيحدث ، ودعاء الاستخارة بتمامه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ، يَقُولُ: " إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي " قَالَ: «وَيُسَمِّي حَاجَتَه. «

والعليم يعلم النوايا وما في القلوب ، قال تعالى :" وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51) " وقال تعالى :" وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235) " ، فمن الناس من يعمل عملاً ظاهره الخير لكنه يبطن الشر والفساد كالذين قال الله فيهم :" وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110." (

والله عز وجل أصدقُ قيلاً ، فإن أخبرك بشيءٍ فهو صِدقٌ حتى لو لم تعرف كيف ذلك ، لأن الله هو العليم سبحانه.

وهنا فائدة وهي أنك إذا ما رُزِقتَ بولد وكان به مرضٌ وابتلاء - نسأل الله لنا ولكم السلامة وأن يحفظ ذرياتنا ويبارك فيهم - فسمِّ ولدك هذا باسم عبدالحكيم حتى يتعلق بهذا الاسم العظيم ، وحتى يعلم أن مرضه هذا لحكمة يعلمها الله ، أو سمه عبدالرحيم ، أو أي اسمٍ يُعلّقه بالله ، وخير الأسماء عبدالله وعبدالرحمن.

فائدة عرضية: أسماء الله عز وجل تبيّن بعضها بعضاً ، فالرزاق الذي يرزق العباد يبيّن لنا شيئاً من اسم الله الرحيم ، والرحيم من رحمته أن يرزق العباد ، وهكذا .

ويقول ابن القيم رحمه الله عن حكمة الله في جزاء الظالمين وغيرها :" وَتَأمل حكمته تَعَالَى فِي مسخ من مسخ من الأمم فِي صور مُخْتَلفَة مُنَاسبَة لتِلْك الجرائم ، فَإِنَّهَا لما مسخت قُلُوبهم وَصَارَت على قُلُوب تِلْكَ الْحَيَوَانَات وطباعها اقْتَضَت الْحِكْمَة الْبَالِغَة أن جُعِلت صورهم على صورها لتتم الْمُنَاسبَة ويكمل الشّبَه ، وَهَذَا غَايَة الْحِكْمَة.

وَاعْتبر هَذَا بِمن مسخوا قردة وَخَنَازِير كَيفَ غلبت عَلَيْهِم صِفَات هَذِه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها ، ثمَّ إِن كنت من المتوسمين فاقرأ هَذِه النُّسْخَة من وُجُوه أشباههم ونظرائهم كَيفَ ترَاهَا بادية عَلَيْهَا وَإِن كَانَت مستورة بِصُورَة الانسانية ، فاقرأ نُسْخَة القردة من صور أهل الْمَكْر والخديعة وَالْفِسْق الَّذين لَا عقول لَهُم ، بل هم أخف النَّاس عقولاً وأعظمهم مكراً وخداعاً وفسقاً ، فَإِن لم تقرأ نُسْخَة القردة من وجوهم فلست من المتوسمين.

واقرأ نُسْخَة الْخَنَازِير من صور أشبهاهم ، وَلَا سِيمَا أعداء خِيَار خلق الله بعد الرسل وهم أصحاب رَسُول الله ، فَإِن هَذِه النُّسْخَة ظَاهِرَة على وُجُوه الرافضة يَقْرَأها كل مُؤمن كَاتب وَغير كَاتب ، وَهِي تظهر وتخفى بِحَسب خنزيرية الْقلب وخبثه ، فَإِن الْخِنْزِير أخبث الْحَيَوَانَات وأردؤها طباعاً ، وَمن خاصيته أنه يدع الطَّيِّبَات فَلَا يأكلها ، وَيقوم الإنسان عَن رجيعه فيبادر إليه ، فَتَأمل مُطَابقَة هَذَا الْوَصْف لأعداء الصَّحَابَة كَيفَ تَجدهُ منطبقاً عَلَيْهِم ؛ فَإِنَّهُم عَمدُوا إِلَى أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤوا مِنْهُم ، ثمَّ والواكل عَدو لَهُم من النَّصَارَى وَالْيَهُود وَالْمُشْرِكين ، فاستعانوا فِي كل زمَان على حَرْب الْمُؤمنِينَ الموالين لأصحاب رَسُول الله بالمشركين وَالْكفَّار ، وصرحوا بِأَنَّهُم خير مِنْهُم ، فأي شبه ومناسبة أولى بِهَذَا الضَّرْب من الْخَنَازِير ، فَإِن لم تقْرَأ هَذِه النُّسْخَة من وُجُوههم فلست من المتوسمين ، وأما الأخبار الَّتِي تكَاد تبلغ حد التَّوَاتُر بمسخ من مسخ مِنْهُم عِنْد الْمَوْت خنزيراً فَأَكْثَر من أن تذكر هَا هُنَا ، وَقد أفرد لَهَا الْحَافِظ بن عبد الواحد الْمَقْدِسِي كتاباً.

وَتَأمل حكمته تعالى فِي عَذَاب الأمم السالفة بِعَذَاب الاستئصال لما كَانُوا أطول أعماراً وأعظم قوى وأعتى على الله وعَلى رَسُوله ، فَلَمَّا تقاصرت الأعمار وضعفت القوى رفع عَذَاب الاستئصال وَجعل عَذَابهمْ بأيدي الْمُؤمنِينَ ، فَكَانَت الْحِكْمَة فِي كل وَاحِد من الأمرين مَا اقتضته فِي وقته.

وَتَأمل حكمته تبَارك وَتَعَالَى فِي إِرْسَال الرُّسُل فِي الأمم وَاحِدًا بعد وَاحِد كلما مَاتَ وَاحِد خَلفه آخر لحاجتها إِلَى تتَابع الرُّسُل والأنبياء لضعف عقولها وَعدم اكتفائها بآثار شَرِيعَة الرَّسُول السَّابِق ، فَلَمَّا انْتَهَت النُّبُوَّة إِلَى مُحَمَّد بن عبد الله رَسُول الله وَنبيه أرسله إِلَى أكمل الأمم عقولاً ومعارفاً ، وأصحها أذهاناً ، وأغزرها علوماً ، وَبَعثه بأكمل شَرِيعَة ظَهرت فِي الأرض مُنْذُ قَامَت الدُّنْيَا إِلَى حِين مبعثه ، فلما أغنى الله الأمة - بِكَمَال رسولها وَكَمَال شَرِيعَته وَكَمَال عقولها وَصِحَّة أذهانها عَن رَسُول يَأْتِي بعده - أقَام لَهُ من أمته وَرَثَة يحفظون شَرِيعَته ، ووكلهم بهَا حَتَّى يؤدوها إِلَى نظرائهم ويزرعوها فِي قُلُوب أشباههم ، فَلم يحتاجوا مَعَه الى رسَوَّلَ آخر وَلَا نَبِي وَلَا مُحدث ، وَلِهَذَا قَالَ أنه :" قد كَانَ قبلكُمْ فِي الأمم محدثون ، فَإِن يكن فِي أمتي أحْد فعمر " ، فَجزم بِوُجُود الْمُحدثين فِي الأمم ، وعلّق وجوده فِي أمته بِحرف الشَّرْط ، وَلَيْسَ هَذَا بِنُقْصَان فِي الأمة على من قبلهم ، بل هَذَا من كَمَال أمته على من قبله ، فَإِنَّهَا لكمالها وَكَمَال نبيها وَكَمَال شَرِيعَته لَا تحْتَاج إِلَى مُحدث ، بل إِن وجد فَهُوَ صَالح للمتابعة والاستشهاد لَا انه عُمْدَة ؛ لأنها فِي غنية بِمَا بعث الله بِهِ نبيها عَن كل مَنَام أَوْ مكاشفة أَوْ إِلْهَام أَوْ تحديث وأما من قبلهَا فللحاجة إِلَى ذَلِك جعل فيهم المحدثون.

وَلَا تظن أن تَخْصِيص عمر رضي الله عَنهُ بِهَذَا تَفْضِيل لَهُ عَلى أَبِي بكر الصّديق ، بل هَذَا من أقوى مَنَاقِب الصّديق ؛ فَإِنَّهُ لكَمَال مشربه من حَوْض النُّبُوَّة وَتَمام رضاعه من ثدي الرسَالَة اسْتغنى بذلك عَمَّا تَلقاهُ من تحديث أو غيره ، فَالَّذِي يتلقاه من مشكاة النُّبُوَّة أتم من الَّذِي يتلقاه عمر من التحديث.

فَتَأمل هَذَا الْموضع ، وأعطه حَقه من الْمعرفَة ، وتأمل مَا فِيهِ من الْحِكْمَة الْبَالِغَة الشاهدة لله بأنه الْحَكِيم الْخَبِير ، وأن رَسُول الله أكمل خلقه وأكملهم شَرِيعَة ، وأن أمته أكمل الأمم ، وَهَذَا فصل معترض ، وَهُوَ أنفع فُصُول الْكتاب ، وَلَوْلَا الإطالة لوسعنا فِيهِ الْمقَال وأكثرنا فِيهِ من الشواهد والأمثال ، وَلَقَد فتح الله الْكَرِيم فِيهِ الْبَاب ، وأرشد فِيهِ إِلى الصَّوَاب ، وَهُوَ المرجو لتَمام نعْمَته، وَلَا قُوَّة الا بِاللَّه الْعلي الْعَظِيم " .

(1الشرع هو المعيار

المعايير تحكم بين الناس وتفصل بينهم ، فإذا ما اختلف شخصان في شيء ما رجعا إلى معيارٍ يحكم بينهما ، وإذا ما التبس عليك شيئان فأردت أن تفصل بينهم رجعت إلى معيارٍ يفصل بينهم.

وكذلك الأمر هنا ، فإن أعلم وأحكم وأعدل المعايير هو شرعُ الله سبحانه وتعالى ، فكل ما أمر به الله سبحانه وتعالى من الحدودِ وغيرها فهو الحقُ ، وهو العدلُ ، والله عز وجل لا يظلم الناس شيئاً ، فقطع يد السارق هو العدل ، والقصاص من القاتل هو العدل ، ورجم الزاني هو العدل ، وقتل المرتد هو الحق والعدل ، وهكذا.

ودائماً عليك أن تنظر للأمور في ضوء الشرع ، إذ أن لديك مُسلَّماتٍ مُتقدِّمة تنطلق منها ، فإذا تقرر ما تقدم من صفات الله وأسمائه كقدرته وحكمته وعلمه وعظمته فإنه لا يُشكِل عليك بعد ذلك شيء.

وعليك بدراسة الأشياء من خلال نصوص الشرع ، فمثلاً إذا ما تم ذكر الظلم بين الناس فكثيرٌ من الناس ينصرف ذهنه فقط إلى ظلم الناس والتعدي على حقوقهم ، في حين أنك لو درست الظلم في ضوء القرآن لتبينت لك أشياء كثيرة ، فالتعدي على حق الله أعظم الظلم ، وتأمل كيف يبين لنا القرآن ذلك :

- فأعظم الظلم الشرك بالله ، قال تعالى :" إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13 " (

- والجاحد بآيات الله ظالم، قال الله:" فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُون ".

- والمكذب بآيات الله ظالم " بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39 " (

- والكذب على الله ظلم من أظلم الظلم ، قال تعالى :" وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21 " (

- ودعاء غير الله ظلم ، قال تعالى :" وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (106" (

- والتشريع مع الله ظلم :" أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (21" (

- ومعصية الله من الظلم ، قال تعالى :" وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35" (

- واتباع الأهواء من الظلم ، " وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145" (

- **وموالاة اليهود قتلة الأنبياء والنصارى الذين كفروا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ظلم ، قال تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51" (**

فالمقياس هو الشرع ، إذ هو المقياس المنضبط الذي وضعه خالق الكون سبحانه وتعالى العليم الحكيم الرحيم ، قال تعالى :" وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) " ، فالحق والعدل هو ما حدده الشرع ، والظلم هو ما حدده الشرع ، وقِس على ذلك بقية الأمور.

2) ردٌ جامعٌ لجميع الشبهات

إذا عَلِمَ العبدُ أن الله سبحانه وتعالى قديرٌ عليم حكيم لم تزعزعه شبهةٌ بعد ذلك ، فمهما اشتدت رياح الشبهات فإن جذوره راسخة " أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) " ، فأي شبهةٍ أتت عليه دفعها بقوله :" الله حكيم ، الله عليم ، الله قدير " ، فلا تصمد ظُلمةُ شبهةٍ بعد ذلك أمام سطوع شمسه ، وجزاء هذا الثبات في الدنيا ثباتٌ في القبر ، قال تعالى :" يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ... (27) " ، فكما أن المؤمن كان ثابتاً على إيمانه في الدنيا فإن جزاءه على ذلك تثبيته في القبر ، فالجزاء من جنس العمل.

مما يترتب على معرفة اسم الله العليم والحكيم

ومما يترتب على معرفةِ هاذين الاسمين العظيمين:

1- **المسارعة إلى التسليم لأوامر الله سبحانه وتعالى ، فهي عن حكمةٍ بالغةٍ مُطلقة وعن علمٍ كامل ، وتأمل للآيات التي تحدثت عن الاستجابة لله والرسول ، فقد أمر الله بالاستجابة لله والرسول فقال :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) " ، وقال تعالى :" اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ... (48) " ، ثم تأمل جزاء من استجاب وجزاء من لم يستجب ، قال تعالى :" لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18." (**

2- **إذا ما طرأت عليك شُبهة أو حلَّت عليك مُصيبة فذكر نفسك بأن تقول :" الله حكيم ، الله عليم " ؛ فإن ذلك يكفيك ، فالمؤمن لا ينفك لسانه وقلبه عن استحضار أن الله عليم حكيم ، وكما قال ابن القيم في المدارج :" من عرف الله اتَّسع عليه كلُّ ضيقٍ " ، والله عز وجل أصدقُ قيلاً ، فإن أخبرك بشيءٍ فهو صِدقٌ حتى لو لم تعرف كيف ذلك ، فالذي عليك هو التسليم.**

3- **المعيار الحق - والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - هو معيار الشرع ، فلا تَقِس الأمور برأيك ونظرك البشري المحتمل لكثيرٍ من الخطأ ، بل انظر إليه بمعيار الشرع ، فما وصفه الشرع بأنه كذا فهو كذا ، فما وصفه الشرع بأنه ظُلم فهو ظُلم ، وما وصفه الشرع بأنه حق فهو حق ، وما وصفه الشرع بأنه باطل فهو باطل، وما كان جزاؤه كذا فهو كذا ؛ إذ أنه العدل المبين الذي لا مرية فيه.**

4- **ألا تعصي الله ، فالذي كان يغذيك ويرعاك في بطن أمك يراك ، فلو كان يراك في بطن أمك أيعجز عن أن يراك خارجها ؟! ، والعليم يرى ما في الضمائر ، فلا تجعله يرى في قلبك سواه ، ولا تجعله يرى في قلبك إلا خيراً.**

(4العظيم

" فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96) "
[سورة الواقعة]

" خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32)
إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) "
[سورة الحاقة]

قال بشر الحافي :" لو تفكر الناس في عظمةِ الله لما عصوه "

العظيم هو صاحب أعظم الحقوق ، ذو القدرةِ المطلقةِ سبحانه ، الذي له ملك السماوات والأرض ، " لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ."

بعض الناس قد يُعظِّمُ شخصاً ما لأنه يترأس بلداً ما ، أو أن مُلكَه عظيم ، أو أنه من الأغنياء ، أو كان له عددٌ كثيرٌ من الجند ، فما بالك بالله الذي له ملك السماوات والأرض ؟ ، وما بالك بالله الذي له جنود السماوات والأرض ، وما بالك بعظمة من كانت له تلك الأمور مُجتمعة ؟ بل وله الصفات الكاملة سبحانه ، وليس كمثله شيء.

وهو العظيم الذي يُرجَى ويُخشَى ويُخاف ، قال ابن القيم رحمه الله في كتابه التبيان :" من عَرَفَ اللهَ خافَهُ، ومن لم يعرفه لم يَخَفْه. فخشيته - تعالى - مقرونةٌ بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية."

هذا هو العظيم ، هذا هو أعرفُ المعارف ، لو جمعت كل شعورٍ وفكرةٍ وأسلوبٍ وثناء ، ومهما أنشاء البلغاء والأدباء ما قام ذلك مقام ما أخبر به عن نفسه " لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك " .

العظيم عظيمٌ شرعه ، وحق دينه التعظيم ، ومما يؤسف في عصرنا هذا أن كثيراً من الناس لا إشكال عنده عند الخلاف في أمور الدنيا ، فتجده مستعداً للدفاع عن ماله حتى ولو أدى الأمر إلى التحاكم إلى القضاء . ويرى أن من حقه أن يُخاصِم في ذلك ، وعندما يأتي الصراع بين الحق والباطل ويأتي وقت الدفاع عن الدين والشرع وحق الله تجده يقول :" لا تتشددوا ، لا داعي للخلاف ، لا داعي للفتنة " ، سبحان الله ! يهونون من شأن الشيء الذي حقه التعظيم ، ويعظمون ما حقه التحقير ! هان عندهم الدين وعظُمَت عندهم الدنيا ، بدلاً من أن يصير دين الله هو الذي يستحق الجهاد والتعظيم صار الناس يتساهلون فيه ويقللون من شأنه ، بل ويرون درء الباطل بالحق تشدداً ! ، فعظَّموا الدنيا ولم يُعظِّموا الدين ، فصار عندهم ما يستحق التعظيم ليس بعظيم ، وما لا يستحق التعظيم عظيم ، " بل تؤثرون الحيوة الدنيا ".

والحاصل أن من عرف عظمة الله عظَّم شعائره ، قال تعالى :" ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) " ، ومن عرف عظمة الله عظَّم نهيه :" ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ... (30. " (

وكما أن الله عز وجل عظيم ، فكذلك حقوقه هي أعظم الحقوق ، والاعتداء على حقه سبحانه وتعالى أقبح وأعظم الاعتداءات وأظلمها ، واليوم صار الناس يعظمون حقوق الإنسان ، ويتناسون حقوق الرحمن ، ولو تعدى أحدٌ على حقك أو أهلك أو أصدقائك لما رضيت ، فكيف يرضى الناس بالاعتداء على حق الله تعالى ؟! ، ماتت القلوب ، وصارت الأجسادُ قبوراً لها.

*ذكر الله أهم القضايا

" أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) "
[سورة الرعد]

فإذا علمت أن العظيم هو الله سبحانه وتعالى علمت أن التقرب إليه وعبادته أعظم شيء في هذه الدنيا ، ومن أعظم ما تتقرب به إلى العظيم سبحانه أن تذكره ، بل وتُكثِرَ من ذِكره.

ومن عَرِفَ الله عز وجل بأسمائه وصفاته أحبه وأدمن ذكره ، فكلما كان القلب ممتلئاً بمحبة الله ودوام حضوره في القلب كان ذكرُ اللسان أكثر ، فالإنسان يُكثِرُ ذكر ما ملأ قلبه ، فاللسان تُرجمانُ القلبِ ، وكُلُّ إناءٍ بما فيه ينضح ، فالعبد الذي يُداوم على ذكر الله سبحانه وتعالى وتذكُّر أسمائه وصفاته تجده مطمئناً ؛ إذ أنه دائم الاستحضار ، يستحضر أن الله رحيم وقدير وحكيم وعليم ، فإذا نزلت به مصيبة تذكر أن الله سبحانه رحيمٌ بعباده ، وأنه سبحانه قديرٌ على رفع هذه المصيبة بل قديرٌ على كل شيء ، وهو حكيم فلا يفعل شيئاً عبثاً ، وهو عليم بما يفعل سبحانه ، فيطمئن قلبُ العبد.ِ

والذكر هو السبب الواصل بين المؤمنين وعلام الغيوب ، به تهون عليهم المصائب ، إذا أظلهم البلاء فإليه ملجأهم ، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم ، فلا شيء أنفع للقلب من ذكر الله .

ذكرُ الله دواء القلوب بها تُستدفعُ النقم ، وتُجلبُ النعم ، وتُنالُ أعلى الدرجات ، فهو حياةُ الروحِ وروحُ الحياة ، شكى رجلٌ إلى الحسنِ البصري قسوة قلبه فقال له :" أذبه بذكر الله. "

وإن من أعظم ما تحيا وتسعد به الروح ذكر خالقها سبحانه وتعالى ، ومتى فارق الذكرُ القلوبُ صارت الأجسادُ قبوراً لتلك القلوب ، " مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّت. "ِ

قال ابن القيم:" والذكرُ هو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته."

روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، فَقَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالُوا : يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَتَصَدَّقُ ، وَيُعْتِقُونَ وَلاَ نُعْتِقُ ، فَقَالَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" أَفَلاَ أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ ؟ وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ " ، قَالُوا : بَلَى ، يَا رَسُولُ اللهِ ، قَالَ :" تُسَبِّحُونَ ، وَتُكَبِّرُونَ ، وَتَحْمَدُونَ ، دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ مَرَّة."ٍ

قال أبوبكرٍ رضي الله عنه :" ذهب الذاكرون بالخير كله."

وروى الترمذي عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ»؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى «

وقال عبيد بن عمير رحمه الله :" إن أعظمكم هذا الليل أن تكابدوه ، وبخلتم بالمال أن تنفقوه ، وجبنتم عن العدو أن تقاتلوه فأكثروا من ذكر الله ".

وقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: «مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّه.«

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الله في كل أحيانه ، قائماً أو قاعداً أو على جنبه ، طاهراً أم على حدث.

وانظر إلى حال السلف في إكثار ذكر الله، فمن العجائب مثلاً ما رواه ابن رجب رحمه الله أن خالد بن معدان كان يسبح كل يوم 40 ألف تسبيحة غير قراءته للقرآن ، " فلما مات وُضِع على سريره ليغسل ، فجعل يشير بأصابعه إلى التسبيح " ، أي صارت يده كأنها تسبح.

ونام بعضهم عند إبراهيم بن أدهم قال :" فكنت كلما استيقظت من الليل وجدته يذكر الله ، فاغتم ، ثم أعزي نفسي بقوله تعالى :" ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ... (21) ".

وقيل لمحمد بن النضر:" أما تستوحش وحدك ؟! " ، قال :" كيف استوحش والله يذكر من ذكره " ، أَنِسَ بذكر الله ، بل قال بعضهم :" عجبتُ للخليقة كيف أَنِسَتْ بسواك." !

كلما قويت المعرفة بالله صار الذكرُ يجري على اللسان من غير كلفة ، حتى روي أن بعضهم من كثرةِ ذكره لله كان يتكلم في نومه يذكر الله ، وقد ورد أن أهل الجنة يُلهَمون التسبيح كما يُلهَمون النفس ، فكما أنك لا تفكر في تنفسك ، بل تتنفس تلقائياً ، فحالهم كذلك.

فإذا ذكر العبد ربه بلسانه ، وعقل قلبه عن الله ورسوله ، ونشطت الجوارح بالعمل الصالح صار البدنُ كله ذاكراً لله.

ذكر باللسان ، وذكرٌ بالجنان – من التذكُّر كما في قول الله تعالى :" اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم " أي تذكروها – فإن من معاني الذكر استحضار الشيء في الذهن ، وقيل إنما سُمِّي ذكر اللسان ذكراً لأنه تُرجمانٌ لذكر القلب ، فالذكر مُرادٌ لحضور القلب ، فإن ذكر اللسان دلالة على استحضار القلب لله سبحانه وتعالى ، " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا."

يقول لنا النبي صلى الله عليه وسلم مبيناً لنا عظمة الذكر وفضله :" الحمدلله تملأ الميزان " ، بالله إذا قيل لك أن لك خزينة أموال ، وأن الأموال التي فيه تزيد كلما ذكرت الله ، هل كنت ستتوقف ؟ ، لا أبداً ، فما بالك تزهد في الأجر الأُخروي ؟! ، والله لو أننا ذهبنا إلى الآخرة لثوانٍ ثُم عدنا إلى الدنيا لتغيرت مفاهيمنا عن هذه الحياة الدنيا ، فلو ذهبت إلى هناك ثم عُدت وسئلت :" أتريد مالاً أم أجراً " لقلت :" أُريد أجراً ، فإن ما رأيته قد أنساني الأموال. "

ورغم أن الذكر عملٌ سهلٌ يسير لا جهد فيه إلا أنك تجد أن كثيراً من الناس في غفلة عنه ؛ لتعلم أن الأمر توفيقٌ من الله.

جاء عن عمرو مولى غفرة أنه قال :" إذا انكشف الغطاء [للناس] يوم القيامة عن ثواب أعمالهم لم يروا عملاً أفضل ثواباً من الذكر، فيتحسر عند ذلك أقوام فيقولون: ما كان شيء أيسر علينا من الذكر"

يقول ابن القيم رحمه الله في الجواب الكافي:" وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله عز و جل وما اتصل به. "

فعلى العبد أن يذكر الله تعالى كثيراً " وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ " ، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء بأنهم " المُفَرِّدون " أي الذين انفردوا بهذا العمل عن الآخرين فسبقوهم ، فقال صلى الله عليه وسلم:" سبق المفردون " ، وقال مجاهد :" لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله قائماً وقاعداً وعلى جنبه " ، وقد ذكر بعض أهل العلم أن من واظب على أذكار الصباح والمساء وأذكار الصلوات فهو من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

يقول كعبٌ بن مالك :" من أكثر من ذكر الله برئ من النفاق " ، فالله عز وجل يقول عن المنافقين :" وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) " ، ويقول ابن رجب رحمه الله :" ولهذا خُتِمت سورة المنافقون بالأمر بذكر الله " ، قال تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9." (

والذكر هو وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كثرت عليه شرائع الإسلام ، " أَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا، فَبَابٌ نَتَمَسَّكُ بِهِ جَامِعٌ؟ قَالَ: لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " رواه الترمذي ، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بأمرٍ جامع وهو ذكر الله.

ذكر الله تعالى هو العبادة التي لا كلفة فيها ، وليست مقيدة بزمن ، فاغتنمها في كل أحيانك.

ومن تأمل الأذكار وجد فيها المعاني العظيمة التي تسمو بالعبد ، والتي بها تحصل سعادته ويطمئن قلبه ، وتأمل كيف جُمِعت أصول السعادة في الدعاء الذي علمه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " اللهمَّ إني عبدُك ، و ابنُ عبدِك ، و ابنُ أَمَتِك ، ناصيتي بيدِك ، ماضٍ فيَّ حكمُك ، عدلٌ فيَّ قضاؤُك ، أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك سميتَ به نفسَك ، أو علَّمتَه أحدًا من خلقِك ، أو أنزلتَه في كتابِك ، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندَك ، أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي ، و نورَ صدري ، و جلاءَ حزني ، و ذَهابَ همِّي " ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم أن من قال هذا الدعاء :" أذهبَ اللهُ همَّهُ و حزنَه ، و أبدلَه مكانَه فرجًا " ، فقيل له :" يا رسولَ اللهِ ، ألا نتعلَّمُها ؟ " ، فقال :" بلى ، ينبغي لمن سمعَها أن يتعلَّمَها " ، فهذا الدعاء جمع أصول السعادة الأربعة ، فالأصل الأول هو تحقيق العبودية " اللهمّ إنّي عبدك " ، والأصل الثاني هو الإيمان بالقضاء والقدر " ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك " ونِعمَ بلسم الجراح الإيمان بالقضاء والقدر ، والأصل الثالث معرفة أسماء الله وصفاته " أسألك بكلّ اسم هو لك " ، والأصل الرابع هو القرآن الكريم " أن تجعل القرآن ربيع قلبي " ، فتأمل كيف أن السعادة مرتبطة بمعرفة الله وتحقيق العبودية له والتعلق بالآخرة ، وفي ذلك السعادة لا في سواه.

*مواردك المُهدرة

تخيل معي أنك صاحبٌ مصنع ضخمٍ كبير ، وأن مصنعك هذا فيه خمس ماكينات ضخمة جاهزة للعمل ، وكل ما تحتاجه هذه الماكينات للعمل من موادٍ خام وغيرها متوفر ، والطلب على منتجك عالٍ جداً ، فما الذي ستفعله في هذه الحالة ؟ ، مؤكد أنك ستقوم بتشغيل المصنع بطاقته التشغيلية القصوى ، وأنك ستقوم بتشغيل جميع هذه الماكينات لزيادة الإنتاجية واستغلال الموارد أمثل استغلال ، أليس ذلك صحيح ؟.

هل تعلم – ومع الأسف – أنك تملك مثل هذا المصنع لكنك تُهدِر مواردك ؟ ، أهم موردٍ لديك تقوم بإهداره هو لسانك ، هذا اللسان قادرٌ على ذكر الله تعالى والحصول على الأجور الكثيرة ، ولكن بعد كل هذا قليلٌ من يُشغِّل هذا اللسان في ذكر الله ، " لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114." (

يقول ابن حزم رحمه الله في كتابه التلخيص :" أكثروا من قول :" لا إله إلا الله " ؛ فإنها ألفاظٌ تتم بحركة اللسان دون حركة الشفتين ، فلا يشعر بذلك الجليس."

وذكر الله عز وجل أفضل من الصمت ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " ، فقول الخير مُقدمٌ على الصمت ، وإذا كان الصمت من فضة فقول الخير من ذهب ، فاجعل وقتك إعماراً لآخرتك ، ولا تهدره في سفاسف الأمور وما لا منفعة فيه ، فالوقت أثمن كنز ، وذكر الله أعظم عمل ، واعلم أن وقت فراغك نعمة مغبون فيها كثيرٌ من الناس.

(5الواحد الأحد وفضل التوحيد

" وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ... (52) "
[سورة إبراهيم]

" ولا حسنة أعظم من التوحيد "
]ابن حجر[

أعظم حقٍ لله عز وجل على عباده هو توحيده سبحانه ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ، " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4) " ، فالله عز وجل أحدٌ ، فردٌ صمد ، لا والد له ، إذ لو كان له والدٌ أو كان له ولد لكان هناك أكثر من آلهة ، والله عز وجل لا إله غيره ، ولو كان له زوجة لكان معه شريك ، والله عز وجل لا شريك له ، فالله عز وجل مُنزَّهٌ عن ذلك كله، ولا يحتاج إلى أحدٍ سبحانه وتعالى.

وتأمل معي عظيم جزاء أهل التوحيد وفضلهم ، إذ هم الآمنون يوم الفزع:

يقول تعالى :" مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90) " ، يقول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما كما في تفسير القرطبي قالا :" الحسنة : لا إله إلا الله " ، " وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ " يقول ابن كثير :" يعني الشرك. "

وقال تعالى :" وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) " ، قال القرطبي :" (فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ) أَيْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ: الْمُوَحِّدُ أَمِ الْمُشْرِكُ، فَقَالَ اللَّهُ قَاضِيًا بَيْنَهُمْ: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يلبسوا إيمانهم بظلم) أي بشرك ".

وقال ابن عاشور :" " الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) " هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ حِكَايَةِ كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ فَيَكُونُ جَوَابًا مِنْهُ عَنْ قَوْلِهِ: " فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ". تَوَلَّى جَوَابَ اسْتِفْهَامِهِ بِنَفْسِهِ وَلَمْ يَنْتَظِرْ جَوَابَهُمْ لِكَوْنِ الْجَوَابِ مِمَّا لَا يَسَعُ الْمَسْئُولَ إِلَّا أَنْ يُجِيبَ بِمِثْلِهِ، وَهُوَ تَبْكِيتٌ لَهُمْ " .

إلى أن قال رحمه الله :" وَالظُّلْمُ: الِاعْتِدَاءُ عَلَى حَقِّ صَاحِبِ حَقٍّ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا إِشْرَاكُ غَيْرِ اللَّهِ مَعَ اللَّهِ فِي اعْتِقَادِ الْإِلَهِيَّةِ وَفِي الْعِبَادَةِ، قَالَ تَعَالَى:" إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " ؛ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ الِاعْتِدَاءِ، إِذْ هُوَ اعْتِدَاءٌ عَلَى الْمُسْتَحِقِّ الْمُطْلَقِ الْعَظِيمِ، لِأَنَّ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ اعْتِقَادًا وَعَمَلًا وَقَوْلًا ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ حَقُّهُ عَلَى مَخْلُوقَاتِهِ."ِ

وقال تعالى :" إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) " ، قال الطبري :" يقول تعالى ذكره: "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ"

وحده لا شريك له، ويرثوا من الآلهة والأنداد، " ثُمَّ اسْتَقَامُوا " على توحيد الله ، ولم يخلطوا توحيد الله بشرك غيره به ، وانتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهى ، سئل أبوبكرٍ الصديق رضي الله عنه عن الاستقامة فقال :" ألا تشرك بالله شيئاً " ، فهؤلاء تتنزل عليهم الملائكة في سكرات الموت مبشرةً لهم وتقول لهم :" لا تحزنوا " أي من الموت وما بعده ، " ولا تحزنوا " على ما تركتم وراءكم من الدنيا من الأهل والأولاد ، والفرق بين الخوف والحزن أن الخوف يكون من أمرٍ مستقبلي قادم ، والحزن يكون من أمرٍ سابقٍ ماضٍ ؛ إذ لا أحد يقول :" أنا خائف من الأمس " ، ولا يُقال :" أنا حزين على يومٍ غداً " ، وإنما يُقال العكس .

وقال الله تعالى :" يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) " ، جاء في تفسير الطبري قال ابن زيد :" سليم من الشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد " ، وجاء في تفسير ابن كثير قال أبو عثمان النيسابوري :" هُوَ الْقَلْبُ الْخَالِي مِنَ الْبِدْعَةِ، الْمُطْمَئِنُّ إِلَى السُّنَّةِ ".

قال القرطبي :" وخُصّ القلب بالذكر لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح ، وإذا فسد فسدت الجوارح."

وقد شهد الله عز وجل لإمام الموحدين إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال :" وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84." (

وقال تعالى :" فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ " ، قال ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى :" فالتوحيد يُذهِبُ أصل الشرك ، والاستغفار يُذهِبُ فروعه " ، فذكر التوحيد ثم الاستغفار ، فكل العلم والعمل للتوحيد كالفرع ، فإن جئت لله بالأصل غفر الفروع إن شاء.

قال البغوي :" " وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ " أُمِرَ بِالِاسْتِغْفَارِ مَعَ أَنَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ لِتَسْتَنَّ بِهِ أمته " ، إلى أن قال رحمه الله :" " وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ " هَذَا إِكْرَامٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ حَيْثُ أَمَرَ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِذُنُوبِهِمْ."۰

فكلمة التوحيد أعظم كلمة ، وعلى قدر تحقيق العبد لهذه الكلمة يكونُ أَمْنُه يوم القيامة ، فمن حققها تحقيقاً كاملاً دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ولذلك بوَّب الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب) ، وجاء في الحديث الذي عند مسلم :" يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب."

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه:" فإن الله قد حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله " ، فبقدرِ تحقيق العبد لهذه الكلمة يكون تحريمه على النار ، فمن حققها تحقيقاً كاملاً حُرِّم على النار مُطلقاً فلا يدخلها ، ومن حققها مع نقصٍ فيها فإنه لا يخلد فيها ، بل تحرم عليه بعد أمد ، ذكر ذلك صالح آل الشيخ في التمهيد لشرح كتاب التوحيد.

قال ابن القيم رحمه الله :" اعْلَمْ أَنَّ أَشِعَّةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُبَدِّدُ مِنْ ضَبَابِ الذُّنُوبِ وَغُيُومِهَا بِقَدْرِ قُوَّةِ ذَلِكَ الشُّعَاعِ وَضَعْفِهِ، فَلَهَا نُورٌ، وَتَفَاوُتُ أَهْلِهَا فِي ذَلِكَ النُّورِ - قُوَّةً، وَضَعْفًا - لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

*فَمِنَ النَّاسِ مَنْ نُورُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي قَلْبِهِ كَالشَّمْسِ.

*وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهَا فِي قَلْبِهِ كَالْكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ.

*وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهَا فِي قَلْبِهِ كَالْمَشْعَلِ الْعَظِيمِ.
*وَآخَرُ كَالسِّرَاجِ الْمُضِيءِ، وَآخَرُ كَالسِّرَاجِ الضَّعِيفِ.
وَلِهَذَا تَظْهَرُ الْأَنْوَارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَيْمَانِهِمْ، وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ، عَلَى هَذَا الْمِقْدَارِ، بِحَسَبِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ نُورِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، عِلْمًا وَعَمَلًا، وَمَعْرِفَةً وَحَالًا.
وَكُلَّمَا عَظُمَ نُورُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَاشْتَدَّ أَحْرَقَ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ بِحَسَبِ قُوَّتِهِ وَشِدَّتِهِ، حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا وَصَلَ إِلَى حَالٍ لَا يُصَادِفُ مَعَهَا شُبْهَةً وَلَا شَهْوَةً، وَلَا ذَنْبًا، إِلَّا أَحْرَقَهُ، وَهَذَا حَالُ الصَّادِقِ فِي تَوْحِيدِهِ، الَّذِي لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، فَأَيُّ ذَنْبٍ أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ شُبْهَةٍ دَنَتْ مِنْ هَذَا النُّورِ أَحْرَقَهَا، فَسَمَاءُ إِيمَانِهِ قَدْ حُرِسَتْ بِالنُّجُومِ ".

إلى أن قال رحمه الله :" فَإِنَّ الْأَعْمَالَ لَا تَتَفَاضَلُ بِصُوَرِهَا وَعَدَدِهَا، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ، فَتَكُونُ صُورَةُ الْعَمَلَيْنِ وَاحِدَةً، وَبَيْنَهُمَا فِي التَّفَاضُلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالرَّجُلَانِ يَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا، وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

وَتَأَمَّلْ حَدِيثَ الْبِطَاقَةِ الَّتِي تُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، وَيُقَابِلُهَا تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مَدُّ الْبَصَرِ، فَتَثْقُلُ الْبِطَاقَةُ وَتَطِيشُ السِّجِلَّاتُ، فَلَا يُعَذَّبُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مُوَحِّدٍ لَهُ مِثْلُ هَذِهِ الْبِطَاقَةِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَدْخُلُ النَّارَ بِذُنُوبِهِ، وَلَكِنَّ السِّرَّ الَّذِي ثَقَّلَ بِطَاقَةَ ذَلِكَ الرَّجُلِ، وَطَاشَتْ لِأَجْلِهِ السِّجِلَّاتُ لَمَّا لَمْ يَحْصُلْ لِغَيْرِهِ مِنْ أَرْبَابِ الْبِطَاقَاتِ، انْفَرَدَتْ بِطَاقَتُهُ بِالثِّقَلِ وَالرَّزَانَةِ.

وَإِذَا أَرَدْتَ زِيَادَةَ الْإِيضَاحِ لِهَذَا الْمَعْنَى، فَانْظُرْ إِلَى ذِكْرِ مَنْ قَلْبُهُ مَلْآنٌ بِمَحَبَّتِكَ، وَذِكْرِ مَنْ هُوَ مُعْرِضٌ عَنْكَ غَافِلٌ سَاهٍ، مَشْغُولٌ بِغَيْرِكَ، قَدِ انْجَذَبَتْ دَوَاعِي قَلْبِهِ إِلَى مَحَبَّةِ غَيْرِكَ، وَإِيثَارِهِ عَلَيْكَ، هَلْ يَكُونُ ذِكْرُهُمَا وَاحِدًا؟ أَمْ هَلْ يَكُونُ وَلَدَاكَ اللَّذَانِ هُمَا بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ، أَوْ عَبْدَاكَ، أَوْ زَوْجَتَاكَ، عِنْدَكَ سَوَاءً؟
وَتَأَمَّلْ مَا قَامَ بِقَلْبِ قَاتِلِ الْمِائَةِ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ الَّتِي لَمْ تَشْغَلْهُ عِنْدَ السِّيَاقِ عَنِ السَّيْرِ إِلَى الْقَرْيَةِ، وَحَمَلَتْهُ - وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ - عَلَى أَنْ جَعَلَ يَنُوءُ بِصَدْرِهِ، وَيُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، فَهَذَا أَمْرٌ آخَرُ، وَإِيمَانٌ آخَرُ، وَلَا جَرَمَ أَنْ أُلْحِقَ بِالْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ، وَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا.

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا مَا قَامَ بِقَلْبِ الْبَغِيِّ الَّتِي رَأَتْ ذَلِكَ الْكَلْبَ - وَقَدِ اشْتَدَّ بِهِ الْعَطَشُ يَأْكُلُ الثَّرَى - فَقَامَ بِقَلْبِهَا ذَلِكَ الْوَقْتَ - مَعَ عَدَمِ الْآلَةِ، وَعَدَمِ الْمُعِينِ وَعَدَمِ مَنْ تُرَائِيهِ بِعَمَلِهَا - مَا حَمَلَهَا عَلَى أَنْ غَرَّرَتْ بِنَفْسِهَا فِي نُزُولِ الْبِئْرِ، وَمَلْءِ الْمَاءِ فِي خُفِّهَا، وَلَمْ تَعْبَأْ بِتَعَرُّضِهَا لِلتَّلَفِ، وَحَمْلِهَا خُفَّهَا بِفِيهَا، وَهُوَ مَلْآنٌ، حَتَّى أَمْكَنَهَا الرُّقِيُّ مِنَ الْبِئْرِ، ثُمَّ تَوَاضُعُهَا لِهَذَا الْمَخْلُوقِ الَّذِي جَرَتْ عَادَةُ النَّاسِ بِضَرْبِهِ، فَأَمْسَكَتْ لَهُ الْخُفَّ بِيَدِهَا حَتَّى شَرِبَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرْجُوَ مِنْهُ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، فَأَحْرَقَتْ أَنْوَارُ هَذَا الْقَدْرِ مِنَ التَّوْحِيدِ مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا مِنَ الْبِغَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا.

فَهَكَذَا الْأَعْمَالُ وَالْعُمَّالُ عِنْدَ اللَّهِ، وَالْغَافِلُ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا الْإِكْسِيرِ الْكِيمَاوِيِّ، الَّذِي إِذَا وُضِعَ مِنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ عَلَى قَنَاطِيرَ مِنْ نُحَاسِ الْأَعْمَالِ قَلَبَهَا ذَهَبًا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ. " ، انتهى من مدارج السالكين.

وقال تلميذه ابن رجب رحمه الله :" فَإِذَا تَحَقَّقَ الْقَلْبُ بِالتَّوْحِيدِ التَّامِّ، لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَحَبَّةٌ لِغَيْرِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَلَا كَرَاهَةٌ لِغَيْرِ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، لَمْ تَنْبَعِثْ جَوَارِحُهُ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا تَنْشَأُ الذُّنُوبُ مِنْ مَحَبَّةِ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ، أَوْ كَرَاهَةِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَذَلِكَ يَنْشَأُ مِنْ تَقْدِيمِ هَوَى النَّفْسِ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ، وَذَلِكَ يَقْدَحُ فِي كَمَالِ التَّوْحِيدِ الْوَاجِبِ ".

وقال رحمه الله :" السَّبَبُ الثَّالِثُ مِنْ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ: التَّوْحِيدُ، وَهُوَ السَّبَبُ الْأَعْظَمُ، فَمَنْ فَقَدَهُ فَقَدَ الْمَغْفِرَةَ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَقَدْ أَتَى بِأَعْظَمِ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} ".

إلى أن قال :" قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُوَحِّدُ لَا يُلْقَى فِي النَّارِ كَمَا يُلْقَى الْكُفَّارُ، وَلَا يَلْقَى فِيهَا مَا يَلْقَى الْكُفَّارُ، وَلَا يَبْقَى فِيهَا كَمَا يَبْقَى الْكُفَّارُ، فَإِنْ كَمُلَ تَوْحِيدُ الْعَبْدِ وَإِخْلَاصُهُ لِلَّهِ فِيهِ، وَقَامَ بِشُرُوطِهِ كُلِّهَا بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ، أَوْ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ عِنْدَ الْمَوْتِ، أَوْجَبَ ذَلِكَ مَغْفِرَةَ مَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا، وَمَنَعَهُ مِنْ دُخُولِ النَّارِ بِالْكُلِّيَّةِ. فَمَنْ تَحَقَّقَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ قَلْبُهُ، أَخْرَجَتْ مِنْهُ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا وَمَهَابَةً، وَخَشْيَةً، وَرَجَاءً وَتَوَكُّلًا، وَحِينَئِذٍ تُحْرَقُ ذُنُوبُهُ وَخَطَايَاهُ كُلُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ، وَرُبَّمَا قَلَبَتْهَا حَسَنَاتٍ، كَمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي تَبْدِيلِ السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ، فَإِنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ هُوَ الْإِكْسِيرُ الْأَعْظَمُ، فَلَوْ وُضِعَ مِنْهُ ذَرَّةً عَلَى جِبَالِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، لَقَلَبَهَا حَسَنَاتٍ " انتهى كلامه رحمه الله من كتابه جامع العلوم والحكم .

واعلم أن لشهادة لا إله إلا الله شروطاً ، وهي سبعة ، جمعها الحكمي في قوله:

وبشروط سبعةٍ قد قُيِّدت	*	وفي نصوص الوحي حقاً وردت
فإنه لم ينتفع قائلها	*	بالنطق إلا حيث يستكملها
العلم واليقين والقبول	*	والانقياد فادرِ ما أقول
الصدق والإخلاص والمحبة	*	وفقك الله لما أحبه

وكذلك شهادة أن محمداً رسول الله لها لوازم وتبعات ، أهمها:

1- تصديقه في ما أخبر.
2- وطاعته في ما أمر.
3- واجتناب ما نهى عنه و زجر.
4- وألا يعبد الله إلا بما شرع.
5- وألا يُغلى فيه.

وخلاصة الفصل أن السعادة وحُسن الخاتمة في التوحيد والسنة ، والشقاوة وسوء الخاتمة في الشرك والبدعة ، قال تعالى :" فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ ... (106) " ، " وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ ... (108 ." (

يقول ابن القيم رحمه الله :" ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم، وكذلك أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه " انتهى من كتاب التفسير القيم.

6) الملك

" فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ... (114) "
[سورة طه]

" تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ... (1) "
[سورة الملك]

" مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) "
[سورة الفاتحة]

" أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... (107) "
[سورة البقرة]

" قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ... (26) "
[سورة آل عمران]

كم مضى من الملوك وبقي الملك الحق ، الله عز وجل هو الملك المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها من غير ممانعة ولا مدافعة.

ومن تمام ملكه سبحانه وتعالى أن يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويفعل ما يشاء ، وكل ذلك بمقتضى حكمته سبحانه وتعالى ، فأفعال الله سبحانه وتعالى بين العدل والفضل ، " ولا يظلم ربك أحدا. "

يقول النبي صلى الله عليه وسلم كما في البخاري :" أَخْنَعُ الأَسْمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلاَك."

وبعد زوال الدنيا وما فيها من الملوك والممالك يُحشر الناس حفاة عراة ، وحينئذ يعلمون أن الملك لله وحده ، " يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار."

ولو قيل لك أن ملك بلدتك سيأتي ماراً ببيتك ليلاً ، وإذا ما أردت شيئاً فعليك أن تنتظره عند الباب ، فهل كنت ستنام ليلتك ؟ ، لن تنام ، فلماذا تنام وتقضي كل ليلك نوماً وقد أُخبِرت أن الله عز وجل الملك ينزل كل ليلة في الثلث الأخير ويقول :" هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ " حتى يطلع الفجر ، الله يتفضل على الناس بهذا الفضل وهم نائمون ! وبعضهم ينام حتى عن فريضة الفجر ، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فقم ليلك ، وانطرح بين يدي ربك الملك سبحانه ، وتذلل له ، ووالله إن التذلل لله هو أعظم عز ، والانطراح بين يديه أعظم رِفعة ، ولكن الناس قد انشغلت بالمقاييس الدنيوية إلا من رحم ربي.

(7الغني

" وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ... (133) "
[سورة الأنعام]

" سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ... (68) "
]سورة يونس[

"يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (15(
إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ (16(
وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ (17" (
]سورة فاطر[

" يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا
يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ
يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ
يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ
يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ
يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي
يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ
مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا
يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ
مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا
يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ
مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ "
[صحيح مسلم]

الغني الذي لا يحتاج إلى أحد ، الغني ذو العطايا التي لا تنتهي والخزائن التي لا تنفد ، البشرُ مهما بلغ غنى أحدهم فإنه يحتاج إلى غيره ، فالطبيب يحتاج للمهندس ، والمهندس يحتاج للمزارع ، وهكذا ، أما الله سبحانه وتعالى فغنيٌ لا يحتاج إلى أحد .

الغني الذي لا يفتقر إلى شيء ، ويفتقر إليه كل شيء ، والعبد مهما بلغ غناه فهو فقيرٌ إلى الله ، والعبد في فقره عليه أن يكون غنياً بالله .

وابن آدم عندما يغنى يصيبه الكبر إلا من رحم الله ، أما الله سبحانه وتعالى فهو " الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ... (133. " (

والله عز وجل الغني خزائنه لا تنفد فعليك أن تسأله كل شيء وكل ما تريد ، فاسأل الله بقلبٍ ممتلئ باليقين ، لا تقل :" أنا أريد فقط كذا " ، بل اطلب الكل ، كما في الدعاء " اللهم إنا نسألك من الخير كله ، ونعوذ بك من الشر كله " ، فالله يحب أن تسأله ، وابن آدم حين يُسأل يغضب.

والله الغني فلا تتعلق بغيره ، ولا تطلب سواه ، فالبشر ضعفاء فقراء ، والله قوي غني.

والغني سبحانه لو كانت الدنيا تعدل عنده جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء ، ولذلك لما كانت الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة رأينا الكفار يتمتعون في هذه الدنيا ، فليست الدنيا بالمقياس.

وإذا ما علمت أن الله غني لم تعصه ؛ لأنك تحتاجه وهو لا يحتاجك ، لا تصلي سريعاً فصلاتك لنفسك ، الله عز وجل لا تنفعه طاعتك ، ولن تضره معصيتك ، إنما هو لك ، لا تتصدق بالبالي من الثياب والممتلكات ، فهذه الصدقة لنفسك ، فقدِّم لنفسك خيراً ولا تبخل على نفسك .

(8الرزاق

" إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ... (58) "
[سورة الذاريات]

" اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ... (19) "
[سورة الشورى]

قال الخطابي رحمه الله تعالى: "هو المتكفل بالرزق ، القائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها، وسع الخلق كلهم رزقه ورحمته."

الرزاق صيغةُ مبالغة تدلُّ على كثرة الإرزاق منه سبحانه وتعالى ، فهو يسوق الرزق لعباده رزقاً بعد رزقٍ

الله الرزاق ذو العطاء المتجدد الذي يسوق لكل دابة قوتها في أي مكان كانت، في ظلمات البحر، وفي جوف الأرض والصخر، وفي العالم العلوي أو السفلي، ليس ذلك فقط بل إنه ساق إلى كل عضوٍ - صغير أو كبير - ما يحتاجه من القوت ، وهو الذي يرزق قلوب أوليائه بالعلم والإيمان ، إذ العلم والإيمان من أعظم الأرزاق ، فعلى العبد ألا يبتغي الرزق إلا من ربه، وعليه بتقوى الله وطاعته، والتمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، لأن ذلك من أسباب الرزق.

وقد ضمن الله عز وجل أرزاق العباد ، وسيؤديه كما وعد ، ودورهم فقط أن يعبدوه ولا يشركوا به أحد.

والله سبحانه وتعالى يرزق كل مخلوقٍ ما يُصلِحه وما يصلح له ، فهناك حيوانات لا تأكل إلا اللحم فسخَّر الله لها اللحم ، وأخرى لا تأكل إلا النبات فسخَّر لها النبات ، وهكذا.

وتأمل الحوت الذي في البحر كيف أن طعامه بالأطنان والله يرزقه كل يوم ، فإذا كان الله عز وجل يرزق هذ الحوت وهو يأكل بالأطنان ألا يرزقك رغيف خبزٍ يسير ؟. !

قال تعالى :{وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ} ، قال ابن كثير -رحمه الله-: «أي : لا تطيق جمعه ولا تحصيله، ولا تدخر شيئًا لغد، {اللَّهُ يَرْزُقُهَا}، أي: يقيض لها رزقها- على ضعفها- وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء، والحيتان في الماء»، يرزق الثعبان في جحره، والطير في وكره، والسمك في بحره.

يرزق الكل، وكل ذلك بلا ثقل ولا كلفة ولا مشقة ولا نقص في ملكه، قال الطحاوي -رحمه الله-: «رازق بلا مؤنة»، وقال -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه -عز وجل-: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ».

والرزق - كما تقدم - ليس محصوراً في الطعام والشراب ، بل كل ما ينتفع به يسمى رزقاً ، فالعلم النافع رزق ، والإيمان رزق ، والإسلام رزق ، والزوجة الصالحة رزق ، والأبناء الصالحون رزق ، وأصدقاء الخير رزق ، والسكن والمأوى رزقٌ من الله تعالى ، والأموال رزقٌ من الله تعالى ، والصحة في الأبدان رزقٌ من الله تعالى وهكذا .

والزرق نوعان:

1- النوع الأول – وهو شامل لكل مخلوق – هو رزق الأبدان.
2- الرزق الثاني – وهو رزقٌ خاص – هو رزق العلم والهداية والإيمان.

قال تعالى :" كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ " ، والرزق الأعظم من ذلك " وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21) ".

فالرزق الخاص هو الذي تحصل به السعادة في الدارين ، أما الرزق العام فإنه منقطع ، ومن تأمل لرزق أهل الجنة هانت عليه الدنيا ، " لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ، كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ " وهذا في الجنة أشياء كثيرة مما لم تسمع أذن ، ولم ترى عين ، ولم يخطر على قلب بشر ، هذه كلها من الأرزاق المُدَّخرة لأهل الجنة ، " إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَاد. " ٍ

ومما تتفطر عليه الأفئدة أن ينشغل الناس بالرزق العام عن الرزق الخاص ، حتى إن كثيراً من الناس عندما يقول:" اللهم ارزقني " يريد بذلك الأكل والشراب والأموال ، وينسون الرزق الذي تحيا به القلوب وهو رزق الإيمان ، وعلى العبد أن يستحضر هذين الرزقين عندما يقول :" اللهم ارزقني ".

فمن كان من أصحاب الرزق الأول – وهو الزرق العام – ولكنه حُرِم من الرزق الثاني – الرزق الخاص – فخيرٌ منه من رزق الثاني ولم يُفتحُ له في الرزق الأول ، فإن الذي أُعطِي الإيمان ولم يُعط المال هو خيرٌ وأفضل من صاحب مالٍ بلا إيمان ، " وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21) ".

واعلم أن سعة الرزق ليس دليلاً على رضا الله تعالى عن العبد ، كما أن ضيق الرزق ليس بدليل على سخطِ الله على العبد ، يقول تعالى :" فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا ... (17) ".

والنبي صلى الله عليه وسلم وهو أفضل البشر وأكرمهم عند الله كان يمر عليه الشهر والشهران ولا يوقد في بيته نار ، والله عز وجل يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الآخرة إلا لمن أحب ، ومعيار كرامة العبد عند الله ليست بالمال وإنما بالتقوى " إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... (13) " ، فكم من عبدٍ مجهولٍ في الأرض معروفٍ في السماء ، وكم من عبدٍ معروفٍ في الأرض لا كرامة له في السماء .

واعلم أن هناك متعلقات تؤثر في الرزق ، ومن أعظم ما تستجلب به الأرزاق ثلاثة ، أولها: تقوى الله عز وجل ، قال تعالى :" وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... (3) " ، وقال تعالى :" وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... (96." (

الثاني: الصلاة ، قال تعالى :" وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132) " ، والثالث: الاستغفار ، قال تعالى :" فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12." (

واعلم أن من أعظم أسباب زوال النعمة كفرها ، قال تعالى :" وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) " .

من الآثار المترتبة على معرفة هذا الاسم

1) تحقيق توحيد الله تعالى: فإن من ليس برازق لا يستحق أن تُصرف له العبادة ، على أي أساسٍ يُدعَى ويستغاث به ؟ ، على أي أساسٍ تُصرف له العبادة من دون الله ؟.

يقول الله تعالى مُنكِراً على المشركين شركهم :" وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) " ، لماذا تعبد هذا الذي هو دون الله ؟ ، هل يرزقك ؟ لا يرزقك ، هل رزقك بيده ؟ ليس بيده ، هل حياتك بيده ؟ ليست بيده ، إذن لماذا تصرف له العبادة.

وقد رأيت مقطعاً لملحدٍ يحكي إسلامه ، فذكر خلاله أنه قابل أحد عبدة الأبقار فسأله :" لماذا تعبدون البقر ؟ ، لماذا لا تعبدون الأسد ؟ " فلم يجد عابد البقر جواباً ! ، أما المسلم فإذا ما سألته لماذا تعبد الله فسيجيبك بكل يقينٍ وعلمٍ وإيمان :" لأن الله خالقي ، ورازقي ، ولأنه الكامل في أسمائه وصفاته ، ولأنه الذي بيده حياتي ، وبيده الجنة والنار ، و... الخ " ، فما أقوى حجة المسلم ، حُجةٌ لا تنكسر.

وقال تعالى :" اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40." (

والله عز وجل كما أنه المنفرد بالخلق والإحياء والإماتة فهو منفردٌ بالرزق وتدبير الكون قال تعالى :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3. " (

وسبحان الله ، عندما يقف الإنسان مع كلمة :" تكفل الله بالرزق " يطمئن قلبه ، لو كان لديك أمرٌ مهم ، وجاءك أحدُ المقربين وقال لك :" دع هذا الأمر لي ، أنا متكفلٌ به " فكيف يكون سعدُ قلبك ؟ ، فكيف يكون سعد قلبك إذا علمت أن الله تكفل برزقك ؟! ، " وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ... (60) " ، كما أن الله رزق هذه الدواب فسيرزقك ، من الذي كان يسوق لك الطعام وما تحتاجه في بطنِ أمك ، أليس هو الرزاق سبحانه ؟ ، فالله عز وجل هو الذي كان يراك في بطن أمك ويسوق لك الرزق سوقاً ، بل ويسوق الرزق في كل أعضاء جسدك حتى إلى أصابعك هو الذي سيرزقك.

2) محبة الله ، فإن من علم أن الله رازقه أحبه لا محالة ، ويالسعد ذلك القلب الذي تيقن بهذه الحقيقة .

3) حصول الطمأنينة والسكينة ، فلن تخاف على رزقك ، ومما ينبه عليه أن كثيراً من الناس إذا سألته :" من هو الرزاق ؟ " لقال لك مباشرة :" الله سبحانه وتعالى " ، ولكن عندما تحصل له في حياته مصيبة تجده يقول :" هؤلاء يريدون أن يقطعوا رزقنا " ! ، أين ذهب إيمانك بأن الله هو الرزاق ، أهو علمٌ مُجردٌ لا أثر له في حياتك أم ماذا ؟ ، وسبب هذا أن اليقين لم تتجذر جذوره في القلب ، واعلم أن العلم إنما يُرادُ للعمل.

وتأمل حال السلف عندما رسخ يقينهم ، يقول ابن مسعود رضي الله عنه :" أرجى ما أكون للرزق يوم يقال ليس في الدنيا دقيق."

وقال الإمام أحمد :" أسرُّ أيامي إليّ يوم أصبح وليس عندي شيء."

وقال بعضهم :" لو كانت السماء نُحاساً ، والأرضُ رصاصاً ، ثم اهتممت برزقي لظننت أنني مشرك. "

"لو كانت السماء نُحاساً " فلا تُمطِر ، " وكانت الأرضُ رصاصاً " فلا تُزرَع ولا تُنبِت ، " واهتممت برزقي " أي أصابني الهم بسبب الرزق ، " لظننت أنني مشرك " بسبب أن ذلك سوء ظنٍّ بالله.

قيل لأبي حازم الزاهد :" ما مالك ؟ " ، قال :" لي مالان لا أخشى معهما الفقر : الثقة بالله ، واليأس مما في أيدي الناس " ، وقيل له :" أما تخشى الفقر ؟ " ، قال :" أنا أخشى الفقر ومولاي له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ؟. " !

ثم تأمل - بعد ما تأملت حال السلف - حال المنافقين " هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7) " ، يقول ابن عباس مفسراً الآية أنهم يقولون:" لا تطعموا محمدًا وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة، فيتركوا نبيهم " ، فردُّ الله عز وجل عليهم :" وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7) " ، هؤلاء المنافقين الذين يريدون قطع الرزق عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هم مخلوقات ضعفاء مرزوقين ، ليس الرزق بيدهم ، وشأن المنافقين هذا هو شأن أعداء الدين في عصرنا هذا ، بل وسائر الأزمان والأماكن ، فتجدهم يدندنون :" الحصار الاقتصادي ، والحظر " ، فالمؤمن عزيز يعلم أن رزقه بيد الله ، فلا يتنازل للباطل من أجل الرزق ، لا يضحي بالحق ، لا يداهن ، لا يقبل الباطل ، لا يقبل المعصية من أجل الرزق ، ولا يسرق ، ولا يفعل حراماً ، والحرام ممحوق البركة.

4) مما يترتب على معرفة هذا الاسم أن يسعى الإنسان لرزقه بالحلال ، لا بالحرام ، جاء في الأثر " وَإِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهَا لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ أَقْصَى رِزْقِهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمُ اسْتِبْطَاءُ رِزْقِهِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا يُدْرِكُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ " ، فالمؤمن لا يحمله استبطاء الرزق على ركوب المعصية ، ولو صبر الإنسان عن ركوب هذه المعصية لأتاه رزقه من الباب الحلال.

5) مما يترتب على معرفة هذا الاسم معرفة أسماء الله الحسنى الأخرى في ضوء هذا الاسم – اسم الله الرزاق – فمثلاً من أسماء الله سبحانه وتعالى العليم ، فتعلم أن الله سبحانه وتعالى قسَّم الأرزاق تبعاً لعلمه سبحانه وتعالى ، وتعرف اسم الله الرحيم الذي رحم هؤلاء الخلق فرزقهم ، وتعرف اسم الله اللطيف ، والحكيم الذي كل أفعاله حكمة سبحانه وتعالى ، يجعل هذا غني ويجعل هذا فقير ، ولو جعلهم جميعاً أغنياء لفسدت الحياة وتوقفت ، ولما خدم أحدٌ أحداً ،

فلو كان الجميع أغنياء فلن تجد المزارع الذي يزرع ، ولن تجد المهندس وهكذا ، قال تعالى :" نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ... (32) " ، جاء في التفسير الميسر :" هذا غنيٌّ وهذا فقير، وهذا قويٌّ وهذا ضعيف؛ ليكون بعضهم مُسَخَّرًا لبعض في المعاش " ، قال تعالى :" وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27) " ، بل هذا الغني قد يكون غناه ابتلاءً له " لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ... (165. " (

6) ومما يترتب على معرفة هذا الاسم حصول التواضع وشكر الله ، فالله عز وجل هو الذي آتاك ، وليس حصوله لك نتاجٌ عن علمك ، إنما علمك مجرد سبب لتحصيل ذلك ، لكن الذي رزقك هو الله ، وإلا فكم من إنسان ذا علمٍ كثير لا يزال في عداد الفقراء ! ، فالمؤمن يقول كما قال سليمان وداود عليهما السلام :" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) " ، ويقول كما قال سليمان عليه السلام :" هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ... (40) " ، ولا يقول كما قال قارون :" إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ... (78) " ، فلذلك عليك أن تقوم بشكر الله عز وجل لا كفر نعمه ، إذ ليس من شكر نعم الله استخدامها في ما حرم الله.

يقول ابن قدامة :" واعلم أنك لا تقدر على معصيته إلا بنعمته ، فكم له عليك من نعمة في يدك التي مددتها إلى معصيته ، وكم له من نعمة في عينك التي نظرت بها إلى ما حرّم عليك ، وفي لسانك الذي نطقت به بما لا يحل لك ، وليس من شكر إنعامه أن تستعين بها على معاصيه " ، فأنت لا تستطيع أن تعصيه إلا بنعمه ، أفلا تستحي من أن يُنعِم عليك ، ثم تأتي وتستخدم نعمه في ما يغضبه ؟!.

إذا قيل لك:" أتبيع عينك بمئة ألف دينار " ، لقلت :" لا " ، وإن قيل لك:" أفتبيع يديك بمئة ألف دينار " ، لقلت :" لا " ، وهكذا ، فاعلم أن ديونك كثيرة ، فهل أديت شكرها ؟.

روى ابن حبان في الثقات :" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: خَرَجْتُ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مُرَابِطًا ، وَكَانَ رَابِطُنَا يَوْمَئِذٍ عَرِيشَ مِصْرَ ، قَالَ فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى السَّاحِلِ فَإِذَا أَنَا بِبَطِيحَةٍ ، وَفِي الْبَطِيحَةِ خيمة فِيهَا رجل قد ذهب يَدَاهُ وَرجلَاهُ ، وَثقل سَمعه وبصره ، وَمَا لَهُ من جارحة تَنْفَعهُ إِلَّا لِسَانه ، وَهُوَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ أَوْزِعْنِي أَن أحمدك حمداً أكافىء بِهِ شُكْرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ وَفَضَّلْتَنِي على كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْتَ تَفْضِيلا.(

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:" وَاللَّهِ لآتِيَنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَلأَسْأَلَنَّهُ أَنَّى لَهُ هَذَا الْكَلامُ ، فَهْمٌ أم عِلْمٌ أم إِلْهَامٌ أُلْهِمَ ". فَأَتَيْتُ الرَّجُلَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ :" سَمِعْتُكَ وَأَنْتَ تَقُولُ (اللَّهُمَّ أَوْزِعْنِي أَنْ أحمدك حمداً أكافىء بِهِ شُكْرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ وَفَضَّلْتَنِي على كَثِيرٍ من خَلَقْتَ تَفْضِيلا) ، فَأَيُّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ تَحْمَدُهُ عَلَيْهَا ؟ ، وَأَيُّ فَضِيلَةٍ تَفَضَّلَ بِهَا عَلَيْكَ تَشْكُرُهُ عَلَيْهَا ؟ ، قَالَ :" وَمَا تَرَى مَا صَنَعَ رَبِّي ؟ ، وَاللَّهِ لَوْ أَرْسَلَ السَّمَاءَ عَلَيَّ نَارًا فَأَحْرَقَتْنِي ، وَأَمَرَ الْجِبَالَ فَدَمَّرَتْنِي ، وَأَمَرَ الْبِحَارَ فَغَرَّقَتْنِي ، وَأَمَرَ الأَرْضَ فَبَلَعَتْنِي مَا ازْدَدْتُ لِرَبِّي إِلا شُكْرًا لِمَا أَنْعَمَ عَلَيَّ مِنْ لِسَانِي هَذَا.

وَلَكِنْ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِذْ أَتَيْتَنِي لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ قَدْ تَرَانِي على أَيِّ حَالَةٍ أَنَا ، أَنَا لَسْتُ أَقْدِرُ لِنَفْسِي على ضُرٍّ وَلا نَفْعٍ ، وَلَقَدْ كَانَ مَعِيَ بُنَيٌّ لِي يَتَعَاهَدُنِي فِي وَقت صَلَاتِي فيوضيني ، وَإِذَا جُعْتُ أَطْعَمَنِي، وَإِذَا عَطِشْتُ سَقَانِي ، وَلَقَدْ فَقَدْتُهُ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ، فَتَحَسَّسْهُ لِي رَحِمَكَ اللَّه "،

فَقُلْتُ :" وَاللَّهِ مَا مَشَى خَلْقٌ فِي حَاجَةِ خَلْقٍ كَانَ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ أَجْرًا مِمَّنْ يَمْشِي فِي حَاجَةِ مِثْلِكَ " ، فَمَضَيْتُ فِي طَلَبِ الْغُلامِ ، فَمَا مَضَيْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى صِرْتُ بَيْنَ كُثْبَانٍ مِنَ الرَّمْلِ ، فَإِذَا أَنَا بِالْغُلامِ قَدِ افْتَرَسَهُ سَبُعٌ وَأَكَلَ لَحْمَهُ ، فَاسْتَرْجَعْتُ ، وَقُلْتُ :" أَنَّى لِي وَجْهٌ رَقِيقٌ آتِيَ بِهِ الرَّجُلَ " ، فَبَيْنَمَا أَنَا مُقْبِلٌ نَحْوَهُ إِذْ خَطَرَ على قَلْبِي ذِكْرُ أَيُّوبَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلام،

فَقَالَ :" أَلَسْتَ بِصَاحِبِي ؟ " ، قُلْتُ :" بَلَى " ، قَالَ :" مَا فَعَلْتَ فِي حَاجَتِي ؟ " ، فَقُلْتُ : " أَنْتَ أَكْرَمُ على اللَّهِ أَمْ أَيُّوبُ النَّبِيُّ ؟ " ، قَالَ :" بَلْ أَيُّوبُ النَّبِيُّ " ، قُلْتُ :" هَلْ عَلِمْتَ مَا صَنَعَ بِهِ رَبُّهُ ، أَلَيْسَ قَدِ ابْتَلاهُ بِمَالِهِ وَآلِهِ وَوَلَدِهِ ؟ " ، قَالَ :" بَلَى " ، قُلْتُ :" فَكَيْفَ وَجَدَهُ ؟ " ، قَالَ " وَجَدَهُ صَابِرًا شَاكِرًا حَامِدًا."

قُلْتُ :" لَمْ يَرْضَ مِنْهُ ذَلِكَ حَتَّى أَوْحَشَ مِنْ أَقْرِبَائِهِ وَأَحِبَّائِهِ " قَالَ :" نَعَمْ " ، قُلْتُ : " فَكَيْفَ وَجَدَهُ رَبُّهُ ؟ " ، قَالَ :" وَجَدَهُ صَابِرًا شَاكِرًا حَامِدًا."

قُلْتُ:" فَلَمْ يَرْضَ مِنْهُ بِذَلِكَ حَتَّى صَيَّرَهُ عَرَضًا لِمَارِّ الطَّرِيقِ، هَلْ عَلِمْتَ ؟ "، قَالَ" نَعَمْ " قُلْتُ :" فَكَيْفَ وَجَدَهُ رَبُّهُ ؟ " ، قَالَ :" صَابِرًا شَاكِرًا حَامِدًا ، أَوْجِزْ رَحِمَكَ اللَّه."،

قُلْتُ لَهُ :" إِنَّ الْغُلامَ الَّذِي أَرْسَلْتَنِي فِي طَلَبِهِ وَجَدْتُهُ بَيْنَ كُثْبَانِ الرَّمْلِ وَقَدِ افْتَرَسَهُ سَبُعٌ فَأَكَلَ لَحْمَهُ ، فَأَعْظَمَ اللَّهُ لَكَ الأَجْرَ وَأَلْهَمَكَ الصَّبْر."،

فَقَالَ الْمُبْتَلَى :" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ مِنْ ذُرِّيَّتِي خَلْقًا يَعْصِيهِ فَيُعَذِّبَهُ بِالنَّارِ " ، ثُمَّ اسْتَرْجَعَ وَشَهَقَ شَهْقَةً فَمَات،

فَقُلْتُ :" إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، عَظُمَتْ مُصِيبَتِي ، رَجُلٌ مِثْلُ هَذَا إِنْ تَرَكْتُهُ أَكَلَتْهُ السِّبَاعُ ، وَإِنْ قَعَدْتُ لَمْ أَقْدِرْ على ضُرٍّ وَلا نَفْعٍ " ، فَسَجَّيْتُهُ بِشَمْلَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَقَعَدْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ بَاكِيًا.

فَبَيْنَمَا أَنَا قَاعِدٌ إِذْ تَهَجَّمَ عَلَيَّ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ ، فَقَالُوا :" يَا عَبْدَ اللَّهِ ، مَا حَالُكَ وَمَا قِصَّتُكَ ؟" فَقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ قِصَّتِي وَقِصَّتَهُ ، فَقَالُوا لِي :" اكْشِفْ لَنَا عَنْ وَجْهِهِ ، فَعَسَى أَنْ نَعْرِفَهُ " ، فَكَشَفْتُ عَنْ وَجْهِهِ ، فَانْكَبَّ الْقَوْمُ عَلَيْهِ يُقَبِّلُونَ عَيْنَيْهِ مَرَّةً ، وَيَدَيْهِ أُخْرَى ، وَيَقُولُونَ :" بِأَبِي ، عَيْنٌ طَالَمَا غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، وَبِأَبِي وَجِسْمُهُ طَالَمَا كُنْتَ سَاجِدًا وَالنَّاسُ نِيَام."،

فَقُلْتُ :" مَنْ هَذَا يَرْحَمُكُمُ اللَّهُ ؟! " ، فَقَالُوا :" هَذَا أَبُو قِلابَةَ الْجَرْمِي صَاحب بن عَبَّاسٍ ، لَقَدْ كَانَ شَدِيدَ الْحُبِّ لِلَّهِ وَلِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم."،

فَغَسَّلْنَاهُ ، وَكَفَّنَّاهُ بِأَثْوَابٍ كَانَتْ مَعَنَا ، وَصَلَّيْنَا عَلَيْهِ وَدَفَنَّاهُ ، فَانْصَرَفَ الْقَوْمُ وَانْصَرَفْتُ إِلَى رِبَاطِي ، فَلَمَّا أَنْ جَنَّ عَلَيَّ اللَّيْلُ وَضَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُهُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَعَلَيْهِ حُلَّتَانِ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ وَهُوَ يَتْلُو الْوَحْيَ :" سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ " ، فَقُلْتُ :" أَلَسْتَ بِصَاحِبِي ؟ " ، قَالَ :" بَلَى " ، قُلْتُ :" أَنَّى لَكَ هَذَا ؟ " ، قَالَ :" إِنَّ للهِ دَرَجَاتٍ لَا تُنَالُ إِلا بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلاءِ وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ مَعَ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ." ".

فكم ممن يتمنى أن ينظر للمصحف وأنت معك عينيك ، وكم ممن يتمنى تلاوة القرآن وأنت معك لسانك ، وكم ممن يتمنى سماع القرآن وأنت معك أذنيك ، وكم ممن يتمنى الذهاب للمسجد وأنت معك رجليك ، فكم لله عليك من نعمة ، قال تعالى :" وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34) ".

7) ومما يترتب على معرفة هذا الاسم أن يكون الإنسان كريماً فلا يبخل ، يقول تعالى في الحديث القدسي :" يا ابن آدم أنفق أُنفِق عليك " ، وكان صلى الله عليه وسلم ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر.

8) ينبغي للمؤمن الموحد أن يجعل أكبر همه السعي لنيل الرزق الأعظم والفضل الأكبر ألا وهو رضا الله سبحانه وجنته، فالجنة أعظم الرزق وأفضله وأكرمه قال سبحانه: { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَإِن اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) } ، وقال - عز وجل -: { وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (11) } ، فاللَّهم ارزقنا رضاك والجنة ، وأنت خير الرازقين.

9) الشافي

" وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) "
[سورة الشعراء]

"أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ ، اشْفِ وأَنْتَ الشَّافِي ، لا شِفَاءَ إلَّا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا"

تأمل كيف يلتئم الجرح دون تدخل بشري ! ، من الذي جعله يلتئم ؟ ، وتأمل العظم المكسور كيف يُجبر ، من الذي جعل هذا العظم يُجبر لوحده ؟ ، إنه الله الشافي سبحانه وتعالى.

جاء في كتاب التوابين لابن قدامة المقدسي رحمه الله أن لبيب العابد حكى قصةً له فقال :" رأيت يوما حية داخلة إلى جحرها ، فأمسكت ذنبها لأقتلها فوثبت علي فنهشت يدي فشلت ، ومضى زمن طويل على هذا فشلت يدي الأخرى بغير سبب أعرفه ، ثم جفت رجلاي، ثم عميت، ثم خرست.

فكنت على هذه الحال سنة كاملة ، لم يبق لي جارحة صحيحة إلا سمعي أسمع به ما أكره ، وأنا طريح على ظهري لا أقدر على كلام ولا إيماء ولا حركة ، أسقى وأنا ريان ، وأترك وأنا عطشان ، وأطعم وأنا شبعان ، وأمنع وأنا جائع.

فلما كان بعد سنة دخلت امرأة على زوجتي ، فقالت :" كيف أبو علي لبيب ؟ " ، فقالت لها : " زوجي لا حي فيرجى ، ولا ميت فيسلى " ، فأقلقني ذلك ، وآلم قلبي ألما شديداً فبكيت ، وضججت إلى الله تعالى في سري ودعوت.

وكنت في جميع تلك العلل لا أجد ألماً في نفسي ، فلما كان في بقية ذلك اليوم ضرب علي جسدي ضرباناً شديداً كاد يتلفني ، ولم يزل على ذلك إلى أن دخل الليل وانتصف أو جاز فسكن الألم قليلا فنمت ، فما أحسست إلا وقد انتبهت وقت السحر وإحدى يدي على صدري ، وقد كانت طول السنة مطروحة على الفراش لا تنشال أو تشال ، فحركتها فتحركت ففرحت فرحاً شديداً ، وقوي طمعي في تفضل الله بالعافية ، فحركت الأخرى فتحركت ، فقبضت إحدى رجلي فانقبضت ، فرددتها فرجعت ، وفعلت بالأخرى مثل ذلك ، فرمت الانقلاب فانقلبت وجلست ، ورمت القيام فقمت ونزلت عن السرير الذي كنت مطروحا عليه وكان في بيت من الدار ، فمشيت ألتمس الحائط في الظلمة إلى أن وقعت يدي على الباب - وأنا لا أطمع في بصري - فخرجت إلى صحن الدار فرأيت السماء والكواكب تزهر فكدت أموت فرحاً ، وانطلق لساني بأن قلت :" يا قديم الإحسان لك الحمد."

ثم صحت بزوجتي فقالت :" أبو علي ؟! " ، فقلت :" الساعة صرت أبا علي ، اسرجي " ، فأسرجت ، فقلت :" جيئيني بمقراض " ، فجاءت به فقصصت شارباً كان لي على زي الجند ، فقالت لي زوجتي :" ما تصنع الآن ؟ ، يعيبك رفقاؤك " ، فقلت :" بعد هذا لا أخدم أحداً غير ربي " ، فانقطعت إلى الله عز وجل ، وخرجت من الدار ولزمت عبادة ربي ، قال : وكانت هذه الكلمة:(يا قديم الإحسان لك الحمد) قد صارت عادته يقولها في حشو كلامه."

فالشافي هو الله سبحانه وتعالى ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم في رقيته كما عند البخاري: " اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ البَاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لاَ شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا. "

وقد وحّد غلام قصة أصحاب الأخدود ربه في اسمه الشافي لمّا قال له الوزير :" ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني " ، فقال له الغلام :" إني لا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك " ، فآمن الوزير بالله فشفاه الله.

لو كانت الشكوى وحكاية الأوجاع - التي نتوجه بها ونبثها للبشر المخلوقين الضُعفاء - نتوجه بها إلى الخالق القوي الشافي سبحانه لكان أولى وخيراً وأنفع. الطبيب لا يشفي كسر المكسور ، وإنما يجمع العظمين فقط ، ثم يلتئم هذان العظمان وحدهم بمشيئة الله تعالى وإرادته.

شفى الله عز وجل أيوب عليه السلام من الضر الذي مسّه ، ووهب له أهله ومثلهم معهم رحمةً منه سبحانه ، ورزق زكريا عليه السلام الذرية على الكبر ، إنه الشافي سبحانه.

والمرض ليس عبثاً ، وإنما فيه حِكَمٌ وفوائد كثيرة ، منها: تطهير النفس وكسرها بين يدي ربها ، وتخليص النفس من العجب والكبر.

والمرض كذلك يزهِّد العبد في هذه الدنيا ويرغبه في الآخرة ، تلك الدار التي لا سقم فيها ولا آفات ولا منغصات ، ومن فوائد المرض أنه كفارةٌ للخطايا ، وأنه يسوق العبد راجعاً إلى الله.

وبمناسبة ذكر الأمراض دعني اطرح هنا سؤالاً وأسألك :" هل سمعت بطبيب أحزان أو أحقاد ؟ أو طبيب يعالج من مرض الكبر ؟ " ، لن تجد طبيباً لذلك ، وإنما شافي هذه الأمراض هو الله سبحانه وتعالى ، فالله شافي القلوب كما أنه شافي الأبدان ، فشفاء الله عز وجل للعبد ليس مقصوراً على أمراض الأبدان فقط ، وإنما كذلك يشفي أمراض القلوب ، وهي الأمراض الأخطر والأشد فتكاً فإنها مدمرة لآخرة العبد ، كما أنها الأمراض الأكثر انتشارا.

-1الدعاء والدواء سبب

"لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَل"
]رواه مسلم[

أنزل الله عز وجل الداء ، وأنزل معه الدواء سبباً للشفاء ، ولا يحصل الشفاء إلا بإرادة الشافي سبحانه وتعالى ، فإنك تجد شخصين أصيبا بنفس المرض ، وتعاطيا نفس العلاج ، فيحصل الشفاء لأحدهما ويتخلف عن الآخر ، وما ذلك إلا لأن حدوث الشفاء مُعلَّق بإرادة الله تعالى ، فالدواء مجرد سببٌ للشفاء.

يقول ابن القيم رحمه الله :" فالأسباب محلُّ الأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، والنجاح والخسران ، وبالأسباب عُرِف الله، وبها عُبِد، وبها أُطِيع " ، فالأخذ بالأسباب لازمٌ علينا من قِبَلِ الحكيم سبحانه لإظهار الحكمة في الشرائع والأحكام ، وتمييز الحلال والحرام ، وظهور التوحيد والإسلام ، والتفريق بين الطائع وصاحب الآثام.

ومثلُ الأسباب كمثل الآلة بيد الصانع ، فكما لا يُقال :" السوط ضرب العبد " وإنما يُقال :" الجلّاد ضرب العبد بالسوط " ، فكذلك لا يُقال شفاني الدواء أو الطبيب ، وإنما يُقال شفاني الله ، فالدواء سبب.

وجاء في الحديث أن رجُلاً قال لِلنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم :" أُرسِلُ ناقتي وأتوكَّلُ ؟ " ، قال : " اعقِلْها وتوكَّلْ " ، فتأمل كيف أمر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل بأخذ السبب ، فيستفاد من الحديث أن الإنسان عليه أن يأخذ بالأسباب ، ويتوكل على الله سبحانه وتعالى في ترتيب المسببات على هذه الأسباب ؛ إذ ترتب أثر الأسباب موقوف على إرادة الله ومشيئته ، ويتوكل كذلك على الله سبحانه وتعالى في جميع شأنه.

والأسباب نوعان: أسباب شرعية كالرقية واذكار الصباح والدعاء وغيرها ، وأسباب كونية كالدواء وغيره ، وهي معروفة ، والأسباب - بكلا نوعيها - قد تعرض لها موانع تمنع ظهور أثرها ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم مبيناً لنا بعض معيقات وموانع إجابة الدعاء :" لا يزال يستجاب لأحدكم ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل " ، قيل :" يا رسول الله ما الاستعجال ؟ " ، قال :" يقول قد دعوت فلم أر يستجب لي ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء " ، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ:" يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! " قال :" وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ؟" رواه مسلم.

وهكذا في الأسباب الكونية كذلك ، فالسبب قد يظهر أثره وقد لا يظهر ، فإنك تجدين الرجلين يصابا بنفس المرض ، ويتناول كلاهما الدواء ، فيُشفى هذا ولا يُشفى هذا ؛ لإن الله أراد لهذا الشفاء ، ولم يُرِد لذلك الشفاء ، وليس ذلك عبث تعالى الله علواً كبيراً ، ولكن بحكمته سبحانه ، وتأمل قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام :" وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) " فنسب الشفاء إلى الله سبحانه وتعالى ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول :" اشفِ أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك. "

ولابد في كل شيء - ليتم أثره - أن تتوفر أسبابه وتنتفي موانعه ، يقول ابن القيم رحمه الله :" لَيْسَ فِي الْوُجُود الْمُمكن سَبَب وَاحِد مُسْتَقل بالتأثير ، بل لَا يُؤثر سَبَب الْبَتَّةَ إِلَّا بانضمام سَبَب آخر إِلَيْهِ وَانْتِفَاء مَانع يمْنَع تَأْثِيره ، هَذَا فِي الْأَسْبَاب المشهودة بالعيان ، وَفِي الْأَسْبَاب الغائبة ، والأسباب المعنوية ، كتأثير الشَّمْس فِي الْحَيَوَان والنبات فَإِنَّهُ مَوْقُوف على أَسبَاب أخر من وجود مَحل قَابل ، وَأَسْبَاب أخر تنضم إِلَى ذَلِك السَّبَب ، وَكَذَلِكَ حُصُول الْوَلَد مَوْقُوف على عدَّة أَسبَاب غير وَطْء الْفَحْل.

وَكَذَلِكَ جَمِيع الْأَسْبَاب مَعَ مسبباتها ، فَكل مَا يخَاف ويرجى من الْمَخْلُوقَات فأعلى غاياته أَن يكون جُزْء سَبَب غير مُسْتَقل بالتأثير ، وَلَا يسْتَقلّ بالتأثير وَحده دون توقف تَأْثِيره على غَيره إِلَّا الله الْوَاحِد القهّار ، فَلَا يَنْبَغِي أَن يُرْجَى وَلَا يخَاف غَيره.

وَهَذَا برهَان قَطْعِيّ على أَن تعلق الرَّجَاء وَالْخَوْف بِغَيْرِهِ بَاطِل ، فَإِنَّهُ لَو فرض أَن ذَلِك سَبَب مُسْتَقل وَحده بالتأثير لكَانَتْ سببيته من غَيره لَا مِنْهُ ، فَلَيْسَ لَهُ من نَفسه قُوَّة يفعل بهَا ، فَإِنَّهُ لَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللَّه ، فَهُوَ الَّذِي بِيَدِهِ الْحول كُله وَالْقُوَّة كلهَا ، فالحول وَالْقُوَّة الَّتِي يُرْجَى لأجلهما الْمَخْلُوق وَيخَاف إِنَّمَا هما لله وَبِيَدِهِ فِي الْحَقِيقَة ، فَكيف يخَاف ويرجى من لَا حول لَهُ وَلَا قُوَّة ، بل خوف الْمَخْلُوق ورجاؤه أحد أَسبَاب الحرمان ونزول الْمَكْرُوه بِمن يرجوه ويخافه ، فَإِنَّهُ على قدر خوفك من غير الله يُسَلط عَلَيْك ، وعَلى قدر رجائك لغيره يكون الحرمان ، وَهَذَا حَال الْخلق أجمعه وَإِن ذهب عَن أَكْثَرهم علما وَحَالا ، فَمَا شَاءَ الله كَانَ وَلَا بُد ، وَمَا لم يَشَأْ لم يكن وَلَو اتّفقت عَلَيْهِ الخليقة " انتهى كلامه رحمه الله من كتابه الفوائد.

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله :" كثيرٌ من الناس لا تنفعه الأسباب ولا الرقية بالقرآن ولا غيره ؛ لعدم توافر الشروط ، وعدم انتفاء الموانع ، ولو كان كل مريض يشفى بالرقية أو بالدواء لم يمت أحد ، ولكن الله سبحانه هو الذي بيده الشفاء ، فإذا أراد ذلك يسر أسبابه ، وإذا لم يشأ ذلك لم تنفعه الأسباب ".

فالحاصل أن الأسباب سواء الشرعية منها كالدعاء والرقية والأذكار أو الكونية قد يعيقها مانع ، فهي طريقٌ موصلٌ للمقصود ، لكن قد يُسدُّ هذا الطريق بمانع ، ويمكن كذلك تشبيه ذلك بحبلٍ قطعه قاطع.

وبمناسبة ذِكر الدعاء يجدر التنبيه إلى أن كثيراً من الناس يدعون الله عز وجل ويريدون حقهم في الإجابة في حين أنهم يتناسون موانع الدعاء كالاستعجال والدعاء بالحرام وأكل الحرام ، فيسأل الله حقه ، ولا يؤدي هو حقّ الله ، فما أقبح ذلك.

ويجدر كذلك التنبيه بأن الدعاء له صور للاستجابة ، وبعض الناس لا يعرف أو لا يستحضر إلا صورةً واحدة وهي أن يُؤتى سؤله كما سأل ، في حين أنه قد يُدفع به عنه سوءاً كان نازلاً عليه ، أو يُدخر له إلى يوم القيامة في يومٍ هو أحوج ما يكون فيه للحسنات ، وكل ذلك استجابة ، قال صلى الله عليه وسلم :" مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو، لَيْسَ بِإِثْمٍ وَلَا بِقَطِيعَةِ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا "، قَالَ: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ» " حديث صحيح رواه البخاري في الأدب المفرد ، فعلى العبد استحضار كل ذلك.

والأسباب تؤثر لا بذاتها لكن بإرادة الله عز وجل ، وتأمل معي قول الله تعالى :" بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ، وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ، وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (126) " فتأمل كيف أن الله عز وجل ذكّرهم أن النصر من عنده حتى لا تتعلق قلوبهم بالملائكة ، وإنما يتعلقوا برب الملائكة سبحانه وتعالى.

والأسباب الشرعية والأسباب الكونية لا تتعارض ، وإنما تتكامل ، إذ الشيء قد يكون له أكثر من سبب دون تعارضٍ بينها ، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :" وَنحن لَا ننكر أن لذَلِك أسبابا أُخر ، وَلَكِن تِلْكَ من الأسباب الَّتِي اسْتَأْثر الله بهَا دون الْبشر " انتهى من كتابه مفتاح دار السعادة ، فهناك أمور لها أسباب استأثر الله عز وجل بها ، لا دخل للبشر فيها ، فتكون بتقدير الله ومشيئته.

وهنا تنبيه مهم وهو أن الأمر قد يُنسب للشيء من باب السببية ، ولكنه يُنسب لله من باب الخلق والإيجاد ، فالرصاصة مثلاً سببٌ للموت ، ولكن الموت لا يحصل بها إلا إذا أراده الله ، وقد رأيت في وثائقي رجلاً قد أُصيب برصاصة في دماغه ومع ذلك لم يمت ، وكذلك هناك قصة الديك الشهير الذي عاش 18 شهراً بلا رأس !! ، وغيرُ ذلك من الأمر ، كما أنني شاهدت مقطعاً في إحدى الدول الآسيوية لبقرة يتم ذبحها ولا تموت ، وتذبح عدة مرات ، فلا تفارق روحها الجسد إلا بعد مدة ، وذلك يدلك على أن الموت يحصل عندما يريد الله عز وجل ذلك.

-2دلالة العقل على أن الرقية حق

الرقية سببٌ شرعيٌ جعله القدير سبحانه وتعالى سبباً للشفاء بإذنه سبحانه وتعالى ، وذلك على القدير يسير ، وكما أننا نعرف أن الدواء يؤثر على الجسم دون أن نعرِف كيفية عمله ، فكذلك نحن نؤمن بأن لهذه الرقية تأثير حتى ولو لم نُدرِك كيفية عملها ، إذ أن أثر الشيء لا يتوقف على إدراك كيفية عمله .

قال الشيخ فلاح مندكار رحمه الله في كتابه الرقى الشرعية بين التنزيل والتطبيق :" لا يُحيلُ العقلُ التداوي بالقرآن الكريم ولا يمنعه أبداً ، كيف وقد جاء الخبرُ الصادقُ بذلك ، والعقلُ قد صدَّق المُخبِر فيما هو أعظمُ من مجرَّدِ الإخبار بالاستشفاء بتلاوة بعض الآيات والسور.

ثم إنه لا يترتب على التصديق به أمرٌ مُستحيل ، لأن العقل قد قرَّر أن الله سبحانه وتعالى هو المالك الفاعل المتصرف في الكون، وهو سبحانه رب الأسباب والأدواء التي لا تشفي ولا تنفع بذاتها ، بل هو الشافي والدافع لجميع الأمراض ، وهو النافع والواهب للصحة والعافية ، وهو الذي يحول بين الأسباب وبين مقتضياتها ، وهو الذي يجعلُ فيها النفع سُبحانه ."

وقد نقل الشيخ فلاح رحمه الله نقلاً نفيساً عن ابن التين رحمه الله يُبيِّنُ لنا سبب ضعف أثر الرقية في كثيرٍ من الناس ، يقول ابن التين رحمه الله :" الرُّقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله تعالى الحُسنى هو الطبُ الروحاني ، إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله ، ولمّا عزّ هذا النوع فزِع الناس إلى الطب الجسماني. "

ومما يُوضِّحُ لنا كلام ابن التين هو نقلٌ نفيسٌ عن ابن القيم رحمه الله إذ يقول :" والأدعيةُ والتعوذات بمنزلة السلاح ، والسلاح بضاربه لا بحدّه " ، صدَّق والله ، ولك أن تتأمل سيفاً حاداً بيدِ صبيٍ صغير ضعيف القبضة كيف سيكون أثره ؟ ، فالسيف ليس بحدِّه فقط وإنّما بضاربه ، ولذلك تجد الفرقَ الهائل بين من يستشفي بالرقية يقيناً بأنها شفاء وبين من يريد أن يجربها فقط.!

وهنا تنبيه مهمٌ آخر ، وهو أن الرقية تُكرّر كالدواء ، فبعض الناس يظن أن الرقية سيظهر أثرها عليه من أول مرة ، في حين أنه في الأدوية العادية يُكرِّر الجرعة حتى يمتثل للشفاء ، والرقية كذلك ، والله أعلم.

والرقية لا تكون بعد نزول البلاء فقط ، بل تكون قبله كذلك ، فهي بمثابة التحصين والجرعة الوقائية ، وقد يحصل أثرها ، وقد يتخلف لمانع .

3-أعظم شفاء

من أعظم الأدوية التي غفل عنها كثيرٌ من الناس تلك الأدوية التي وردت في الكتاب والسنة ، فهي شفاءٌ لما في الصدور وشفاءٌ للأبدان ، فالأرواح تُصيبُها العلل كما تُصيب البدن ، وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم :" الأَرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَما تَعارَفَ مِنْها ائْتَلَفَ، وما تَناكَرَ مِنْها اخْتَلَفَ " ، فالأرواح التي أصابها داءُ الخُبث تجتمع مع بعضها البعض ، والأرواح الطيبة تأتلِف مع بعضها البعض ، وعلى المسلمِ أن تكون له صيدليةٌ نبويةٌ في بيته جمعت أنواع الأدوية ، إذ أدوية الكتاب والسنة أعظمُ الأدوية ونُبيّنُ بعضاً منها:

1) القرآنُ ، هو الشفاء الأعظم ، شفاءٌ لما في الصدور ، وشفاءٌ للأبدان ، حتى أن الفاتحة من أسمائها الرقية ، إذ يُرقى بها المريض ، يقول ابن القيم رحمه الله :" لقد مر بي وقت في مكة سقمت فيه، ولا أجد طبيباً ولا دواء فكنت أعالج نفسي بالفاتحة ، فأرى لها تأثيراً عجيباً ."

2) العسل: يقول ابنُ القيمِ رحمه الله :" وَمَتى رأيت السكر يجلو بلغماً ويذيب خلطاً ، اَوْ يشفي من دَاء ، وَإِنَّمَا غَايَته بعض التَّنْفِيذ للدواء إِلَى الْعُرُوق للطافته وحلاوته ، وَأما الشِّفَاء الْحَاصِل من الْعَسَل فقد حرمه الله كثيراً من النَّاس حَتَّى صَارُوا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته ، وَلَا ريب أن كَونه شِفَاء وَكَون الْقُرْآن شِفَاء وَالصَّلَاة شِفَاء وَذكر الله والإقبال عَلَيْهِ شِفَاء أَمْر لَا يعم الطبائع والأنفس ، فَهَذَا كتاب الله هُوَ الشِّفَاء النافع وَهُوَ أعظم الشِّفَاء وَمَا أقل المستشفين بِهِ ! ، بل لَا يزِيد الطبائع الرَّدِيئَة رداءة ، " وَلَا يزِيد الظَّالِمين الا خساراً " ، وَكَذَلِكَ ذكر الله والإقبال عَلَيْهِ والإنابة إليه والفزع إِلَى الصَّلَاة كم قد شفي بِهِ من عليل ، وَكم قد عوفي بِهِ من مَرِيض ، وَكم قَامَ مقَام كثير من الأدوية الَّتِي لَا تبلغ قَرِيباً من مبلغه فِي الشِّفَاء ، وَأَنت ترى كثيرا من النَّاس - بل أَكثرهم - لَا نصيب لَهُم من الشِّفَاء بذلك أصلاً .

وَلَقَد رأيت فِي بعض كتب الأطباء الْمُسلمين فِي ذكر الأدوية المفردة ذكر الصَّلَاة ذكرهَا فِي بَاب الصَّاد ، وَذكر من مَنَافِعهَا فِي الْبدن الَّتِي توجب الشِّفَاء وُجُوهًا عديدة وَمن مَنَافِعهَا فِي الرّوح وَالْقلب.

وَسمعت شَيخنَا أَبا الْعَبَّاس ابن تَيْمِية رَحمَه الله يَقُول وَقد عرض لَهُ بعض الألم فَقَالَ لَهُ الطَّبِيب :" أضر مَا عَلَيْك الْكَلَام فِي الْعلم والفكر فِيهِ والتوجه وَالذكر " ، فَقَالَ : " ألستم تَزْعُمُونَ أن النَّفس إِذا قويت وفرحت أوجب فرحها لَهَا قُوَّة تعين بهَا الطبيعة على دفع الْعَارِض فَإِنَّهُ عدوها ، فَإِذا قويت عَلَيْهِ قهرته ؟ " ، فَقَالَ لَهُ الطَّبِيب :" بلَى " فَقَالَ :" إِذا اشتغلت نَفسِي بالتوجه وَالذكر وَالْكَلَام فِي الْعلم وظفرت بِمَا يشكل عَلَيْهَا مِنْهُ فرحت بِهِ وقويت ، فَأوجب ذَلِك دفع الْعَارِض هَذَا " اَوْ نَحوه من الْكَلَام .

وَالْمَقْصُود أن ترك كثير من النَّاس الِاسْتِشْفَاء بالعسل لَا يُخرجهُ عَن كَونه شِفَاء كَمَا أن ترك أَكثرهم الِاسْتِشْفَاء بِالْقُرْآنِ من أمراض الْقُلُوب لَا يُخرجهُ عَن كَونه شِفَاء لَهَا

وَهُوَ شِفَاء لما فِي الصُّدُور وَإِن لم يسْتَشف بِهِ أكثر المرضى كَمَا قَالَ تَعَالَى :" يَا أَيهَا النَّاس قد جاءتكم موعظة من ربكُم وشفاء لما فِي الصُّدُور وَهدى وَرَحْمَة للْمُؤْمِنين" فَعم بِالْمَوْعِظَةِ والشفاء ، وَخص بِالْهدى والمعرفة ، فَهُوَ نَفسه شِفَاء استشفى بِهِ اَوْ لم يسْتَشف بِهِ.

وَلم يصف الله فِي كِتَابه بالشفاء إِلَّا الْقُرْآن وَالْعَسَل فهما الشفاءآن ، هَذَا شِفَاء الْقُلُوب من امراض غيها وضلالها ، وأدواء شبهاتها وشهواتها ، وَهَذَا شِفَاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها.

وَلَقَد أصابني أيام مقَامي بِمَكَّة أسقام مُخْتَلفَة وَلَا طَبِيب هُنَاكَ وَلَا أدوية كَمَا فِي غَيرهَا من المدن ، فَكنت استشفى بالعسل وَمَاء زَمْزَم ورأيت فيهمَا من الشِّفَاء أمراً عجيبا ، وَتَأمل إخباره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَن الْقُرْآن بِأَنَّهُ نَفسه شِفَاء وَقَالَ عَن السعل : " فِيهِ شِفَاء للنَّاس " ، وَمَا كَانَ نَفسه شِفَاء أبلغ مِمَّا جعل فِيهِ شِفَاء "

3) الحبة السوداء: قال رسول صلى الله عليه وسلم :" فِي الحَبَّةِ السوْدَاءِ شِفَاءٌ من كل دَاءٍ إلاَّ السَّام " رواه البخاري ، وقد ذكر بعض أهل العلمِ - كالشيخ سليمان الرحيلي - أن فائدة الحبةِ السوداء في المادة الطيارةِ التي فيها ، وهي زيتها ، فإنه تؤخذُ سبعة حباتٍ فتُجرش - والجرش: الطحنُ بالأضراس - ليُستخرج هذا الزيتُ منها فيبلع ، والله أعلم.

4) القسط الهندي: قال النبي صلى الله عليه وسلم :" عليكنَّ بهذا العود الهندي، فإن فيه سبعة أشفية، منها ذات الجنب " رواه البخاري.

وهناك غير هذه الأدوية بُسِطت في غير هذا الكتاب ، فلتراجعها إن أردت.

(10القهار

" وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16) "
[سورة الرعد]

هو الذي خضعت له الرقاب ، وعنت له الوجوه ، ودانت له الخلائق ، فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن ، قهر كل مخلوق عزة وحُكماً ، ووسع كل شيء رحمةً وعلما.

قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة ، وقهر الخلق كلهم بالموت ، حتى السماوات والأرض مقهورةٌ له ، وقهره دليل على كماله ووحدانيته ، فالقهار لا يكون إلا واحداً ، " وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّار."

وقهره سبحانه وتعالى مقرونٌ بعزته ، وأفعال الله كلها لا تخرج عن مقتضى الحكمة ، وقهره لعباده لا ينافي اللطف والرحمة ، " وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18." (

ومن آمن بأن الله هو القهار وحده لن يشرك به شيئاً ، ومن عَرِف بأن الله قهّار استعدّ للقائه ، قال تعالى :" يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16) ".

(11العزيز

"وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ "
]سورة المنافقون[

العزُّ في الأصل القُوّة والشِّدة والغَلَبة، والعزُّ والعزّةُ: الرفعة والامتناع، (ولله العِزّة) أي: وله العِزّة والغلبة.

ورجلٌ عزيزٌ: منيعٌ لا يُغْلب ولا يُقْهر. ويقال عزّني فلانٌ على الأمر: إذا غلبني عليه ؛كقوله تعالى: " وعَزّني في الخِطَاب."

وقوله تعالى: (فعَزَّزنا بثَالِث) أي: شَدّدنا وقَوّينا.

وعزّ الشيء يَعِزّ فهو عَزيز، قلَّ حتى ما كاد يُوجد، يعني: أصْبحَ نادراً

قال ابن جرير:" العزيز " في انْتَقامه ممنْ أرادَ الانْتقام منه، لا يَقْدر أحدٌ يَدْفعه عنه.
وقال ابن كثير:" العزيز " أي: الذي قد عزّ كل شيء فقهَره، وغلبَ الأشْياء فلا يُنال جَنابة، لعزّته وعظمته وجبروته وكبريائه.
وقال القرطبي: العزيز معناه: المَنِيعُ؛ الذي لا يُنال ولا يُغالب.

والعزيز سبحانه هو العلي الأعلى المتعال ، فهو عالٍ من كل الوجوه ، فهو عالٍ في أسمائه ، وهو عالٍ في أفعاله وصفاته ، وهو عالٍ في نفسه سبحانه فهو في العلو ، وهو القدوس سبحانه المنزَّه عن كل النقائص.

مما يترتب على هذا الاسم:

1- أن يعتز المؤمن بدينه وأن يُفاخِر به ، لا كما يفعلُ بعض الشباب الذين ينكّسون رؤوسهم ويتلعثمون قبل أن يقولوا :" أنا مسلم " ، أو قبل أن يبينوا حُكم الله في مسألة ، أو قبل أن يقولوا :" هذا حرام " ، فتجدهم قد سُلِبت هويتهم الإسلامية وانسخلوا عنها ، وصاروا عِوضاً عن أن يعتزون بدينهم يعتزون بالغرب ، وبدلاً من أن يعتزوا باللغة العربية - التي هي لغة القرآن – يعتز باللغات الأجنبية ، بل صار يمزج كلامه بشيءٍ من الكلمات الأجنبية ، بل ويكتب حروف اسمه في حسابه على الشبكة باللغة الإنجليزية ، وليتهم يفهمون أن هذه اللغات إنما هي للتواصل لا أنها معيارٌ للذكاء ! ، ولا بأس إذا دعت الحاجة لاستخدام لغة أخرى غير أني أقصد أن المسلم يعتز بلغته.

ومن العجيب أن تجد بعض الشباب يعتزون بتشجيعهم لفريق كرة قدمٍ مُعين ، ثم لا تجده بنفس هذه القوة لدينه ، وذلك يدلك على بهتان التدين عند كثيرٍ من الناس ، بل بعض

الناس مستعد لخوض المعارك والدخول في مشاكل بسبب فريقه الذي يُشجِّعه ، في حين أنه ليس مستعداً لذلك من أجل دينه.

ومما يحكى في هذا الباب ويستأنس أن بعض بلاد الكفر أرادوا غزو المسلمين ، فأرسلوا جاسوساً لهم وعيناً حتى يستطلع لهم الأمور ، فوجد شاباً يبكي فسأله عن سبب بكائه فأخبره أنه أخطأ رمية السهم ولم يُصِب الهدف ، فرجع الجاسوس إلى قومه وأخبرهم أنه لا قِبَل لهم لغزوِ المُسلمين ، ثم بعد فترة أعادوا الكرّة ، فوجد شاباً يبكي فسأله عن سبب بكائه فأخبره أنه يبكي بسبب حبيبته ، فقال الجاسوس لقومه :" الآن نغزوهم " ، فتأمل لهذا ، وقسه بما يحصل الآن من غزوٍ فكريٍ تحت مسميات براقة وانحلال عن الأخلاق والهوية والضعف والهوان الذي أصاب كثيراً من المسلمين.

2- كلامُ العزيز عزيز ، قال تعالى " وإنه لكتابٌ عزيز ".

(12الحليم

"وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ "
]سورة البقرة[

"لا أَحَدَ أَصْبَرُ علَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ،
إنَّه يُشْرَكُ به، ويُجْعَلُ له الوَلَدُ، ثُمَّ هو يُعافيهم ويَرْزُقُهُمْ "
]رواه البخاري ومسلم[

الله عز وجل حليم لا يبادر بالعقوبة ، بل يمهل العباد ، فالله يمهل ولا يهمل ، ولكن أخذه سبحانه وتعالى أليمٌ شديد.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره عن معنى اسم الله الحليم :" يعني: أنه ذو أناة ، لا يعجل على من عصاه وخالف أمره بالنقمة."

وقال السعدي في تفسيره :" الحليم الذي يدر على خلقه النعم الظاهرة والباطنة ، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم ، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم ، ويستعتبهم كي يتوبوا , ويمهلهم كي ينيبوا."

وإذا كان الله عز وجل الحليم ذو العظمة الكاملة يقبل توبة من تاب ورجع إليه ، فالأولى بك أنت المخلوق الناقص أن تقبل اعتذار من جاءك معتذراً.

جاء في كتاب التفكر والاعتبار بآيات الكسوف والزلازل والإعصار أنه " في يوم الاثنين، الموافق للرابع والعشرين من شهر رجب من عامنا هذا - عامَ ستةٍ وعشرين وأربعمائة وألف - ضرب إعصارٌ مدمر غير مسبوق جنوبَ شرقِ (أمريكا)، حتى خلَّف آلاف القتلى ودماراً واسعاً في ثلاث ولاياتٍ أمريكية حتى جعل - بإذن الله - واحدةً منها خاويةً على عروشها وكأن لم تغنَ بالأمس! .. قال تعالى: " فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُون.".

ولقد شَبَّهَ حاكمُ أحدِ اتولاياتِ الأمريكية التي ضربها هذا الإعصار العظيم بأن ولايته هذه - التي أصبح جميع مبانيها حطاماً بسبب الإعصار - كمدينة (هيروشيما) التي دمرتها أمريكا بقنبلة ذرية قبل ستين عاماً (الموافق لـ 28/ 8 / 1363هـ) حتى قُتِل من أهلها وجُرح أكثر من مائة وثلاثين ألفاً ، وتحولت مبانيها إلى حطام وركام.

وقد قرأت بعض ما أعلنه بعض الناس ممن كان يقيم بهذه الولاية - التي أغرقها الإعصار بأمر ربِّه بفيضانات عظيمة وأمطار لا سابق لها - بأنها قد عَقَدت العَزْم بمحاربة الجبار - جل جلاله - بالقيام باحتفال كبير - يقومون به كلّ عام، وعلى مدى ثلاثٍ وثلاثين سَنَة -، ويضم اللوطية والزناة من مختلف أنحاء أمريكا والعالَم، ويبدأ هذا الحفل الخبيث - الذي يحضره أكثر من مائةِ ألفٍ من أشباه الرجال، والنساء من كل مكان - بالمعازف الصاخبة، وإذا شَرِبُوا من الخمور حتى الثُّمالة والسُّكْر قاموا بفعل الفواحش من اللواط والزنا والسِّحاق - والعياذ بالله -.

ولقد حَلم الله عليهم وأملى لهم أكثر من ثلاثين عاماً ، ولكنهم لَمَّا تمادوْا في طغيانهم شاء جبارُ السموات والأرض - الذي لا تتبدل ولا تتغير سُننه في إهلاك الظالمين - أن يغرقهم ويدمر مكانهم الذي هيئوه لهذا الاحتفال الماجن تدميراً ، وقبل ثلاثة أيام من إقامته أرسل الله على مدينتهم إعصاراً عظيماً قال رئيسهم (بوش) بأنه لم يسبق لأمريكا أن حلت بها كارثة (طبيعية) كهذه التي خلفها الإعصار بإذن الله حتى صارت تلك الولاية بأسرها ولايةً خاوية على عروشها!.

فسبحان القوي الجبار الذي يُملي للظالم حتى إذا أخذه لَم يُفلته، وإذا أراد أَخْذَه أَخَذه أَخْذ عزيزٍ مقتدر، فهل من معتبر والله تعالى يقول:" وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ " ؟!.

وإن مما يبين عظم ما حل بالقوم ما أعلنه الأمريكان بأنه قد انتحر من شُرطة هذه الولاية - التي أغرقها الإعصار بأمر ربه بفيضانات مدمرة وأمطار عارمة - قريباً من خمسمائة شرطي، وسبب انتحارهم هو أن نفوسهم لم تستطع تَحَمُّل ما شاهدته من الدمار العظيم الذي حلّ بمدينتهم هذه حتى هلك من ذويهم وأولادهم وأموالهم ومُمْتلكاتهم ما جعلهم يفضلون الموت على أن يبقوْا أحياء تتقطع نفوسهم حَسَرات على ما يشاهدونه من العذاب الذي حل بهم، وقد صدق الله:" وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُون."ِ

ولقد خلَّف ذلك الإعصار العظيم خسائرَ ماديةٍ وماليةٍ هائلةٍ قُدرت بأكثر من مائتي مليار دولار.

وما إن حاول القومُ التعافي من بعض صدمة هذا الإعصار المدمر حتى حَلَّ بساحتهم إعصار آخر أسموه بـ (ريتا) في العشرين من شهر شعبان، فزاد الطين بِلَّة، حتى استفحلت خسائرهم في الأرواح والممتلكات والأموال، والحمد لله رب العالمين " انتهى من كتاب التفكر والاعتبار .

فتأمل كيف حلم الله عليهم 33 سنة ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر بجندٍ واحدٍ من جنوده.

مما يترتب على معرفة هذا الاسم:

1- أن يتوب الإنسان إلى ربه الذي أمهله ولم يعجل له العقوبة ، وألا يتمادى في الذنب.

2- أن يتصف العبد بصفة الحلم فيكون حليماً لا يستعجل بالغضب والعقوبة ، بل إذا كان الله عز وجل يتجاوز عن المُخطئ والناسي فلماذا نحن البشر لا نتجاوز عن المُخطئ والناسي ؟! ، أنحنُ أحقُ من الله وأعظم ؟! لا والعياذ بالله ، فمن باب أولى أن نتجاوز ونعفو ونصفح.

تنبيه مُهم

بعد أن عرفت صفاته قل كيف بمن كانت هذه صفاته ألا يُسعى لرضاه ؟! ،كيف لا يسعى لمن في رضاه النعيم المقيم ، وفي سخطه العذاب الأليم ؟! ، كيف لا يُسعى لنيل محبة من كملت صفاته وحسنت أسمائه ؟! ،كيف لا ترتجي مكانةً عند من بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير ؟! ، كيف لا تنال رضاه ومن رحمته - وكمال ملكه وغناه - أن جعل رضاه بأيسر الأمور ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :" إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا " رواه مسلم، أهذا أمرٌ يهون عليك؟ ، أعظم غاية رضا الله وتنالها بأيسر الأمور وبعد كل هذا تزهد فيها ؟! ، لو كان عرضاً دنيوياً لبذلت فيه الجهد والأوقات ، وأضعت فيه الأعمار ، تعمل من أجل مرتب وأجر دنيوي شهراً كاملاً ، كل يوم ثمانية ساعات على الأقل ، ثم تفوِّت الأجر العظيم رضا رب العالمين الذي تناله في ثوانٍ ؟! .

وكذلك مما ينبغي التنبيه عليه بعد أن عرفت أهمية وأثر معرفة أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته ، وعرفت عظمة الله وكماله ، وعرفت أثرها على الإيمان ، عرفت لماذا شدد السلف النكير على أهل البدع الذين عطَّلوا صفات الله سبحانه وتعالى ؛ إذ ذلك إلحادٌ عظيم في أسماء الله وصفاته ، وهو بابٌ للمُلحدين ، وذلك انتقاصٌ لرب العالمين ، وانتقاصٌ لعظمةِ الله ، وتجنٍ على كبريائه ، وكذلك فيه تعطيلٌ لأثر هذه الأسماء والصفات على أفعال العباد ، فيترتب عليه عدم تعظيم الله ، وعدم مراقبته سبحانه وغير ذلك.

الفصل الرابع: التفكر في التشريعات

حُسن الشريعة

"الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ... (3" ( ]سورة المائدة[

الشريعة وحيٌ من الخالق الحكيم العليم بمصالح عباده وبما ينفعهم ، وفيها رضا الله وما يصلح الناس ، قال ابن القيم رحمه :" وَأما الشَّرِيعَة فمبناها على تَعْرِيف مواقع رضا الله وَسخطه فِي حركات الْعباد الاختيارية فمبناها على الْوَحْي الْمَحْض " انتهى كلامه من كتابه مفتاح دار السعادة.

قال الشيخ شحاتة صقر في كتابه الموسوعة الميسرة في الإعجاز العلمي :" نحن المسلمين على يقين من أن القرآن الكريم كلام رب العالمين، لأنه بيانٌ مُعجِز، وقد تحدى به المولى . العرب لأنه نزل بلغتهم، وقد كانوا أرباب البلاغة، وأساطين الفصاحة فعجزوا، وفضّلوا أن يواجهوه بالقتال لعجْزهم عن مواجهة ما تحداهم به بأن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو حتى بسورة من مثله .

ومن أوجه إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة الإعجاز في التشريعات، فإن ما اكتشفه النّاس اليوم يؤكّد أن التشريع الإسلامي مُعجِز ولا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله، مما يدلّ دلالة قاطعة على أنّ هذا التشريع من عند الله العليم الخبير، وليس من عند النبي محمد صلى الله عليه وسلم ولا صحابته ، لعدم مقدرتهم على معرفة وإدراك كثير من حِكَم وأسرار هذه التشريع."

وقال ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة :" فَهِيَ - أي دين الله وشريعته - نَفسهَا الشَّاهِد والمشهود لَهُ ، وَالْحجّة والمحتج لَهُ ، وَالدَّعْوَى والبرهان ، وَلَو لم يَأْتِ الرَّسُول ببرهان عَلَيْهَا لكفى بهَا برهاناً وَآيَة وَشَاهداً على أنها من عِنْد الله ، وَكلهَا شاهدة لَهُ بِكَمَال الْعلم وَكَمَال الْحِكْمَة وسعة الرَّحْمَة وَالْبر والاحسان والإحاطة بِالْغَيْبِ وَالشَّهَادَة وَالْعلم بالمباديء والعواقب."

وقال رحمه الله في نفس الكتاب :" وَتَأمل كَيفَ وصف الدّين الَّذِي اخْتَارَهُ لَهُم بالكمال ، وَالنعْمَة الَّتِي أسبغها عَلَيْهِم بالتمام ، إِيذَانًا فِي الدّين بِأَنَّهُ لَا نقص فِيهِ وَلَا عيب وَلَا خلل ، وَلَا شَيْء خَارِجاً عَن الْحِكْمَة بِوَجْه ، بل هُوَ الْكَامِل فِي حسنه وجلالته ، وَوصف النِّعْمَة بالتمام إِيذَانًا بدوامها واتصالها ، وَأَنه لَا يسلبهم إِيَّاهَا بعد إِذْ أعطاهموها ، بل يُتمهَا لَهُم بالدوام فِي هَذِه الدَّار وَفِي دَار الْقَرار.

وَتَأمل حسن اقتران التَّمام بِالنعْمَةِ وَحسن اقتران الْكَمَال بِالدّينِ ، وَإِضَافَة الدّين إليهم إِذْ هم القائمون بِهِ ، المقيمون لَهُ ، وأضاف النِّعْمَة إليه إِذْ هُوَ وَليهَا ومسديها والمنعم بهَا عَلَيْهِم ، فَهِيَ نعْمَته حَقًّا وهم قابلوها ، وأتى فِي الْكَمَال بِاللَّامِ المؤذنة بالاختصاص ، وَأَنه شَيْء خصوا بِهِ دون الأمم ، وَفِي إتْمَام النِّعْمَة بـ(على) المؤذنة بالاستعلاء."

وقال رحمه الله عن أقسام بصائر الناس في إبصار حِكَم الشريعة :" وبصائر النَّاس فِي هَذَا النُّور الباهر تَنْقَسِم إِلَى ثَلَاثَة أَقسَام:

أحدها : من عدم بَصِيرَة الإيمان جملَة ، فَهُوَ لَا يرى من هَذَا الصِّنْف إلا الظُّلُمَات والرعد والبرق ، فَهُوَ يَجْعَل أصبعيه فِي أذنيه من الصَّوَاعِق ، وَيَده على عينيه من الْبَرْق خشيَة أن يخطف بَصَره ، وَلَا يُجَاوز نظره مَا وَرَاء ذَلِك من الرَّحْمَة وأسباب الْحَيَاة الأبدية .

فَهَذَا الْقسم هُوَ الَّذِي لم يرفع بِهَذَا الدّين رَأْساً ، وَلم يقبل هدى الله الَّذِي هدى بِهِ عباده وَلَو جَاءَتْهُ كل آيَة ؛ لأنه مِمَّن سبقت لَهُ الشقاوة ، وحقت عَلَيْهِ الْكَلِمَة ، ففائدة إنذار هَذَا إِقَامَة الْحجَّة عَلَيْهِ ليعذب بِذَنبِهِ لَا بِمُجَرَّد علم الله فِيهِ.

الْقسم الثَّانِي : أَصْحَاب البصيرة الضعيفة الخفاشية الَّذين نِسْبَة إبصارهم إِلَى هَذَا النُّور كنسبة إبصار الخفاش إِلَى جرم الشَّمْس ، فهم تبع لآبائهم وأسلافهم ؛ دينهم دين الْعَادة والمنشأ ، وهم الَّذين قَالَ فيهم أمير الْمُؤمنِينَ علي بن أبي طَالب :" أَوْ منقاداً للحق لَا بصيرة لَهُ فِي إحيائه " ، فَهَؤُلَاءِ إِذا كَانُوا منقادين لأهل البصائر لَا يتخالجهم شكّ وَلَا ريب فهم على سَبِيل نجاة.

الْقسم الثَّالِث : وَهُوَ خُلَاصَة الْوُجُود ، ولباب بني آدم ، وهم أولو البصائر النافذة الَّذين شهِدت بصائرهم هَذَا النُّور الْمُبين فَكَانُوا مِنْهُ على بَصِيرَة ويقين ومشاهدة لحسنه وكماله ، بِحَيْثُ لَو عرض على عُقُولهمْ ضِدّه لرأوه كالليل البهيم الأسود ، وَهَذَا هُوَ المحك وَالْفرْقَان بَينهم وَبَين الَّذين قبلهم ، فَإِن أولئك - أي أصحاب البصيرة الضعيفة - بِحَسب داعيهم وَمن يقرن بهم ، كَمَا قَالَ فيهم عَليّ بن أبي طَالب :" اتِّبَاع كل ناعق ، يميلون مَعَ كل صائح ، لم يستضيئوا بِنور الْعلم ، وَلم يلجأوا إِلَى ركن وثيق " ، وهَذَا عَلامَة من عدم البصيرة أَنَّك ترَاهُ يستحسن الشَّيْء وضده ، ويمدح الشَّيْء ويذمه بِعَيْنِه إِذا جَاءَ فِي قالب لَا يعرفهُ ، فيُعَظِّم طَاعَة الرَّسُول وَيرى عَظِيماً مُخَالفَته ، ثمَّ هُوَ من أَشد النَّاس مُخَالفَة لَهُ ، ونفياً لما أثبته ، ومعاداة للقائمين بسنته ، وَهَذَا من عدم البصيرة.

فَهَذَا الْقسم الثَّالِث إِنَّمَا عَمَلهم على البصائر ، وَبهَا تفَاوت مَرَاتِبهمْ فِي دَرَجَات الْفضل كَمَا قَالَ بعض السّلف - وَقد ذكر السَّابِقين - فَقَالَ : إِنَّمَا كَانُوا يعْملُونَ على البصائر ، وَمَا أوتِي أُحْدُ أفضل من بَصِيرَة فِي دين الله وَلَو قصر فِي الْعَمَل ، قَالَ تَعَالَى :" وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) " ، قَالَ ابْن عَبَّاس رضي الله عنه وعن أبيه :" أولي الْقُوَّة فِي طَاعَة الله ، والأبصار فِي الْمعرفَة فِي أَمر الله " ، وَقَالَ قَتَادَة وَمُجاهد : " أُعطوا قُوَّة فِي الْعِبَادَة ، وبصراً فِي الدّين. "

وأَعْلَمُ النَّاس أبصرهم بِالْحَقِّ إِذا اخْتلف النَّاس وَإِن كَانَ مقصرا فِي الْعَمَل.

وَتَحْت كل من هَذِه الأقسام أنواع لَا يُحْصى مقادير تفاوتها إِلَّا الله " انتهى من مفتاح دار السعادة.

قال الشيخ شحاتة صقر في الموسوعة :" قد يجهل البعض تفاصيل المصلحة في حكم من الأحكام، ولكن هذا الجهل ليس بحجة على انتفاء المصلحة ؛ فإن الإنسان قد يجهل تفاصيل منفعة دواء ولكن جهله به لا يمنع من تحقيق المصلحة فيه ، فإذا كان هذا واقعيًا فيما يضعه إنسان فكيف لا يكون فيما يضعه خالق الانسان؟ هذه واحدة .

والثانية أن المصلحة المقصودة في التشريع الإسلامي لا تقتصر على مصالح الدنيا وإنما تتجاوزها إلى مصالح الآخرة ، أي إلى إعداد الإنسان للظفر بالسعادة الدائمة بالجنة."

وقال الشيخ :" بر الوالدين من محاسن الشريعة الإسلامية؛ ذلك أنه اعتراف بالجميل، وحفظ للفضل ."

وقال :" من محاسن الشريعة الإسلامية، أنها لم تُحرم شيئًا إلا عوضت خيرًا منه، مما يسدّ مسَدّه، ويغني عنه، فالله - سبحانه وتعالى - لم يضيق على عباده من جانب إلا وسَّع عليهم من جانب آخر من جنسه ، فإنه لا يُريد بعباده عنتًا ولا إرهاقًا ، بل يُريد بهم اليُسرَ والخير والهداية والرحمة ، فقد حرم الله على عباده الاستقسام بالأزلام ، وعوضهم عنه دعاء الاستخارة ، حرم عليهم الزنا ، وأعاضهم عنه الزواج الحلال، حرم عليهم شرب المسكرات، وأعاضهم عنها بالأشربة اللذيذة.

ليس في الدين حرمان كما يتوهم الجهلة ، فكل شهوة أودعها الله في الإنسان جعل لها قناةً نظيفةً تتحرك من خلالها، وكل حاجة ألجأ الله إليها عباده جعل لهم أكثر من سبب لتحقيقها ، فالحلال يُغني عن الحرام ، وهذا من محاسن الشريعة الإسلامية ؛ حيث إن البيوت المسلمة التي بُنيت على أساس الرضا والرغبة غالبًا ما تكون أكثر استقرارًا وطمأنينة."

وقال: " من محاسن الشريعة الإسلامية تحريم الكذب لما فيه من مضار ومفاسد على الفرد والمجتمع."

وقال :" ومن محاسن الشريعة أَنَّ الْوَالِيَ وَالْقَاضِيَ وَالشَّافِعَ مَمْنُوعُونَ مِنْ قَبُولِ الْهَدِيَّةِ ، وَهُوَ أَصْلُ فَسَادِ الْعَالَمِ، وَإِسْنَادُ الْأَمْرِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، وَتَوْلِيَةُ الْخَوَنَةِ وَالضُّعَفَاءِ وَالْعَاجِزِين."

وقال :" ومن محاسن الشريعة أَنَّهُ لَيْسَ لِلْقَاتِلِ مِنْ الْمِيرَاثِ شَيْءٌ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ تَوْرِيثَ الْقَاتِلِ ذَرِيعَةٌ إِلَى وُقُوعِ هَذَا الْفِعْلِ؛ فَسَدَّ الشَّارِعُ الذَّرِيعَةَ بِالْمَنْعِ .

ومن محاسن الشريعة أَنَّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نَهَى أَنْ يَخْطُبَ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ أَوْ يَسْتَامَ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ أَوْ يَبِيعَ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى التَّبَاغُضِ وَالتَّعَادِي .

ومن محاسن الشريعة أَنَّها نَهت الْمَرْأَةَ إِذَا خَرَجَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ أَنْ تَتَطَيَّبَ أَوْ تُصِيبَ بَخُورًا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى مَيْلِ الرِّجَالِ وَتَشَوُّفِهِمْ إِلَيْهَا، فَإِنَّ رَائِحَتَهَا وَزِينَتَهَا وَصُورَتَهَا وَإِبْدَاءَ مَحَاسِنِهَا تَدْعُو إِلَيْهَا؛ فَأَمَرَهَا أَنْ تَخْرُجَ تَفِلَةً، وَأَنْ لَا تَتَطَيَّبَ، وَأَنْ تَقِفَ خَلْفَ الرِّجَالِ، وَأَنْ لَا تُسَبِّحَ فِي الصَّلَاةِ إِذَا نَابَهَا شَيْءٌ، بَلْ تُصَفِّقَ بِبَطْنِ كَفِّهَا عَلَى ظَهْرِ الْأُخْرَى، كُلُّ ذَلِكَ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ وَحِمَايَةً عَنْ الْمَفْسَدَة.

ومن محاسن الشريعة أَنَّها نَهت أَنْ تُبَاعَ السِّلَعُ حَيْثُ تُبَاعُ حَتَّى تُنْقَلَ عَنْ مَكَانِهَا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى جَحْدِ الْبَائِعِ الْبَيْعَ وَعَدَمِ إِتْمَامِهِ إِذَا رَأَى الْمُشْتَرِي قَدْ رَبِحَ فِيهَا، فَيَغُرُّهُ الطَّمَعُ، وَتَشِحُّ نَفْسُهُ بِالتَّسْلِيمِ كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ.."

وللاستزادة راجع كتاب الموسوعة الميسرة في الإعجاز العلمي للشيخ شحاتة محمد صقر وكتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم رحمه الله .

في معرفة الحكمة العامة كفاية عن معرفة الحكمة الخاصة

" وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18) "[1]

" الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) "[2]

" إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) "[3]

إذا تقرر أن الله سبحانه وتعالى هو الحكيم فإن ذلك يؤدي إلى الإقرار بأن كل ما يصدر من الحكيم سبحانه وتعالى يكون لحكمة ، سواءً أحطنا بتلك الحكمة وعلمناها أم لا ، وغياب تفاصيل حكمة الشيء لا يستلزم خلوه عن الحكمة ، بل إن فيه حِكماً لا نعلمها ، ويكفينا معرفة أن الله عز وجل هو الحكيم وإيماننا بأنه ذو الحكمة الكاملة وتيقننا بذلك.

قال ابن القيم رحمه الله :" قد شهِدت الْفطر والعقول بِأَن للْعَالم رَبًّا قَادِرًا حَلِيمًا عليماً رحِيماً كَامِلاً فِي ذَاته وَصِفَاته ، لَا يكون إِلَّا مرِيداً للخير لِعِبَادِهِ ، مجرياً لَهُم على الشَّرِيعَة وَالسّنة الفاضلة العائدة باستصلاحهم ، الْمُوَافقَة لما ركب فِي عُقُولهمْ من اسْتِحْسَان الْحسن واستقباح الْقَبِيح ، وَمَا جبل طباعهم عَلَيْهِ من إِيثَار النافع لَهُم المصلح لشأنهم ، وَترك الضار الْمُفْسد لَهُم.

وَشهِدت هَذِه الشَّرِيعَة لَهُ بِأَنَّهُ أحكم الْحَاكِمين وأرحم الرَّاحِمِينَ ، وأنه الْمُحِيط بِكُل شَيْء علما .ِ

وَإِذا عرف ذَلِك فَلَيْسَ من الْحِكْمَة الإلهية - بل وَلَا الْحِكْمَة فِي مُلُوك الْعَالم - أنهم يسوون بَين من هُوَ تَحت تدبيرهم فِي تعريفهم كلما يعرفهُ الْمُلُوك ، وإعلامهم جَمِيع مَا يعلمونه ، وإطلاعهم على كل مَا يجرونَ عَلَيْهِ سياساتهم فِي أنفسهم وَفِي مَنَازِلهمْ ، حَتَّى لَا يقيمو فِي بلد فِيهَا إِلَّا أخبروا من تَحت أيديهم بِالسَّبَبِ فِي ذَلِك ، وَالْمعْنَى الَّذِي قصدوه مِنْهُ ، وَلَا يأمرون رعيتهم بِأَمْر ، وَلَا يضْربُونَ عَلَيْهِم بعثاً ، وَلَا يسوسونهم سياسة إِلَّا أخبروهم بِوَجْه ذَلِك وَسَببه وغايته ومدته ، بل لَا تتصرف بهم الأحوال فِي مطاعمهم وملابسهم ومراكبهم إِلَّا أوقفوهم على أغراضهم فِيه.ِ

وَلَا شكّ أن هَذَا منَاف للحكمة والمصلحة بَين المخلوقين ، فَكيف بشأن رب الْعَالمين وأحكم الْحَاكِمين ، الَّذِي لَا يُشَارِكهُ فِي علمه وَلَا حكمته أُحْدُ أبداً ، فَحسب الْعُقُول الْكَامِلَة أن تستدل بِمَا عرفت من حكمته على مَا غَابَ عَنْهَا ، وَتعلم أن لَهُ حِكْمَة فِي كل مَا خلقه وَأمر بِهِ وشرعه ، وَهل تَقْتَضِي الْحِكْمَة أن يخبر الله تَعَالَى كل عبد من عباده بِكُل مَا يَفْعَله ؟! ، ويوقفهم على وَجه تَدْبيره فِي كل مَا يُريدهُ ؟! ، وعَلى حكمته فِي صَغِير مَا ذَرأ وبرأ من خليقته ؟! ، وَهل فِي قوى الْمَخْلُوقَات ذَلِك ؟! ، بل طوى سُبْحَانَهُ كثيراً من صنعه وَأمره عَن جَمِيع خلقه ، فَلم يطلع على ذَلِك ملكاً مقرباً وَلَا نَبياً مُرْسلا .ِ

---

(1) سورة الأنعام.
(2) سورة هود.
(3) سورة يوسف.

وَالْمُدبر الْحَكِيم من الْبشر إِذا ثبتَتْ حكمته وابتغاؤه الصّلاح لمن تَحت تَدْبيره وسياسته كُفِي فِي ذَلِك تتبع مقاصده فِيمَن يولي ويعزل ، وَفِي جنس مَا يَأْمر بِهِ وَيُنْهِي عَنهُ ، وَفِي تَدْبيره لرعيته وسياسته لَهُم دون تفاصيل كل فعل من أفعاله "[1] .

وخلاصة ما يقصده ابن القيم رحمه الله أن الملوك قد يتخذون قراراً ويأمرون بأمرٍ دون أن يُخبروا الناس بتفاصيل ذلك وأسبابه ، كما أنك قد تتخذ قراراً لسببٍ يخفى على الناس لكنك تعلمه ، وتفهم ما الذي تريد أن تصل إليه بذلك ، وعدم معرفة الناس بسبب قرارك لا يسلتزم أن يكون قرارك بلا سببٍ وحكمة ، ولله المثل الأعلى.

وقال رحمه الله :" وَإِذا عرف هَذَا فقد عُلِمَ أن رب الْعَالمين أحكم الْحَاكِمين ، والعالم بِكُل شَيْء والغني عَن كل شَيْء ، والقادر على كل شَيْء ، وَمن هَذَا شَأْنه لم تخرج أَفعاله وأوامره قطّ عَن الْحِكْمَة وَالرَّحْمَة والمصلحة ، وَمَا يخفى على الْعباد من مَعَاني حكمته فِي صنعه وإبداعه وأمره وشرعه فيكفيهم فِيهِ مَعْرِفَته بِالْوَجْهِ الْعَام أن تضمنته حِكْمَة بَالِغَة وَإِن لم يعرفوا تفصيلها ، وَأَن ذَلِك من علم الْغَيْب الَّذِي اسْتَأْثر الله بِهِ ، فيكفيهم فِي ذَلِك الإسناد إِلَى الْحِكْمَة الْبَالِغَة الْعَامَّة الشاملة الَّتِي علمُوا مَا خَفِي مِنْهَا بِمَا ظهر لَهُم.

هَذَا وَأَن الله تَعَالَى بنى أمور عباده على أن عرفهم مَعَاني جلائل خلقه وَأمره دون دقائقهما وتفاصيلهما ، وَهَذَا مطرد فِي الأشياء أصولها وفروعها "[1].

---

(1) مفتاح دار السعادة.

محاسن الصلاة

" وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) "[1]

"وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗ
وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45) "[2]

قال ابن القيم رحمه الله :" فَالصَّلَاة قد وضعت على أكمل الْوُجُوه وأحسنها الَّتِي تعبَّد بهَا الْخَالِق تبَارك وَتَعَالَى عباده من تضمنها للتعظيم لَهُ بأنواع الْجَوَارِح ؛ من نطق اللِّسَان ، وَعمل الْيَدَيْنِ وَالرّجلَيْنِ وَالرَّأْس وحواسه وَسَائِر أَجزَاء الْبدن ، كل يَأْخُذ حظه من الْحِكْمَة فِي هَذِه الْعِبَادَة الْعَظِيمَة الْمِقْدَار ، مَعَ أَخذ الْحَواس الْبَاطِنَة بحظها مِنْهَا ، وَقيام الْقلب بِوَاجِب عبوديته فِيهَا.

فَهِيَ مُشْتَمِلَة على الثَّنَاء وَالْحَمْد والتمجيد وَالتَّسْبِيح وَالتَّكْبِير ، وَشَهَادَة الْحق ، وَالْقِيَام بَين يَدي الرب مقَام العَبْد الذَّلِيل الخاضع الْمُدبر المربوب.

ثمَّ التذلل لَهُ فِي هَذَا الْمقَام والتضرع والتقرب إِلَيْهِ بِكَلَامِهِ ، ثمَّ انحناء الظّهْر ذلاً لَهُ وخشوعاً واستكانة ، ثمَّ استواؤه قَائِماً ليستعد لخضوع أكمل لَهُ من الخضوع الأول - وَهُوَ السُّجُود من قيام - فَيَضَع أشرف شَيْء فِيهِ - وَهُوَ وَجهه - على التُّرَاب خشوعاً لرَبه واستكانة وخضوعاً لعظمته وذلاً لعزته ، قد انْكَسَرَ لَهُ قلبه ، وذل لَهُ جِسْمه ، وخشعت لَهُ جوارحه.

ثمَّ يَسْتَوِي قَاعِداً يتَضَرَّع لَهُ ويتذلل بَين يَدَيْهِ ، ويسأله من فَضله ، ثمَّ يعود إِلَى حَاله من الذل والخشوع والاستكانة ، فَلَا يزَال هَذَا دأبه حَتَّى يقْضِي صلَاته ، فيجلس عِنْد إِرَادَة الِانْصِرَاف مِنْهَا مثنياً على ربه ، مُسلِّماً على نبيه وعَلى عباده ، ثمَّ يصلي على رَسُوله ، ثمَّ يسْأَل ربه من خَيره وبره وفضله.

فَأَي شَيْء بعد هَذِه الْعِبَادَة من الْحسن ؟ ، وَأي كَمَال وَرَاء هَذَا الْكَمَال ؟ ، وَأي عبودية أشرف من هَذِه الْعُبُودِيَّة ؟ "[3].

---

(1) سورة طه.
(2) سورة العنكبوت.
(3) مفتاح دار السعادة.

محاسن الزكاة

" الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (274) "[1]

قال ابن القيم رحمه الله :" وَأما حسن الزَّكَاة وَمَا تضمنته من مواساة ذَوي الْحَاجَات والمسكنة والخلة من عباد الله الَّذين يعجزون عَن إِقَامَة نُفُوسهم وَيخَاف عَلَيْهِم التّلف إِذا خلاهم الْأَغْنِيَاء وأنفسَهم ، وَمَا فِيهَا من الرَّحْمَة وَالْإِحْسَان وَالْبر والطهرة ، وإيثار أهل الإيثار ، والاتصاف بِصفة الْكَرم والجود وَالْفضل ، وَالْخُرُوج من سماة أهل الشُّح وَالْبخل والدناءة فَأمر لَا يستريب عَاقل فِي حسنه ومصلحته ، وَأَن الْآمِر بِهِ أحكم الْحَاكِمين ، وَلَيْسَ يجوز فِي الْعقل وَلَا فِي الْفطْرَة الْبَتَّةَ أَن ترد شَرِيعَة من الْحَكِيم الْعَلِيم بضد ذَلِك أبدا "[2] .

---

(1) سورة البقرة.

(2) مفتاح دار السعادة.

محاسن الصيام

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183" (
]سورة البقرة[

قال ابن القيم رحمه الله :" وَأما الصَّوْم فناهيك بِهِ من عبَادَة تكف النَّفس عَن شهواتها ، وتخرجها عَن شبه الْبَهَائِم إِلَى شبه الْمَلَائِكَة المقربين ؛ فَإِن النَّفس إِذا خُلِّيت ودواعي شهواتها التحقت بعالم الْبَهَائِم ، فَإِذا كفت شهواتها لله ضيقت مجاري الشَّيْطَان ، وَصَارَت قريبَة من الله بترك عَادَتهَا وشهواتها محبَّة لَهُ وإيثاراً لمرضاته وتقرباً إِلَيْهِ ، فيدع الصَّائِم أحب الْأَشْيَاء إِلَيْهِ وَأَعْظَمهَا لصوقاً بِنَفسِهِ من الطَّعَام وَالشرَاب وَالْجِمَاع من أجل ربه ، فَهُوَ عبَادَة ، وَلَا تُتَصَوَّر حَقِيقَتهَا إِلَّا بترك الشَّهْوَة لله ، فالصائم يدع طَعَامه وَشَرَابه وشهواته من أجل ربه ، وَهَذَا معنى كَون الصَّوْم لَهُ تبَارك وَتَعَالَى ، وَبِهَذَا فسر النَّبِي هَذِه الْإِضَافَة فِي الحَدِيث فَقَالَ :" يَقُول الله تَعَالَى: كل عمل ابْن آدم يُضَاعف الْحَسَنَة بِعشْرَة أَمْثَالهَا ، قَالَ الله: إِلَّا الصَّوْم ؛ فَأَنَّهُ لي وَأَنا أجزي بِهِ يدع طَعَامه وَشَرَابه من أجلي . "

حَتَّى أَن الصَّائِم ليتصور بِصُورَة من لَا حَاجَة لَهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا فِي تَحْصِيل رضا الله ، وَأي حسن يزِيد على حسن هَذِه الْعِبَادَة الَّتِي تكسر الشَّهْوَة ، وتقمع النَّفس وتحيي الْقلب وتفرحه ، وتزهد فِي الدُّنْيَا وشهواتها ، وترغب فِيمَا عِنْد الله ، وتذكر الْأَغْنِيَاء بشأن الْمَسَاكِين وأحوالهم ، وَأَنَّهُمْ قد أخذُوا بِنَصِيب من عيشهم ، فتعطف قُلُوبهم عَلَيْهِم ، ويعلمون مَا هم فِيهِ من نعم الله فيزدادوا لَهُ شكراً .

وَبِالْجُمْلَةِ فعون الصَّوْم على تقوى الله أَمر مَشْهُور ، فَمَا اسْتَعَانَ أحد على تقوى الله وَحفظ حُدُوده وَاجْتنَاب مَحَارمه بِمثل الصَّوْم ، فَهُوَ شَاهد لمن شَرعه وَأمر بِهِ بِأَنَّهُ أحكم الْحَاكِمين وأرحم الرَّاحِمِينَ ، وَأَنه إِنَّمَا شَرعه إحسانا إِلَى عباده وَرَحْمَة بهم ولطفاً بهم ، لَا بخلاً عَلَيْهِم برزقه وَلَا مُجَرّد تَكْلِيف وتعذيب خَال من الْحِكْمَة والمصلحة ، بل هُوَ غَايَة الْحِكْمَة وَالرَّحْمَة والمصلحة ، وَأنّ شَرْعَ هَذِه الْعِبَادَات لَهُم من تَمام نعْمَته عَلَيْهِم وَرَحمته بهم " انتهى من مفتاح دار السعادة.

فالصوم يكسر الشهوة ويُحِدُّ منها ، ومن ضبط بطنه ضبط دينه ، وإن معصية الله بعيدة من الجائع ، قريبةٌ من الشبعان كما قال إبراهيم بن أدهم ، وقال ابن رجب رحمه الله في جامع العلوم والحكم :" أَمَّا مَنَافِعُهُ - أي تقليل الطعام - بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقَلْبِ وَصَلَاحِهِ، فَإِنَّ قِلَّةَ الْغِذَاءِ تُوجِبُ رِقَّةَ الْقَلْبِ، وَقُوَّةَ الْفَهْمِ، وَانْكِسَارَ النَّفْسِ، وَضَعْفَ الْهَوَى وَالْغَضَبِ، وَكَثْرَةُ الْغِذَاءِ تُوجِبُ ضِدَّ ذَلِك."

وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ زَائِدَةَ قَالَ:" كَتَبَ إِلَيَّ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَصِحَّ جِسْمُكَ، وَيَقِلَّ نَوْمُكَ، فَأَقِلَّ مِنَ الْأَكْلِ " ، وَعَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي رَوَّادٍ قَالَ:" كَانَ يُقَالُ: قِلَّةُ الطَّعْمِ عَوْنٌ عَلَى التَّسَرُّعِ إِلَى الْخَيْرَاتِ. " انتهى من جامع العلوم والحكم.

رُوِيَ أَنَّ ابْنَ مَاسَوَيْهِ الطَّبِيبَ لَمَّا قَرَأَ هَذَا الْحَدِيثَ – أي حديث :" ما ملأ ابن آدم وعاء شر من بطنه " قَالَ:" لَوِ اسْتَعْمَلَ النَّاسُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، سَلِمُوا مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ، وَلَتَعَطَّلَتِ الْمَارِسْتَانَاتُ وَدَكَاكِينُ الصَّيَادِلَةِ " ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا؛ لِأَنَّ أَصْلَ كُلِّ دَاءٍ التُّخَم.

وَعَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ قَالَ:" إِذَا أَرَدْتَ حَاجَةً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَا تَأْكُلْ حَتَّى تَقْضِيَهَا، فَإِنَّ الْأَكْلَ يُغَيِّرُ الْعَقْلَ."

وَعَنْ قَثْمٍ الْعَابِدِ قَالَ:" كَانَ يُقَالُ: مَا قَلَّ طُعْمُ امْرِئٍ قَطُّ إِلَّا رَقَّ قَلْبُهُ، وَنَدِيَتْ عَيْنَاه."

وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الْحَارِثِ:" مَا شَبِعْتُ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً " ، وَعَنِ الشَّافِعِيِّ، قَالَ:" مَا شَبِعْتُ مُنْذُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً إِلَّا شِبْعَةً اطَّرَحْتُهَا، لِأَنَّ الشِّبَعَ يُثْقِلُ الْبَدَنَ، وَيُزِيلُ الْفِطْنَةَ، وَيَجْلِبُ النَّوْمَ، وَيُضْعِفُ صَاحِبَهُ عَنِ الْعِبَادَة ."

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ:" الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ " ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَأْكُلُ بِأَدَبِ الشَّرْعِ، فَيَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ بِمُقْتَضَى الشَّهْوَةِ وَالشَّرَهِ وَالنَّهَمِ، فَيَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءِ.

وفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ:" مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ خُبْزِ بُرٍّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا حَتَّى قُبِضَ " ، وَلِمُسْلِمٍ: قَالَتْ:" مَا شَبِعَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ" ، وَخَرَّجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:" مَا شَبِعَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ طَعَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى قُبِضَ" ، وَعَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ."

وَقد نَدَبَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ التَّقَلُّلِ مِنَ الْأَكْلِ وَالِاكْتِفَاءِ بِبَعْضِ الطَّعَامِ إِلَى الْإِيثَارِ بِالْبَاقِي مِنْهُ، فَقَالَ:" طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الِاثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الِاثْنَيْنِ يَكْفِي الثَّلَاثَةَ، وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ فَأَحْسَنُ مَا أَكَلَ الْمُؤْمِنُ فِي ثُلُثِ بَطْنِهِ، وَشَرِبَ فِي ثُلُثٍ، وَتَرَكَ لِلنَّفْسِ ثُلُثًا."

والصيام يجعل المؤمن يشعر بما يشعر به الفقراء والمساكين فيرق قلبه لهم ، كما أنه يقوي المناعة ، ويقي من مرض السمنة وأخطاره كتصلب الشرايين وغيرها ، بل إن الشبع أصلُ الأمراض ، فتأمل كيف أن الصوم أصلٌ جامع لأصول الطب ، هذا غير فوائد الصيام الاقتصادية ، وفوائده كثيرة.

ولمّا تبيّن للغرب أهمية الصيام لجؤوا إلى ما يُسمى بالصيام المتقطع وغيره من أنظمة الحمية ، والمؤمن يُثاب ويؤجر على صيامه ، وهؤلاء لا يؤجرون ، بل كل ما يحصلونه هو فوائد دنيوية ، وهي فوائد أقل من فوائد الصيام الذي شرعه الله سبحانه وتعالى ، إذ هو الخالق ، وهو العليم.

والأهم من الفوائد الدنيوية ما يحصله الإنسان من الفوائد الآخروية من رضا الله سبحانه وتعالى وتحصيل الأجور والمباعدة من النيران ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :" مَن صامَ يَوْمًا في سَبيلِ اللَّهِ، بَعَّدَ اللَّهُ وجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا " رواه البخاري ومسلم ، فتأمل عِظَم هذا الأجر وكرم الله سبحانه وتعالى.

محاسن الحج

" وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ... (196) "[(1)]

" وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) "[(2)]

قال ابن القيم رحمه الله :" وَأما الْحَج فشأن آخر لَا يُدْرِكهُ إِلَّا الحنفاء الَّذين ضربوا فِي الْمحبَّة بِسَهْم ، وشأنه أجل من أَن تحيط بِهِ الْعبارَة ، وَهُوَ خَاصَّة هَذَا الدّين الحنيف حَتَّى قيل فِي قَوْله تَعَالَى : " حنفَاء لله غير مُشْرِكين" أَي حجاجا .

وَجعل الله بَيته الْحَرَام قيَاماً للنَّاس ، فَهُوَ عَمُود الْعَالم الَّذِي عَلَيْهِ بِنَاؤُه ، فَلَو ترك النَّاس كلهم الْحَج سنة لخرت السَّمَاء على الأَرْض ، هَكَذَا قَالَ ترجمان الْقُرْآن ابْن عَبَّاس ، فالبيت الْحَرَام قيام الْعَالم ، فَلَا يزَال قيَاماً مَا زَالَ هَذَا الْبَيْت محجوجاً ، فالحج هُوَ خَاصَّة الحنيفية ، ومعونة الصَّلَاة ، وسر قَول العَبْد : لَا إِلَه إِلَّا الله ، فَإِنَّهُ مؤسس على التَّوْحِيد الْمَحْض ، والمحبة الْخَالِصَة ، وَهُوَ استزارة المحبوب لأحبابه ، ودعوتهم إِلَى بَيته وَمحل كرامته ، وَلِهَذَا إِذا دخلُوا فِي هَذِه الْعِبَادَة فشعارهم : لبيْك اللَّهُمَّ لبيْك ، إِجَابَة محب لدَعْوَة حَبِيبه ، وَلِهَذَا كَانَ لِلتَّلْبِيَةِ موقع عِنْد الله ، وَكلما أَكثر العَبْد مِنْهَا كَانَ أحب إِلَى ربه وأحظى فَهُوَ لَا يملك نَفسه أَن يَقُول : لبيْك لبيْك حَتَّى يَنْقَطِع نَفسه .

وَأما أسرار مَا فِي هَذِه الْعِبَادَة من الْإِحْرَام وَاجْتنَاب العوائد وكشف الرَّأْس وَنزع الثِّيَاب الْمُعْتَادَة وَالطّواف وَالْوُقُوف بِعَرَفَة وَرمى الْجمار وَسَائِر شَعَائِر الْحَج فمما شهِدت بحسنه الْعُقُول السليمة وَالْفطر المستقيمة وَعَلِمَت بِأَن الَّذِي شرع هَذِه لَا حِكْمَة فَوق حكمته "[(3)].

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله :" وهذا المجمع - مجمع الحج - يذكر بيوم القيامة ، مجمع عظيم من أقطار الدنيا يجتمعون في عرفات وفي مزدلفة وفي أنحاء مكة ، حتى يقضوا مناسكهم ثم يعودون إلى بلادهم، هذا فيه تذكير بذلك اليوم العظيم يوم القيامة، حيث يبعث الله الخلائق أولهم وآخرهم أسودهم وأبيضهم غنيهم وفقيرهم ملكهم ومملوكهم، كل الأجناس تبعث يوم القيامة، قال تعالى: "قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ " ثم يجازى كل عامل بعمله، فهذا يعطى كتابه بيمينه وإلى الجنة، وهذا يعطى كتابه بشماله وإلى النار.

إذا نظرت في أحوال الناس في هذا المجمع واختلاف ألوانهم واختلاف لغاتهم واختلاف حوائجهم واختلاف ملابسهم، إلى غير ذلك تذكر يوما يجمع الله فيه الخلائق عراة حفاة غرلاً، كلهم يخرجون يوم القيامة من هذه القبور، ومن البحار ومن كل مكان، ويجمعون ، عارية ظهورهم ليس عليهم شيء وليس في أرجلهم شيء، حتى يكسوهم الله سبحانه وتعالى، يحشرون ويجمعون ويجازون بأعمالهم، فانتبه لهذا اليوم "[(4)].

---

(1) سورة البقرة.

(2) سورة آل عمران.

(3) مفتاح دار السعادة.

(4) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة – ابن باز .

الحدود

"أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50" (
]سورة المائدة[

"ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10" (
]سورة الممتحنة[

"إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ
يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90" (
]سورة النحل[

" يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا "
[صحيح مسلم]

الحدود شرعها الله سبحانه وتعالى ردعاً للطغاة البغاة المجرمين ، ووضعها سبحانه وتعالى حفظاً للدين والنفس والعقل والنسل والمال ، وحتى يحدث ذلك فلابد أن تكون هذه الحدود رادعة.

وليس من العقل معارضة العقوبات بحجة أنها مؤلمة ، فطبيعة العقوبة أن تكون مؤلمة لأنها للزجر والمنع والحفاظ على الحقوق ، وإلا لو لم تكن رادعة ومؤلمة لتعدى الناس على الحقوق وانتهكوا الأعراض ، وانتشر البغي والظلم والفساد.

حد السرقة

"وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا ، نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"
]سورة المائدة[

لو تأملت حد السرقة لوجدته حداً رادعاً زاجراً ، ولو تم تطبيقه لوجدت مُعدلات السرقة أدنى أدنى ما تكون ، فإن اليد هي آلة السرقة ، فإذا ما عُطِّلتْ هذه الآلة لم يستطع صاحبها السرقة.

وكيف يجرؤ السارق على أن يسرق بنعمة اليد التي أنعم الله بها عليه ، والإنسان لا يستطيع أن يعصي الله إلا بنعمه عليه ، " إن الإنسان لظلوم كفّار."

وتأمل كيف أن هذه اليد حقها الإكرام ، إذ أن فيها الدية ، فإذا ما استُعمِلت في معصية الله سقطت عنها الدية ، بل وصار حقها أن تُقطع .

تحريم الخمر

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ "

]سورة البقرة[

الخمر أم الكبائر ، فمن شرب الخمر سقط في الغالب في كبائر أُخر ، وتأمل كيف تتبع الكبائر أمها ، فإذا ما خالطت الخمر الإنسان فعل بعد ذلك منكرات الأفعال ، وسقطت عنه الحِشمة والضمير ، فيقتل ويزني ويعتدي وغير ذلك من القبائح.

والعقل حقه التكريم لا الإذلال ، فالذي يُغيِّبُ عقله بهذه الخبائث لم يحترم عقله ، ولم يعطِه حقه ، بل إنه أهانه غاية الإهانة ، ألا ترى أن السكران تشبه أفعاله المجنون ؟! ، فهذا عِوضاً من أن يحمد الله على نعمة العقل - والتي حقها أن تُحفظ – داس عليها ، وانحدر بذلك إلى درك السافلين الأسفلين.

القصاص

"وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179 " (
]سورة البقرة[

من أعظم مقاصد الإسلام المحافظة على النفس ، ومن أجل الحفاظ على هذه النفوس حرّم الله قتلها بغير حق ، ورتب الذنب العظيم على من فعل ذلك ، ووضع حداً رادعاً وهو القصاص ، فمن عَرِف أنه سيُقتلُ إذا قتل فإنه لن يقتل ، وسيتراجع عن قراره ، قال الشيخ شحاتة صقر في الموسوعة : " فالقصاص شُرِع لتحقيق هذه المصلحة وهي الحياة للناس، أي الأمن والاستقرار والاطمئنان وحقن الدماء بزجر مَن تسول له نفسه الاعتداء على أرواح الناس."

ولذلك تجد معدلات جريمة القتل عالية في الدول التي تكون فيها عقوبة القتل السجن ؛ لأنها عقوبة غير زاجرة ولا رادعة ، فلا يتم حفظ النفس بذلك.

بل تلك قاعدةٌ عامة ، وهي أن كل حدٍ ليس برادعٍ ولا زاجر تزداد معدلات جريمته ، فكلما ازداد الحدُ ردعاً وزجراً مع استصحاب أنه عادل ومناسب للجريمة قلَّت الجريمة بالمقابل ، والعكس بالعكس ولا أعدل من حكم الله ، والله أحكم الحاكمين ، فجميع أوامره سبحانه وتعالى مُحكمة.

وهذه الحدود إنما هي لإقامة العدل على الأرض وحفظ حقوق الناس ، لا لظلمهم ، وإنك لتجد بعض الناس يدافعون عن المجرم بحجة الإنسانية وحقوق الإنسان ! نسألهم :" أين حقوق المُعتدى عليه إذن ؟ " ، ومثل هؤلاء جرؤوا المجرمين على جرمهم ، فإذا ما قتل القاتل دافعوا عنه وقالوا : " يُسجَن ولا يُقتل " ، أين حقوق المقتول ؟ ، هل سجنُ هذا يُعادِل ويُساوي قتل ذلك ؟! ، وهل هذا جزاءٌ مُنصِف ؟.!

وتأمل كذلك مقدار الحياة البائسة المزعجة التي سيعيشها ذلك المجرم خلف القضبان ، أليس الأفضل له أن يُقتل عِوضاً من حبسه مدى الحياة ؟! ، وبالنسبة لتحديد سنين للحبس في جريمة القتل لو تأملت هذه المسألة لوجدت اعتراضاتٍ كثيرةٍ تواجهها ، فبأي معيار تُقاس تلك السنين ؟ ، فالحاصل أن العواطف لو لم تُضبط بالشرع صارت عواصف ، فإذا رامت النفع أضرت من حيث لا تشعر ، ولا حكم خير من حكم رب العالمين وأرحم الراحمين العليم الحكيم.

حد الردة

"وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ "
]سورة البقرة[

"وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ "
]سورة البقرة[

"كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ "
]سورة البقرة[

"وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُه ۚ
وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم" ٍ
]سورة آل عمران[

فسر المفسرين " الفتنة " في قول الله تعالى :" وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ " أنها الكفر بالله تعالى ، وقد تقدَّم معنا أن أعظم الحقوق حقوق العظيم سبحانه وتعالى ، وجحد حق الغير من أعظم الظلم فكيف بجحد حق الله سبحانه وتعالى ؟ ، الله سبحانه وتعالى خلقك من العدم فأوجدك ، وفي أحسن تقويم ركبك ، وأطعمك من الطيبات ورزقك ، وأرسل لك الرسل ، وأنزل لك الكتب ، وبيّن لك الحق بدلائله ، ثم تأتي بعد ذلك وتجحده ؟! ، ما أعظمه من ظلم ، وما أقبحه من ذنب.

لو أن مُعتدياً تعدى على حقوقك أو قتل أخاك مثلاً لطالبت بحقوقك ولطالبت بدم أخيك ، فكيف بمن اعتداء على حق الله سبحانه وتعالى ؟! ، أيهون ذلك عليك.

ومن الحِكَم التي تتجلى لنا في حد الردة هذا الحفاظ على المسلمين وعدم فتنتهم ، فإن الإسلام هو الحق بلا شك ، ولكن كثيراً من الناس تغلب عليهم الشهوة وتُغيّب عقولهم ، فإذا ما عُرِض عليه الكُفر مقابل عرضٍ من الدنيا قليل كفر ولم يبالي وخَسِر الآخرة ، فإذا ما رُدِع بهذا الحد بقي على إسلامه وفاز بالآخرة حتى لو فات عليه عرضٌ من الدنيا قليل ، " فما متاع الدنيا في الآخرة إلا قليل " .

حجاب العفة وتكريم المرأة

" يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59 " ( ]سورة الأحزاب[

قال الشيخ أحمد بن عبد الرحمن الصويان:" كنت في زيارة لأحد المراكز الإسلامية في ألمانيا فرأيت فتاة متحجبة حجابًا شرعيًا ساترًا قلَّ أن يوجد مثله في ديار الغرب؛ فحمدتُ الله على ذلك، فأشار عليَّ أحد الإخوة أن أسمع قصة إسلامها مباشرة من زوجها، فلما جلستُ مع زوجها قال: " زوجتي ألمانية أبًا لجدٍّ، وهي طبيبة متخصصة في أمراض النساء والولادة، وكان لها عناية خاصة بالأمراض الجنسية التي تصيب النساء، فأجْرَت عددًا من الأبحاث على كثير من المريضات اللاتي كُنَّ يأتين إلى عيادتها، ثم أشار عليها أحد الأطباء المتخصصين أن تذهب إلى دولة أخرى لإتمام أبحاثها في بيئة مختلفة نسبيًا، فذهَبَتْ إلى النرويج، ومكثت فيها ثلاثة أشهر، فلم تجد شيئًا يختلف عمَّا رأته في ألمانيا، فقررت السفر للعمل لمدة سنة في السعودية .

تقول الطبيبة:" فلما عزمتُ على ذلك أخَذْتُ أقرأ عن المنطقة وتاريخها وحضارتها، فشعَرْتُ بازدراء شديد للمرأة المسلمة، وعجبتُ منها كيف ترضى بذُلِّ الحجاب وقيوده، وكيف تصبر وهي تُمتهَن كل هذا الامتهان؟.!

ولمَّا وصلتُ إلى السعودية علِمْتُ أنني ملزمة بوضع عباءة سوداء على كتفيَّ، فأحسست بضيق شديد وكأنني أضع إسارًا من حديد يقيدني ويشلُّ من حريتي وكرامتي !! ، ولكني آثرت الاحتمال رغبةً في إتمام أبحاثي العلمية .

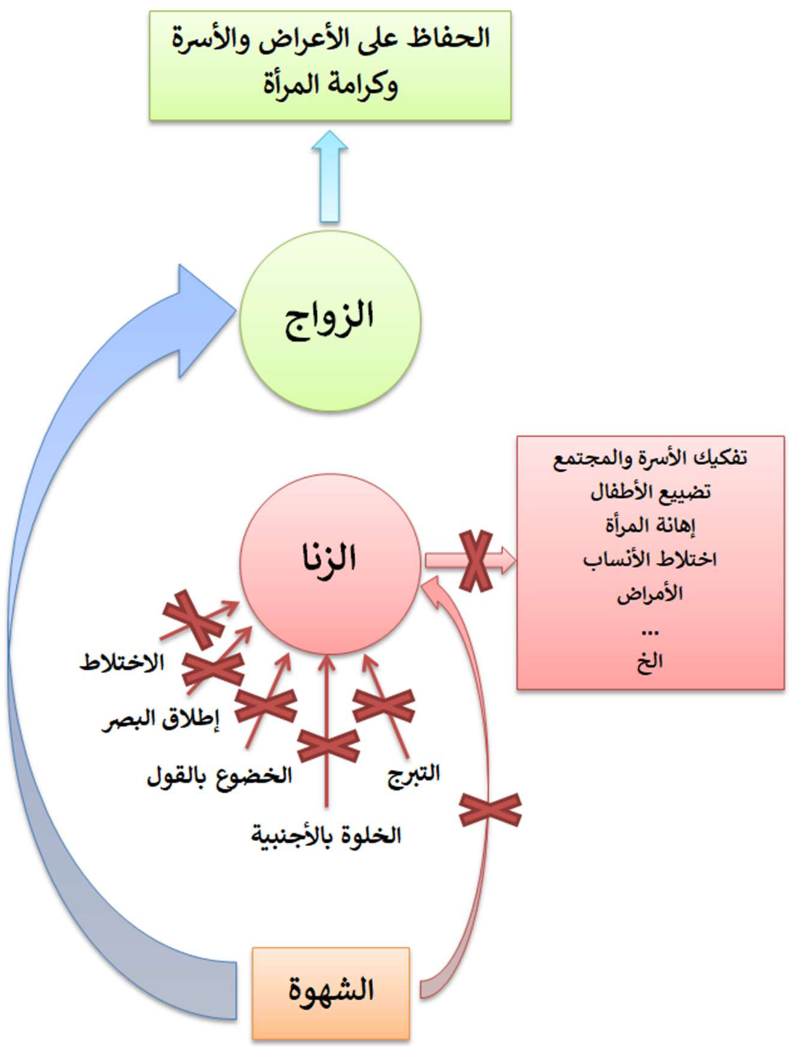
لبِثْتُ أعمل في العيادة أربعة أشهر متواصلة، ورأيت عددًا كبيرًا من النسوة، ولكني لم أقف على مرض جنسي واحد على الإطلاق؛ فبدأتُ أشعر بالملل والقلق، ثم مضت الأيام حتى أتمَمْتُ الشهر السابع، وأنا على هذه الحالة، حتى خرجت ذات يوم من العيادة مغضَبة ومتوترة .

فسألتني إحدى الممرضات المسلمات عن سبب ذلك، فأخبرتها الخبر، فابتسمت وتمتمت بكلام عربي لم أفهمْه، فسألْتُها:" ماذا تقولين؟! " ، فقالت:" إن ذلك ثمرة الفضيلة، وثمرة الالتزام بقول الله تعالى في القرآن الكريم:" وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35." (

هزتني هذه الآية وعرّفتني بحقيقة غائبة عندي، وكانت تلك بداية الطريق للتعرف الصحيح على الإسلام، فأخذْتُ أقرأ القرآن العظيم والسنة النبوية، حتى شرح الله صدري للإسلام، وأيقنتُ أنَّ كرامة المرأة وشرفها إنما هو في حجابها وعفتها، وأدركت أن أكثر ما كُتب في الغرب عن الحجاب والمرأة المسلمة إنما كتب بروح غربية مستعلية لم تعرف طعم الشرف والحياء." !

إن الفضيلة لا يعدلها شيء، ولا طريق لها إلا الالتزام الجاد بهدي الكتاب والسنة، وما ضاعت الفضيلة إلا عندما استُخدمت المرأة ألعوبة بأيدي المستغربين وأباطرة الإعلام " انتهى من مجلة البيان (العدد 161. (

حرّم الله سبحانه وتعالى الزنا ، وأغلق جميع الوسائل المُفضية إليه ، فأمر بغض البصر ، وأمر بالاستئذان عند دخول البيوت ، وحرّم الخلوة ، وحرّم مصافحة الأجنبية ، وأمر النساء بالاحتشام ، ونهى النساء عن الخضوع بالقول ، ونهى النساء عن التبرج ، فهذه كلها أحكام جزئية ضمن منظومة كلية ، وقد جعل الله عز وجل سبيلاً للشهوة بالحلال ، فالزواج يغني عن الزنا ، فالله سبحانه وتعالى عندما يُحرِّم شيئاً يجعل له بديلاً من الحلال ، فمثلاً المشروبات اللذيذة بدلاً من الخمر ، وسماع القرآن بدلاً من سماع الإغاني وهكذا.



تأمل كيف منع الله عز وجل عن كل ما يوقع في الزنا
وتأمل كيف أن أضراره هذه تفتك بالمجتمع
وتأمل في جعل الله للزنا عقوبة زجراً للعباد
والله عزّ وجل لا تضره المعاصي سبحانه
فتأمل كيف أن كل هذه الأحكام هي لمصلحة المجتمع

قال الشيخ صقر شحاتة متحدثاً عن أهمية عدم الاختلاط :" لقد أثبتت التجارب والمشاهدات الواقعية ، أن اختلاط الرجال بالنساء يثير في النفس الغريزة الجنسية بصورة تهدد كيان المجتمع كما ذكر أحد العلماء الأمريكيين وهو "جورج بالوشي" في كتاب "الثورة الجنسية" ، وقال بأن الرئيس الأمريكى الراحل كنيدي قد صرح عام 1962 بأن مستقبل أمريكا في خطر لأن شبابها مائع منحل غارق في الشهوات لا يقدّر المسؤولية الملقاة على عاتقه ، وأن من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين لأن الشهوات التي أغرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية.

إن دعاة الاختلاط لا تسوقهم عقولهم ، وإنما تسوقهم شهواتهم ، وهم يبتعدون عن الاعتبار بما وصلَتْ إليه الشعوب التي تبيح الاختلاط والتحرر في العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة ، من ذلك ما أورده تقرير لجنة الكونغرس الأمريكية عن تحقيق جرائم الأحداث ، من أن أهم أسبابها الاختلاط بين الشباب من الجنسين بصورة كبيرة. ولقد ثبت من خلال فحص كثير من الجرائم الخلقية أن الاختلاط هو المسؤول الأول عنها.

وماذا يقول أنصار الاختلاط عن فضيحة وزير الصناعة في إنجلترا مع سكرتيرته التي أشارت إحدى الصحف إليها بأنها تنتظر مولودا منه ، الغريب أن صحيفة التايمز البريطانية قد أشارت إلى أن مارجريت تاتشر ، قد لعبت دوراً رئيسيًّا في إقناع وزير الصناعة "باركتسون" بعدم الزواج من سكرتيرته والاستمرار مع زوجته على أمل ألا يحُطّ زواجه من السكرتيرة من قدره.

وهذا الخبر يحمل في مضمونه أثر الاختلاط بين وزير وسكرتيرته بدون محرم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يحمل عدم الاعتراف بما نجم عن هذا الاختلاط ، وهذا يعنى بصورة غير مباشرة عدم الاعتراف بالاختلاط والاستمرار فيه ، فالاختلاط في عمومه يحمل من الآثار السيئة ما يجعل كثيراً من الدعاة المخلصين يدعون إلى تنظيمة في إطار محدد يمنع شروره. مما يعد رجوعا إلى الهدى النبوى الشريف منذ أربعة عشر قرنا." انتهى كلامه.

والمرأة جوهرةٌ حفظها الإسلام ، فهي جوهرةٌ تُصان ، لا تُهان ، وهي لؤلؤ مكنون لا تلمسها الأيدي ولا تتكشف للعيون ، واليوم تجد التيار المادي يُعامِل المرأة كالسلعة التجارية ، فيتاجر بجسدها ، فيعرضها في الإعلانات والمحلات ، وتُستعمل كعنصر جذاب لجذب الرجال ، فتأمل لِعظَمِ هذا الفارق ، من الذي يهين المرأة ويحط من كرامتها ؟ ، اعتقد أن الجواب واضح.

والمرأة في الغرب كانت في معاناة ، وانتقلت إلى معاناة جديدة ، ففي القرن التاسع عشر أو السابع عشر كان الرجل الغربي يبيع زوجته في مزادٍ علني ، كما تعاني المرأة الغربية بشدة من كثرة التحرش والاعتداء عليها ، فقد جاء في تقرير للأمم المتحدة أن الغالبية العظمى من النساء يتعرضن لشكلٍ من أشكال التحرش أو العنف الجنسي في تنقلاتهن اليومية ، ونفس النقطة السابقة تم ذكرها في تقرير تم إعداده من عدة جهات في فرنسا منها وزارة الدولة لحقوق المرأة.

وواحدة من كل ثلاث طالبات تتعرض للتحرش ، ونصف طالبات الطب يتعرضن للتحرش ، و70% من الممرضات يتعرضن للتحرش من المرضى أو من الأطباء زملاء العمل ، وفي دراسة في أمريكا أن 58%

هي نسبة التحرش بالنساء في العمل ، حتى الأطباء بالطبيبات ، بل ذكرت الـ CNN أن التحرش موجود حتى في البرلمانات الأوربية. !!

وجاء في تقرير من الـ BBC سنة 2002 أن واحدة من كل أربع نساء تمارس الجنس في مكتب العمل في بريطانيا ، وجاء في مجلة Economicist أن هناك 400 ألف بغي في ألمانيا يخدمن مليون رجل يوميا.

وجاء في موقع التحالف القومي ضد العنف المنزلي أن واحدة من كل أربع نساء في أمريكا تتعرض للعنف الشديد من الشريك الحميم سواء كان هذا الشريك زوجها أو عشيقها.

وقال مكتب ضحايا العنف الحكومي أن ربع إلى ثلث النساء اللائي يأتين الطوارئ في أمريكا ناتجةٌ عن ضربهم.

وقد خرجت مسيرات في فرنسا عام 2019 بعد مقتل 116 امرأة على الأقل بسبب العنف الأسري.

وقالت وكالة الأنباء الفرنسية أن في كل 7 دقائق هناك امرأة تغتصب في فرنسا ، وقالت أن كل 3 أيام هناك امرأة فرنسية تموت على يد زوجها أو عشيقها.

واعلم أن أكثر من نصف ضحايا الضرب يحتجن إلى مساعدة طبية أكثر من 6 مرات.

ثم تأمل بعد كل ذلك انتشار ظاهرة التسليع الجنسي للنساء ، حتى صارت الكثير من النساء ينظرن إلى أنفسهن على أنهن سلع ، فصارت تعرض أجسادهن للدعاية والديكور والفن بزعمهم ، وهذا من أسباب العناية المفرطة عند كثيرٍ من النساء بأشكالهن.

فتأمل كيف أن العلمنة والكفر والإلحاد تُهين المرأة وتهدم الأخلاق ، ثم تأمل كيف كرّم الإسلام المرأة ونهض بالأخلاق ، والحُسنُ يُظهِرُ حُسنه الضدُّ ، فأين حقوق المرأة التي يزعمون ؟ ، وأين كرامتها ؟ ، وأي إهانة لها بعد هذه الإهانات ؟. !

وكم أعجب من امرأة متزوجة تتبرج ، فلو عذرنا العذارى – ولا عذر لهن – بأنهن يتبرجن من أجل أن يتزوجن ، فما الداعي للمتزوجة لفعل ذلك ؟! ، تقول لك : لكي يراني الناس جميلة ، فنقول لها وماذا بعد ؟ ماذا بعد أن رآك الناس جميلة ؟وهل أنت ملكية عامة وسلعة مشتركة بين زوجك وعامة الناس ؟.!

بل إن إظهار الزينة والتبرج أمام الناس من أسباب وقوع العين والحسد وتفكك الأسر والوقوع في الزنا وغيرها من المشاكل.

وأما الحجاب فتأمل وصف الله له:"ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا."

وقد قرأت في بعض الكتب أن امرأة عانت بسبب جمالها ، فكان الناس لا يعاملونها بسبب شخصها ، وإنما يعاملونها كقطعة أثاثٍ جميلة بسبب شكلها ، إذا تحدثت مع شخص لم يركز معها بسبب انهماكه في جمالها ، وإذا أرادت أن تشارك في حل مشكلة في العائلة استبعدها أبوها بسبب أنها لا تشبه هذه المواقف ، وإذا رسبت في الامتحانات أخبرها أبوها بأن المدرسة ليست مكانها ، وأن مكانها مع أقرب رجل سيأتي ليتزوجها ، وأما أختها إذا رسبت فكان أبوها يعاتبها ويأتي لها بالمعلمين ليدرسوها.

تقول صاحبة القصة أنها بعد كل ما حدث معها في حياتها صارت أمنيتها أن تنام ثم تستيقظ وتجد نفسها قبيحة ! ، فتأمل كيف أن جمالها كان لها نقمة لا نعمة ، لذلك فكون الإنسان عادياً لا بالقبيح ولا بالجميل الفاتن نعمةٌ تستريح بها النفس من كثير من الفتن.

وكذلك قبل فترة قرأت قصة بعنوان " عدو النساء " ، وهذه القصة فيها فوائد مهمة علينا الانتباه لها - والعاقل من اتعظ بغيره - يقول صاحب القصة أن أمنيته كانت الزواج بامرأة جميلة ، هذه أمنيته ، ليس له أمنية غيرها ، وفعلاً تزوج بامرأة فائقة الجمال ، هذه المرأة لم تكن تتبرج ولا تلبس اللبس الفاضح ، لكنها فقط " جميلة كاشفة لوجهها" ، يقول صاحب القصة أنه لم يسلم من المعاكسات التي كانت تتعرض لها زوجته ، حتى أطفال الحي كانوا يبحلقون فيها ويتكلمون عنها ، بل قال أن بعض أهل الحي صاروا يتصلون على هاتفهم من أجل زوجته التي صارت محط أنظار الناس ، بل في مرة تبعتها خمسة سيارات من أجل أن يوصلوها إلى بيتها " كما يزعمون ! " ، فقال إنه لم يستطع أن يصبر على هذا الأمر فطلقها.

هنا الفائدة الأولى : وهي أنه لو أمر زوجته بتغطية وجهها بالنقاب لحُلَّت المشكلة ، لكنه عدم الفقه بالدين للأسف ، قال تعالى : " يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورࣰا رَّحِيمࣰا " ، تأمل الآية "ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ " ، هذا لصالحها ، هذا لحفظها ولصونها من الذئاب البشرية والكلاب الشهوانية.

يواصل صاحب القصة فيقول أنه تزوج امرأة أقبح ما يكون حتى يسلم من المعاكسات التي يمكن أن تواجه زوجته ، وبالفعل زوجته الجديدة لم يتجرأ أحد على التعرض لها - و ذلك أكيد أنه من شدة قبحها - ولكن المصيبة أنها هي من كانت تعاكس الرجال وتتعرض لهم بل وتهاتفهم . !!

يقول صاحب القصة أنه منذ تلك اللحظة كره عالم النساء ، وعزم على أن لا يعود لشيء يُسمى زواج.

وهنا الفائدة الثانية : وهي الخلل المعياري الذي وقع فيه هذا الرجل ، فهذا الرجل النساء لديه قسمان فقط لا ثالث لهما: جميلة وقبيحة فقط ... و نسي أن هناك امرأة متدينة وغير متدينة ، بل كان يمكنه أن يتزوج جميلة متدينة ! ، لكن كما قلت لك إنه عدم الفقه بالدين.

بعد هذا تأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم :" فاظفر بذات الدين ، تربت يداك " ، إذا أصابك العمى - حفظك الله - لن ترى من زوجتك سوى دينها ، لن ترى من زوجتك سوى أخلاقها ، هنا يتجلى معدن المرأة وحقيقتها ، وكما من شخصٍ تزوج جسداً من أجل وجه ! فرب فاكهة تغريك قشرتها والدود يرتع فيه الدود والعفنُ. فاحرص على صحة المعيار عند اختيار الزوجة ، وكذلك أنتِ أيتها الأخت الفاضلة.

واختم الفصل بوصية لمن أصابه مرض الدياثة وصار يفاخر بجسد زوجته ! ، فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً.

الإعجاز التشريعي في الميراث

الميراث نظامٌ تشريعي مُعجِز أبهر العقلاء ممن درسوه ، فإن هذا النظام على تكامله إلا أنه تمت صياغته في ثلاث آيات فصيحة بليغة لا تزيد على خمسة عشر سطراً ! ، ومن أدلة أن هذا النظام وحيٌ من رب العالمين أنه مبنيٌ على الكسور ، تلك الكسور التي يصعب حتى على بعض طلبة الجامعات التعامل معها ، فكيف لمن نشأ في أمة أمية أن يأتي بهذا النظام الذي إذا حاول أحدٌ من البشر وضعه لدخل في ورطة حسابية ، فإنه من الممكن أن تجمع الكسور فبدلاً من أن يأتي الناتج مساوياً للرقم واحد (والذي هو مجموع الميراث ، وهو ما يعادل 100%) يأتي بناتج أقل أو أعلى من ذلك.!

ثم تأمل أن هذا دليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ أنه بهذا النظام حارب مجتمعه الذي كانت عاداته في الميراث على خلاف ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ أنهم كانوا يمنعون النساء والصبيان من الميراث ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضيات العدل والتي هي على خلاف ما كان عليه ذلك المجتمع ، فلو لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم صادقاً في دعواته فلماذا يفتح على نفسه جبهةً كهذه تؤدي بذلك المجتمع إلى الزيادة في محاربته ؟! ، أليس كان الأولى أن يسترضيهم ولا يخالفهم قدر الإمكان ؟! ، ولكنه الوحي وصدق التبليغ ، " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67." (

قال الشيخ شحاتة صقر :" من أوجه الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم تشريعه لنظام متميز في توزيع الميراث، في آيات ثلاث لا تزيد على خمسة عشر سطرًا، جاءت في سورة واحدة من سور القرآن الكريم، بنفس الأسلوب البياني، الذي لا يختلف في سموه حين يختلف موضوعه، حتى لو كان في موضوع خاص بالتشريع للمواريث والتّركات قويّ الصلة بالأعداد والأرقام.

قال تعالى:" يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ، وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12)" [سورة النساء.[

وقال تعالى:" يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" [سورة النساء.[

إن الذي يدرس نظام الإرث في القرآن الكريم ويقارنه مع ما ورد في التوراة وكذلك في الأنظمة الوضعية يتأكد له أن هذا النظام لا يمكن أن يكون من وضع البشر ، وخاصة أنه جاء عن طريق رجل أمي

عاش في وسط أمة أمية. هذا بالإضافة إلى أن التوراة والإنجيل - والتي طالما تشدق بعض أتباعهما بأن محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم قد أخذ محتويات القرآن الكريم منهما - يخلوان تمامًا من مثل هذا النظام البديع. !!

إن نظام الإرث في التوراة - وكذلك في بعض الأنظمة الوضعية - قد حرمت أقرب المقربين للمتوفي - وهم أبوه وأمه وزوجته - من الميراث بمجرد وجود ابن أو ابنة له ! ، ولم تراعي ما سيؤول إليه حالهم بعد وفاة من قد كان في الغالب يعيلهم.

لقد تحول كثير من عقلاء أهل الكتاب - منذ فجر الإسلام وحتى يومنا هذا - إلى دين الإسلام بسبب كمال النظام التشريعي فيه - وعلى الخصوص نظام الإرث - بعد أن تأكد لهم أن مثل هذا التشريع لا يمكن أن يسن من قبل رجل أمي.

بل مما زاد من دهشتهم وإعجابهم أن نظام الإرث هذا - والذي تم فيه معالجة جميع الاحتمالات الممكنة لحالات الورثة من الدرجة الأولى - قد تمت صياغته في عشرة أسطر فقط !! . إن مجرد استخدام الكسور كالنصف والثلث والربع والسدس والثمن في نظام الإرث في زمن يجهل فيه البشر - وخاصة العرب منهم - مثل هذه العمليات الحسابية لهو أكبر دليل على أن هذا النظام لا يمكن أن يكون قد تم وضعه من قبل رجل أُمِّي.

لقد كان من السهل لو كان هذا النظام من وضع رجل أمي أن يقع في ورطة حسابية باستخدام نظام الكسور هذا ! ، ولكن الدارس المتفحص لنظام الإرث في القرآن يكتشف مدى الدقة التي تم بها اختيار حصص الورثة باستخدام الكسور.

ومما يؤكد هذا الأمر أننا نجد اليوم ونحن نعيش في القرن الواحد والعشرين بعض المتعلمين - والذين درسوا الحساب لمدة طويلة - في المدارس والجامعات لا يستطيعون التعامل مع نظام الكسور هذا.

لا يوجد أي نَصّ في أناجيل النصارى يتعلق بنظام الإرث ، ولذلك فقد اعتمد أهل الإنجيل في قوانين إرثهم على ما جاء في التوراة. وقد كان نظام الإرث عند العرب أقرب ما يكون لنظام الإرث المذكور في التوراة فلا نصيب للنساء في التركة مع وجود الورثة من الرجال ، وغالبا ما يستحوذ الكبار من الأبناء على نصيب الصغار منهم.

ولهذا فقد كانت مهمة تغيير نظام الإرث هذا من أصعب المهام التي واجهها النبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وخاصة أن اليهود الموجودين في المدينة يعملون بنظام توريث مستمد من التوراة وهو مشابه للنظام الذي تتبعه العرب في جاهليتهم.

لقد جاء القرآن الكريم بنظام إرث جديد أنصف فيه جميع الورثة وخاصةً النساء منهم واللاتي كُنَّ محرومات من تركة أقربائهن في نظام الإرث المطبق عند العرب وكذلك عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

لقد بدأ القرآن الكريم بإقرار مبدأ عظيم – وتأمل لهذه المقدمة التي افتتحت بها الآيات - وهو أن للنساء نصيب من تركة أقربائهن كما للرجال مهما بلغت قيمة التركة ، وأن هذا الحق مفروضٌ لهن من الله - سبحانه وتعالى - وذلك في قوله تعالى:" لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا " [سورة النساء.[

وقد أكد القرآن الكريم كذلك على عدم هضم حقوق صغار الورثة من الذكور والإناث عند القسمة من قبل كبار الورثة ، وكذلك الحفاظ على أموال هؤلاء اليتامى من قبل إخوانهم أو أعمامهم أو من هم في كفالتهم ، وخاصة في غياب رقابة الدولة على إجراءات قسمة التركة وذلك في قوله تعالى: " وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا " [سورة النساء.[

وبعد أن وضع القرآن القواعد العامة لنظام الإرث بدأ بتحديد أنصبة كل من ورثة المتوفى - سواء كان ذكرا أم أنثى - وذلك في ثلاث آيات فقط ! لا يتجاوز عدد أسطرها العشرة ! وهي مليئة بالفرائض باستخدام نظام الكسور.

إن نظام الإرث الذي جاء به القرآن الكريم نظام مبتكر وفريد لم يسبق للبشر أن تعاملوا بمثله ولن يتمكنوا كذلك من أن يأتوا بنظام مثله أبدًا ؛ فهذا النظام قد تم وضعه على أسس واضحة ، ولأهداف بينة - وليس بطريقة اعتباطية - راعى فيه المشرع مصالح ورثة الميت الأشد قرابة. إن أشد الناس قرابة للميت هم أباه وأمه وأبنائه وبناته وزوجته بحكم المعاشرة ، وهم أكثر الناس حزنًا عليه عند موته ، ثم يأتي في الدرجة الثانية أخوته وأخواته ، ثم أعمامه وعماته.

وعندما حصر الله - سبحانه وتعالى - تركة الميت على الأب والأم والأبناء والبنات والزوجة ولا تتعدى إلى الأخوة والأخوات والأعمام والعمات إلا في حالات محددة فإنما حصرها لأسباب منطقية لا يمكن لعاقل أن يجادل فيها.

فالأب والأم هما السبب في وجود هذا الإبن ، فأمه قد حملته تسعة أشهر في بطنها ، ثم أرضعته ، ثم قامت على خدمته في حال صحته ومرضه مدة طويلة ، وأبوه أنفق عليه من ماله - والذي قد يكون حصل عليه بشق النفس - فوفر له المسكن والملبس والطعام والشراب والتعليم ومعالجته عند مرضه مدة طويلة ، وقد يكون الأب - وكذلك الأم - قد ساهما في بناء البيت الذي سكنه هذا الإبن ، وربما المصلحة التي كانت مصدر رزقه.

أما الزوجة فهي التي أنجبت أولاده ، وقامت على خدمته وخدمة بيته وخدمة أولاده ، وبذلك وفرت له الوقت لجمع هذا المال.

أما أبناء الميت وبناته فهم أحوج الناس لهذا المال إذا كانوا صغارا ، وإما إذا كانوا كبارا فإنهم أحق الناس به ، فقد يكونوا ساهموا بجهدهم في تحصيل هذا المال مع أبيهم ، بالإضافة إلى أن هذا هو الاتجاه الصحيح لحركة المال المورث فهو ينتقل من الأباء إلى الأبناء.

وعلى هذا فإنه من الظلم الفادح أن يُحرم الأب والأم من تركة ابنهم بمجرد وجود أبناء وبنات لهذا الميت وقد يكونا في أمس الحاجة لمثل هذا المال عند هذه السن الكبيرة التي تقل فيها قدرتهما على جلب الرزق ، وإذا ما أخذ الأب والأم شيئا من التركة فهو جزء يسير مما أنفقاه على هذا الابن.

وكذلك فإنه من الظلم الفادح أن تحرم الزوجة حرمانًا كاملاً من تركة زوجها - سواء ترك أولاداً أم لم يترك - كما هو الحال في نظام الإرث التوراتي أو في أنظمة الإرث الحالية كنظام الإرث الفرنسي ، فهل يعقل أن تذهب تركة زوجها إلى إخوانه وأخواته أو أعمامه وعماته وتحرم هي منه ؟.!

ولهذا فقد أنصف القرآن الكريم الأب والأم والزوجة في نظام الإرث الذي جاء به ، وأعطى الأب سدس التركة ، والأم السدس كذلك ، والزوجة الثمن عند وجود أبناء وبنات للميت ، وتزداد هذه النسب في حالة غياب الأبناء والبنات.

ولا بد هنا من الرد على الفرية التي يتشدق بها بعض الكفار من أهل الكتاب وغيرهم وهي زعمهم أن القرآن قد تحيز للرجال على حساب النساء في نظام الإرث الذي جاء به فأعطى الرجل ضعف حصة المرأة.

والجواب: أن مَن بيته من زجاج عليه أن لا يرمي الناس بالحجارة ، فالنص الوارد في التوراة المحرفة قد حرم الزوجة تمامًا من الميراث ، وحرم البنات والأب والأم كذلك بوجود الأولاد الذكور.

وإذا رجعت لنظام الإرث الفرنسي أو بقية أنظمة الإرث غير الإسلامية في العالم فستجد مدى الإجحاف الذي يلحق بالزوجة والأب والأم عند تقسيم تركة الميت.

إن القرآن الكريم لم يعطي الرجال في أنصبة الميراث أكثر من النساء في بعض الحالات إلا بسبب طبيعة النظام الاجتماعي السائد في المجتمعات البشرية والذي يقوم على قوامة الرجال على النساء وكذلك مراعاة الفروق الطبيعة بينهما.

إن قوامة الرجال على النساء نظام قائم منذ أن خلق الله البشر ، ولا زال قائما إلى يومنا هذا في معظم المجتمعات البشرية ، وسيبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وإن أي محاولات لتغيير مثل هذا الواقع لن تفلح أبداً ما دام أن المجتمعات تقوم على النظام الأسري والذي تكون فيه في الغالب القوامة للرجال بسبب ما ميزهم الله به من قوة الجسم.

والدليل على عدم تحيز القرآن الكريم للرجال هو تساوي نصاب الأب والأم في حالة وجود أولاد للمتوفى ! ، وكذلك تساوي نصاب الأخ والأخت من الأم في تركة الكلالة.

وحين يحدد القرآن الكريم نصاب الابن بضعف نصاب البنت فهو إنصاف لهذا الابن وليس تحيزًا له ، وذلك لأسباب كثيرة ؛ أولها: أن الأعباء المادية المترتبة على الرجال في الأنظمة الاجتماعية السائدة تفوق تلك المترتبة على النساء ، فهم الذين يقومون ببناء مساكن الزوجية التي لا تشارك النساء فيها بشيء ، وهم الذين يدفعون المهور ، وهم الذين ينفقون على زوجاتهم وأولادهم ، وهم أقدر على العمل بشتى أنواعه بسبب تركيبهم الجسمي ، وهم أقدر على الحفاظ على الأموال التي يرثونها وكذلك تنميتها ، وهم أقدر كذلك على حمايتها في مجتمعات لا يصمد فيها إلا القوي ، وهذا هو واقع البشر منذ أن خلقهم الله وسيبقون كذلك.

إن مزايا التشريع الإسلامي في الميراث شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء ، وإنها لتدل على أن القرآن الكريم كلام الله العليم الخبير، لأن هذا التقسيم المحكم العادل الذي جاء به الإسلام لم يسبق له مثيل فيما عرف من قوانين العالم ولا عند قدماء المصريين ، ولا الأغريق ، ولا الرومان ، بل ولا تزال القوانين الأوروبية والأمريكية وغيرها من الدول التي تقر مبدأ التوارث تتعثر دون أن تصل إلى ما وصل إليه الإسلام من عدل وإحكام.

ويمكن إيجاز هذه المزايا في النقاط التالية:

-1تولى الله سبحانه وتعالى توزيع الميراث على مستحقيه بنفسه ولم يترك ذلك لغيره ، فجميع أحكامه منصوصة.

- 2يمتاز نظام الميراث في الإسلام بأن تنفيذه نابع من ضمير الجماعة الإسلامية كما هو الشأن في جميع تشريعات الإسلام لا يمكن لمحتال أن يحتال عليها أو يتهرب منها مع راحة ضميره، واطمئنان نفسه، إلا إذا كان لا إيمان له أو كان ضعيف الإيمان.

-3يمتاز نظام الميراث في الإسلام بأن توزيع التركة معلق بإرادة الشارع لا بإرادة الوارث أو المورث، ومن ثم فالميراث هو الملك الوحيد الذي ينتقل من شخص إلى أخر دون اشتراط رضاهما، ولم يترك الإسلام للمالك إلا حرية التصرف في حدود الثلث ، حيث أباح له التصرف فيه بالوصية لتدارك ما عساه قد فاته من صلة قرابة أو زيادة في أجره وثوابه.

ومع ذلك حرم هذا الحق إن كانت الوصية فيما لا يجوز شرعًا، لأن المفروض في الإسلام أن يستغل الإنسان ماله فيما يعود عليه بالنفع في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معًا ، كما أن الأصل أنه لا وصية لوارث حتى لا يختل هذا النظام الرباني الدقيق.

- 4بني توزيع الميراث على أساس القرابة، فأعطى الإسلام الأقرب فالأقرب دون تفرقة بين صغير وكبير، ذكر أو أنثى، ولذلك أعطى الأولاد أكثر حظًا من غيرهم في الميراث، لأنهم امتداد لشخص المالك - وهم في الغالب - ضعاف، ومع ذلك لم يستأثروا بالميراث بل يشاركهم فيه غيرهم كالأب أو الجد أو الأم أو الجدة، وإن كانوا يأخذون أقل من الأولاد.

- 5لاحظ الإسلام في تقسيم الميراث الحاجة ؛ لذلك أعطى الأبناء أكثر من الآباء ؛ لأن الأبناء مُقبلون على الحياة ، بينما الآباء مدبرون عنها ، وأعطى الذكر ضعف الأنثى أحيانًا ؛ لأنه أكثر حاجة منها إلى العون المادي لما عليه من واجبات تفوق ما عليها.

- 6يقوم توزيع الميراث في الإسلام على أساس تفتيت الثروة حتى لا تتجمع في يد شخص واحد، وبالتالي تصبح ثروة الأمة في يد أفراد قلائل من الممكن أن يتحكموا في مقدراتها ويستغلوا كل شيء فيها لأهوائهم ونزواتهم، ولكن هذا النظام الذي أقامه الإسلام يؤدي إلى تفتيت الثروة، ثم إعادة جمعها، ثم إعادة توزيعها وهكذا دواليك.

- 7كرم النظام الإسلامي في هذا الصدد المرأة ، واحترم الأمومة ، فأعطى المرأة نصيبًا من الميراث بينما حرمَتْها كثير من التشريعات ، وأعطى من يتصلون إلى المورث بسببها كما في أولاد الأم ، والجدة للأم ، وهذا بلا شك تكريم للأمومة ، وإعزازٌ لها.

8 - هذا نظام محكم صاغه القرآن الكريم في ثلاث آيات فقط - الآيات رقم 11، 12، 176 من سورة النساء - ، بنفس اللغة الدقيقة الجميلة التي تخاطب العقل والوجدان ، لتهيئة النفوس ، وقدم لأحكامه بآيات قليلة لقبوله، فقال تعالى:" لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ، نَصِيبًا مَفْرُوضًا (7) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (8) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ، وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (9) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10) " [سورة النساء].

وعقب عليه بالآيتين - رقم 13 و 14 من سورة النساء - للحض على العمل به ، والتحذير من الخروج عليه ، فقال تعالى:" تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (13) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ، وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (14) " [سورة النساء.[

- 9أحكام الميراث كما وردت في القرآن الكريم من الثوابت التي لا تقبل التغيير، ومهمة المجتهد تنحصر في تنزيلها على الواقع لتوجهه وتحكم عليه، وهي قابلة للتطبيق في كل البيئات إلى أن تقوم الساعة " ، انتهى كلامه حفظه الله من كتابه موسوعة الإعجاز العلمي بتصرف يسير.

التعدد

"فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ
فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً "
]سورة النساء[

قبل محاولة التعرف على بعض الحكم في هذه السُنة المهجورة علينا أن نستحضر أنها حلالٌ من الحكيم سبحانه علينا أن نُسلِّم له ، خصوصاً وأن بعض الناس تقودهم الغيرة البشرية فيهم إلى إنكار أحكام العزيز العلاّم ، وذلك جهل وضلال ، وذنبٌ على صاحبه ووبال.

التعدد فيه حِكمٌ عظيم وفوائد غزيرة إذ يحصل به إعفاف المجتمع ، خصوصاً وأن نسبة النساء أكثر من نسبة الرجال بكثير حسب الإحصائيات ، وأن تعداد وفيات الرجال أكثر بكثير من النساء ، إذ كثيرٌ من الرجال يموتون في الحروب وحوادث السير والعمل وغير ذلك ، كما ذكر بعض الأطباء أن مناعة النساء أقوى وأكثر حصانةً من الرجال ، فيموت بالأمراض من الذكور الكثير مقارنة بالإناث خصوصاً في الأطفال صغار السن ، وبالتالي يؤدي ذلك إلى وجود فارق في عدد النساء والرجال ، وما أكثر النساء اللائي لا أزواج لهن !.

ومن حكم التعدد كذلك أن فيه تكثيرٌ للأمة ، ومن الحكم كذلك أن المرأة قد تكون عقيماً فلا يتزوجها الرجال بسبب ذلك ، فتصور معي لو كان ممنوعاً على الرجل أن يتزوج أكثر من واحدة ، فهل كان سيختار هذه العقيم ؟ ، وما احتمالية زواج هذه العقيمة ؟ ، ستكون نسبةً ضئيلة ، ولكن مع وجود التعدد تزداد هذه النسبة بكثير وتجد فرصة لها في أن يكون لها زوج ، والحِكم أكثر من ذلك.

وقد جعل الله عز وجل أكثر التعدد أربعاً ، في حين كانت هناك ديانات ومجتمعات ليس له حدٌ في ذلك ، ففي تلك المجتمعات قد يتزوج الرجل مئة وقد يتزوج أكثر ، فالتعدد ليس في الإسلام فقط! ، ولكن الإسلام ضبطه وهذّبه ، وتأمل معي حال الملحد: ما الذي يمنعه من أن يخون امرأته مع العديد من العشيقات والبغايا ؟ ، وهل كان هذا الملحد سيعتبر تعدد علاقاته عيباً في حقه أم أنه سيقول أنها حقٌ من حقوقه ؟! .

المجتمعات الغربية الآن تتعدد ولكن بالحرام ، فيتخذ الرجل عشيقاتٍ على زوجته ، وقد تخون المرأة زوجها مع غيره من الرجال ، وذلك منتشر ، بل في بعض البرامج التلفزيونية الغربية يتم استضافة بعض الضيوف ليتم تحديد النسب والأبوة بسبب أنه لا يُعلم من أب الطفل ، ولمعرفة على من تكون حقوق هذا الطفل ورعايته وكفالته !.

ثم تأمل التعدد في الإسلام ، فإن له أحكاماً وشروطا ، أولها العدل فقد قال الله تعالى :" فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً " ، أفادت هذه الآية الكريمة أن العدل شرط لإباحة التعدد ، فإذا خاف الرجل من عدم العدل بين زوجاته إذا تزوج أكثر من واحدة ، كان محظوراً عليه الزواج بأكثر من واحدة. والمقصود بالعدل المطلوب من الرجل لإباحة التعدد له ، هو التسوية بين زوجاته في النفقة والكسوة والمبيت ونحو ذلك من الأمور المادية مما يكون في مقدوره واستطاعته .

وأما العدل في المحبة فغير مكلف بها ، ولا مطالب بها لأنه لا يستطيعها ، وهذا هو معنى قوله تعالى :" وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ".

قد يعترض معترضٌ فيقول: إذا كنتم تبيحون التعدد للرجل ، فلماذا لا تبيحون التعدد للمرأة ، بمعنى أن يكون للمرأة الحق في أن تتزوج أكثر من رجل ؟

والجواب على هذا الاعتراض: أن المرأة يضرها تعدد الأزواج أكثر من نفعها ، بل ذلك يحطّ من قدرها وكرامتها ، ويُضيع عليها نسب ولدها ؛ لأنها مستودع تكوين النسل ، وتكوينه لا يجوز أن يكون من مياه عدد من الرجال وإلا ضاع نسب الولد ، وضاعت مسؤولية تربيته ، وتفككت الأسرة ، وانحلت روابط الأبوة مع الأولاد ، وليس هذا بجائز في الإسلام ، كما أنه ليس في مصلحة المرأة ، ولا الولد ولا المجتمع.

أضف إلى ذلك أن تعدد أزواج المرأة عُرضةٌ للأمراض الجنسية ، فمعلوم أن البغي سببٌ في نشوء وانتشار الأمراض الجنسية ، وذلك منتفٍ في أن يتعدد الرجل الزوجات ، وهناك من الحكم ما خفيت علينا ولكن يعلمها العليم الحكيم ، فتأمل.

قال الشيخ شحاتة صقر في موسوعته :" تعدد الزوجات من محاسن الشريعة الإسلامية، ومن رعايتها لمصالح المجتمع وعلاج مشكلاته، وقد تنبه بعض أعداء الإسلام لهذا الأمر، واعترفوا بحسن ما جاءت به الشريعة في هذه المسألة، رغم عداوتهم لها، إقراراً بالحق واضطرارًا للاعتراف به، فمن ذلك ما نقله صاحب المنار في الجزء الرابع من تفسيره صفحة عن جريدة (لندن ثروت) بقلم بعض الكاتبات ما ترجمته ملخصًا:" لَقَدْ كَثُرَتِ الشَّارِدَاتُ مِنْ بَنَاتِنَا، وَعَمَّ الْبَلَاءُ، وَقَلَّ الْبَاحِثُونَ عَنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ، وَإِذَا كُنْتُ امْرَأَةً تَرَانِي أَنْظُرُ إِلَى هَاتِيكَ الْبَنَاتِ، وَقَلْبِي يَتَقَطَّعُ شَفَقَةً عَلَيْهِنَّ، وَحُزْنًا، وَمَاذَا عَسَى يُفِيدُهُنَّ بَثِّي، وَحُزْنِي، وَتَوَجُّعِي، وَتَفَجُّعِي، وَإِنْ شَارَكَنِي فِيهِ النَّاسُ جَمِيعًا؟ لَا فَائِدَةَ إِلَّا فِي الْعَمَلِ بِمَا يَمْنَعُ هَذِهِ الْحَالَةَ الرَّجِسَةَ.

وَلِلَّهِ دَرُّ الْعَالِمِ الْفَاضِلِ (تُومَسْ) ، فَإِنَّهُ رَأَى الدَّاءَ، وَوَصَفَ لَهُ الدَّوَاءَ الْكَافِلَ لِلشِّفَاءِ وَهُوَ (الْإِبَاحَةُ لِلرَّجُلِ التَّزَوُّجَ بِأَكْثَرَ مِنْ وَاحِدَةٍ) ، وَبِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ يَزُولُ الْبَلَاءُ لَا مَحَالَةَ، وَتُصْبِحُ بَنَاتُنَا رَبَّاتِ بُيُوتٍ، فَالْبَلَاءُ كُلُّ الْبَلَاءِ فِي إِجْبَارِ الرَّجُلِ الْأُورُبِّيِّ عَلَى الِاكْتِفَاءِ بِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، فَهَذَا التَّحْدِيدُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ بَنَاتِنَا شَوَارِدَ، وَقَذَفَ بِهِنَّ إِلَى الْتِمَاسِ أَعْمَالِ الرِّجَالِ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَفَاقُمِ الشَّرِّ إِذَا لَمْ يُبَحْ لِلرَّجُلِ التَّزَوُّجُ بِأَكْثَرَ مِنْ وَاحِدَةٍ.

أَيُّ ظَنٍّ وَخَرَصٍ يُحِيطُ بِعَدَدِ الرِّجَالِ الْمُتَزَوِّجِينَ الَّذِينَ لَهُمْ أَوْلَادٌ غَيْرُ شَرْعِيِّينَ أَصْبَحُوا كَلًّا وَعَالَةً وَعَارًا عَلَى الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ؟ ، فَلَوْ كَانَ تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ مُبَاحًا لَمَا حَاقَ بِأُولَئِكَ الْأَوْلَادِ وَبِأُمَّهَاتِهِمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْهُونِ، وَلَسَلِمَ عِرْضُهُنَّ، وَعِرْضُ أَوْلَادِهِنَّ، فَإِنَّ مُزَاحَمَةَ الْمَرْأَةِ لِلرَّجُلِ سَتُحِلُّ بِنَا الدَّمَارَ، أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ حَالَ خِلْقَتِهَا تُنَادِي بِأَنَّ عَلَيْهَا مَا لَيْسَ عَلَى الرَّجُلِ، وَعَلَيْهِ مَا لَيْسَ عَلَيْهَا، وَبِإِبَاحَةِ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ تُصْبِحُ كُلُّ امْرَأَةٍ رَبَّةَ بَيْتٍ، وَأُمَّ أَوْلَادٍ شَرْعِيِّينَ ".

وقال جوستاف لوبون:" إن نظام تعدد الزوجات نظام حسَنٌ يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تمارسه، ويزيد الأسر ارتباطا ، وتمنح المرأة احتراما وسعادة لا تجدهما في أوروبا " ".

جوابٌ جامع

"قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ "
]سورة البقرة[

"أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ"
]سورة الملك[

إذا ما استشكلت عليك الحكمة من بعضِ التشريعات أو اعترض عليك معترضٌ على بعض الحدود ولم تعرِف الجواب التفصيلي الذي يعرفه أهل العلم أو حتى لو غاب هذا الجواب عن جميع الأمة فيكفيك أن تعرِف أن الله عزّ وجل هو الحكيم العليم ، ذو الحِكمة المطلقةِ الكاملة التي لا نقص فيها ، وذو العلمِ الذي وسِع كل شيء ، الله الذي أحاط بكل شيء عِلماً ، وأحصى كل شيءٍ عدداً ، فلا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، بل هو اللطيف سبحانه وتعالى الذي لا يريد الحرج لعباده ، وأراد بهم اليسر ولا يريد بهم العُسر ، بل ولا يريد شقاء العباد ولا عذابهم سبحانه ، " مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى " ، وقال تعالى:" مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا " ، والعقوبة إنما هي لمن استكبر عن عبادة الله فأتى بأعظم الجُرمِ الموجب للعقوبة الأبدية التي توافقت مع عِظَمِ جُرمِه.

وتأمل وصف الراسخين في العلم في القرآن ، يقول الله تعالى :" هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْـغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ " ، فيكفيهم أنهم عرِفوا أن ذلك الأمر من الله فآمنوا به وأذعنوا فصاروا راسخين في العلم ، ثم يسألون الله مزيد ثباتٍ على ذلك الإيمان ، فيقولون:" رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ " ، فهم قد علموا وتيقنوا أن بداية السير على طريق الاستقامة ليس بالصعب ، ولكن الثبوت هو الصعب ، قال تعالى:" فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ."

وكذلك تأمل ما يصيبك من انشراح الصدر واطمئنان القلب واستقرار الإيمان عندما تنزل بك مصيبة فتتذكر أن الله عز وجل حكيمٌ سبحانه ، فتقول عند تلك المصيبة :" الله حكيم " ، ينزل بك ابتلاء فتقول :" الله حكيم " ، يفوت عليك شيء تريده فتقول :" الله حكيم " ، فتجدُ جميع تلك الأوجاع قد تلاشت كأنها لم تكن ، وتحقق بذلك الرضا ، بل وتقول :" الحمدلله الذي قدَّر علي ذلك."

فاعلم أن قولك :" الله عليم ، الله حكيم " هو جوابٌ نافع ، بل هو أنفع الأجوبة وأحسنها ، واعلم أنه يكفيك مدى الحياة ، ومن داوم على استحضار ذلك لا تزعزعه رياح الشبهات ولا تُحرِّكه أعتى تيارات الإلحاد ، بل يكون كالوتدِ لإخوانه ، فإذا ما ضعُفت إيمانياتهم ذهبوا إليه ، فإذا ما رأوه ذُكِر الله ، وانجلت عن قلوبهم تلك الشبهات.

ولو بُيِّنت لنا حِكمُ كل الأشياء لما اخترنا غير ما اختاره الله ، ولكن يكفينا كفاية تامة أن عرفنا أنها من عند الله الحكيم سبحانه ، واللبيب يأخذ وينتفع بما فيه الكفاية ، وأما من كُتِبت عليه الشقاوة فلا ينتفع ولو عُرِضت عليه كُل الآيات إذ أنه مستكبر.

الحكمة التعبدية

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ "

كثيرٌ من الناس لا يُقدِم على الفعل إلا بعد أن يعلم حكمته الدنيوية القاصرة ، وكأنه لا يكفيه أنه علِم أن هذا الحكم من عند الحكيم الخبير ، فتجده يعترض على بعضِ الأمور لإنه لا يعرف حكمتها ، وكما قال الشاعر:

جَهِلت فعاديت العلوم وأهلها * كذاك يُعادي العلمَ من هو جاهلُ

وكما هُو معروف أن من جَهِل شيئاً زهِد فيه ، فلو أن هذا التارك لأمر الله سبحانه وتعالى علِم بعض الحكم التي فيه لأتاها وهو يهرع ، والعجيب في الأمر أنه كيف يفوت عليه أن أعظم حِكمةٍ في هذا الأمر أنها من الحكيم سبحانه وتعالى ذو الحكمة الكاملة، "ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً " وأعظم الحكمة الاستسلام لأمر الله سبحانه وتعالى ؛ إذ هو أصل كل خيرٍ ونفع.

فهؤلاء الذين يستشكلون بعض الشرائع هُم أُناسٌ نسوا أنهم عبيدٌ لله تعالى ، فإن أول غايةٍ في العبادات أنها عبادة ، فلو استحضر الإنسان في جميع الشرائع أنه يفعلها إظهاراً لعبوديته لله لما استشكل ذلك ، ولو استحضر أنه مهما بلغ من المكانات العلمية قليلُ العِلم غائبةٌ عنه الكثير من الأشياء لما استشكل ذلك.

فاجعل في بالك دائماً أن أول حِكمةٍ لجميع هذه الشرائع هو إظهار عبوديتك واستسلامك وانقيادك لله سبحانه وتعالى ، وذلك يكفيك ، بل وتكون بذلك راسخاً في العلم.

الفصل الخامس: التفكر في الدار الآخرة

التفكر في حال الدنيا والآخرة

"لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة " ۔
]سورة البقرة[

قال بعضهم :" لو طالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قُدِّر في حُجُبِ الغيب من خيرِ الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ، ولم تقرَّ لهم فيها عين."

وجاء في كتب محاسبة النفس لابن أبي الدنيا أن إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ قَالَ: " مَثَّلْتُ نَفْسِي فِي الْجَنَّةِ، آكُلُ ثِمَارَهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِهَا، وَأُعَانِقُ أَبْكَارَهَا، ثُمَّ مَثَّلْتُ نَفْسِي فِي النَّارِ، آكُلُ مِنْ زَقُّومِهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ صَدِيدِهَا، وَأُعَالِجُ سَلَاسِلَهَا وَأَغْلَالَهَا؛ فَقُلْتُ لِنَفْسِي: أَيْ نَفْسِي، أَيُّ شَيْءٍ تُرِيدِينَ؟، قَالَتْ: أُرِيدُ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا؛ فَأَعْمَلَ صَالِحًا ، قَالَ: قُلْتُ: فَأَنْتِ فِي الْأُمْنِيَةِ فَاعْمَلِي."

وقد ضرب لنا السلف رحمهم الله أروع الأمثلة في تطبيق هذه العبادة ، كما سيتبين لنا في بعض الأمثلة مما سيأتي.

بعض النماذج من تفكر السلف

جاء فِي كتاب تهذيب الكمال:" عَنْ يُوسُف بْن أسباط قال: قال لي سفيان الثوري - وقد صلينا العشاء الآخرة - :" يا يوسف ناولني المطهرة ". فناولته، فأخذها بيمينه ووضع يساره عَلَى خده ، ونمت ، فاستيقظت وقد طلع الفجر، فنظرت فإذا المطهرة بيمينه كما هي، قلت: هذا الفجر قد طلع، فقَالَ: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر فِي الآخرة."

ورأى ابن المبارك أحد جلسائه يتفكر ، فسأله :" أين بلغت ؟ " ، فقال :" الصراط."

وجاء فِي كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك " كَانَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ مِنْ أَفَاضِلِ النَّاسِ، وَكَانَ يَقُولُ: " لَوْ أَنِّي أَكُونُ كَمَا أَكُونُ عَلَى أَحْوَالٍ ثَلَاثٍ مِنْ أَحْوَالِي، لَكُنْتُ حِينَ أَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَحِينَ أَسْمَعُهُ يُقْرَأُ، وَإِذَا سَمِعْتُ خُطْبَةً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِذَا شَهِدْتُ جِنَازَةً، وَمَا شَهِدْتُ جِنَازَةً قَطُّ فَحَدَّثْتُ نَفْسِي بِسِوَى مَا هُوَ مَفْعُولٌ بِهَا، وَمَا هِيَ صَائِرَةٌ إِلَيْه." ِ

فاتباع الجنائز وزيارة المقابر تذكران بالآخرة ، قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي رَوَّادٍ:" كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اتَّبَعَ الْجِنَازَةَ أَكْثَرَ الصُّمَاتَ، وَأَكْثَرَ حَدِيثَ نَفْسِهِ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَمْرِ الْمَيِّتِ، وَمَا يَرِدُ عَلَيْهِ، وَمَا هُوَ مَسْئُولٌ عَنْه." ،

وعَنْ بُدَيْلٍ قَالَ:" كَانَ مُطَرِّفٌ يَلْقَى الرَّجُلَ مِنْ خَاصَّةِ إِخْوَانِهِ فِي الْجِنَازَةِ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ غَائِبًا، فَمَا يَزِيدُهُ عَلَى التَّسْلِيمِ، ثُمَّ يُعْرِضُ عَنْهُ اشْتِغَالًا بِمَا هُوَ فِيهِ " انتهى من كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك.

وهذه المعرفة التي كانت عند السلف يبينها ابن القيم رحمه الله في كتابه مفتاح دار السعادة فيقول :" ثمَّ لَهُ فِي معرفَة الآخرة حالتان:

إحداهما: أن يكون قد سمع ذَلِك من غَيره من غير أن يُبَاشر قلبه برد الْيَقِين بِهِ ، وَلم يفض قلبه إِلَى مكافحة حَقِيقَة الاخرة - وَهَذَا حَال أَكثر النَّاس - فيتجاذبه داعيان ، أحدهما دَاعِي العاجلة وإيثارها ، وَهُوَ أقوى الداعيين عِنْده ؛ لأنه مشَاهد لَهُ محسوس ، وداعي الآخرة ، وَهُوَ أضعف الداعيين عِنْده ؛ لأنه دَاع عَن سَماع لم يُبَاشر قلبه الْيَقِين بِهِ وَلَا كافح حَقِيقَته العلمية.

فَإِذا ترك العاجلة للآخرة تريه نَفسه بأنه قد ترك مَعْلُوماً لمظنون ، أو متحققاً لموهوم ، فلسان الْحَال يُنَادي عَلَيْهِ :" لَا ادْع ذرة منقودة لدرة موعودة " ، وَهَذِه الآفة هِيَ الَّتِي منعت النُّفُوس من الاستعداد للآخرة ، وأن يسْعَى لَهَا سعيها ، وَهِي من ضعف الْعلم بهَا وتيقنها ، وَإِلَّا فَمَعَ الْجَزْم التَّام - الَّذِي لَا يخالج الْقلب فِيهِ شكّ - لَا يَقع التهاون بهَا وَعدم الرَّغْبَة فِيهَا ؛ وَلِهَذَا لَو قُدِّم لرجل طَعَام فِي غَايَة الطّيب واللذة وَهُوَ شَدِيد الْحَاجة إليه ثمَّ قيل لَهُ إِنَّه مَسْمُوم فَإِنَّهُ لَا يُقدِم عَلَيْهِ لعلمه بِأَن سوء مَا تجني عَاقِبَة تنَاوله تربو فِي الْمضرَّة على لَذَّة أكله ، فَمَا بَال الإيمان بالآخرة لَا يكون فِي قلبه بِهَذِهِ الْمنزلَة ؟! ، ما ذاك إلا لضعف شَجَرَة الْعلم والإيمان بهَا فِي الْقلب وَعدم استقرارها فِيهِ.

وَكَذَلِكَ إذا كَانَ سائراً فِي طَرِيق ، فَقيل لَهُ إِن بهَا قطاعاً ولصوصاً - يقتلُون من وجدوه ، وَيَأْخُذُونَ مَتَاعه - فإنه لَا يسلكها إلا على أحْدُ وَجْهَيْن: إما أن لَا يصدق الْمخبر ، وَإِمَّا أن يَثِق من نَفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عَلَيْهِم ، وإلا فَمَعَ تَصْدِيقه للْخَبَر - تَصْدِيقًا لَا يتمارى فِيهِ - وَعلمه من نَفسه بضعفه وعجزه عَن مقاومتهم فَإِنَّهُ لَا يسلكها ، وَلَو حصل لَهُ هَذَانِ العلمان فِيمَا يرتكبه من إيثار الدُّنْيَا وشهواتها لم يُقدِم على ذَلِك ، فَعُلِمَ أن إيثاره للعاجلة وَترك استعداده للآخرة لَا يكون قطّ مَعَ كَمَال تَصْدِيقه وإيمانه أبداً.

الْحَالة الثَّانِيَة: أن يتَيَقَّن ويجزم جزماً لَا شكّ فِيهِ بِأَن لَهُ دَاراً غير هَذِه الدَّار ، ومعاداً لَهُ خلق ، وأن هَذِه الدَّار طَرِيق إِلى ذَلِك الْمعَاد ومنزل من منَازِل السائرين إليه ، وَيعلم مَعَ ذَلِك أنها بَاقِيَة ، وَنَعِيمهَا وعذابها لَا يَزُول ، وَلَا نِسْبَة لهَذَا النَّعيم وَالْعَذَاب العاجل إليه إِلَّا كَمَا يدْخل الرجل إصبعه فِي اليم ثمَّ يَنْزِعهَا ، فَالَّذِي تعلق بهَا مِنْهُ هُوَ كالدنيا بِالنِّسْبَةِ إِلى الآخرة ، فيثمر لَهُ هَذَا الْعلم إيثار الآخرة وطلبها والاستعداد التَّام لَهَا ، وأن يسْعَى لَهَا سعيها.

وهذا يسمَّى: تفكُّرًا، وتذكُّرًا، ونظرًا، وتأمُّلًا، واعتبارًا، وتدبُّرًا، واستبصارًا. وهذه معانٍ متقاربةٌ تجتمعُ في شيءٍ وتفترقُ في آخر ".

السفر إلى الله

يصف ابن القيم رحمه الله رحلة العباد في هذه الدنيا ويبين أقسام العباد في سفرهم إلى ربهم فيقول رحمه الله:" العبدُ من حين استقرَّت قدمه في هذه الدار فهو مسافر إلى ربِّه ، ومدَّة سفره هي عمره الذي كتب له ، فالعمر هو مدَّة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربِّه تعالى ، ثُمَّ قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره ، فكلُّ يوم وليلة مرحلةٌ من المراحل، فلا يزالُ يطويها مرحلةً بعد مرحلةٍ حتَّى ينتهي السفر.

فالكيّس الفطِن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه ، فيهتم بقطعها سالمًا غانمًا ، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه ، ولا يطول عليه الأمد ، فيقسو قلبه ، ويمتد أمله، ويحضره التسويفُ والوعد والتأخير والمطل ؛ بل يعدّ عمرَه تلك المرحة الواحدة ، فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته ، فإنَّه إذا تيقن قِصَرَها وسرعة انقضائها هان عليه العمل ، وطوَّعت له نفسه الانقياد إلى التزود ؛ فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك ، فلا يزالُ هذا دأبه حتَّى يطوي مراحل عمره كلَّها ، فيحمد سعيَه ، ويبتهج بما أعدَّه ليوم فاقته وحاجته ، فإذا طلع صبح الآخرة ، وانقشع ظلام الدنيا ، فحينئذٍ يحمد سُراه، وينجلي عنه كَراه، فما أحسنَ ما يستقبل يومَه، وقد لاحَ صباحُه، واستبانَ فلاحُه!

ثمّ النَّاس في قطع هذه المراحل قسمان: فقسم قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاءِ ، فكلَّما قطعوا مرحلةً منها قربوا من تلك الدَّار، وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته ، فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاداته ، ومعاداة رسله وأوليائه ودينه ، والسعي في إطفاء نوره ، وإبطال دعوته - دعوة الحق - وإقامة دعوة غيرها ، فهؤلاءِ جعلت أيَّامهم مراحل يسافرون فيها إلى الدار التي خلقوا لها ، واستعملوا بعملها ، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم حتى يسوقونهم إلى منازلهم سوقًا ، كما قال تعالى:" أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا "، أي تزعجهم إلى المعاصي والكفرِ إزعاجًا، وتسوقهم سوقًا.

القسم الثاني : قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى اللَّه وإلى دار السلام ، وهم ثلاثة أقسام : ظالمٌ لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات بإذن اللَّه. وهؤلاء كلهم مستعدون للسير ، موقنون بالرجعى إلى اللَّه ، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفسِ السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه مقصر في الزاد ، غير آخذٍ منه ما يبلّغه المنزل ، لا في قدره ولا في صفته ؛ بل مفرِّط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده ، ومع ذلك فهو متزوِّد ما يتأذَّى به في طريقه ، ويجد غِبَّ أذاه إذا وصلَ المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار.

والمقتصد اقتصر من الزاد على ما يبلّغه ، ولم يشدَّ مع ذلك أحمالَ التجارة الرَّابحة ، ولم يتزود ما يضره ، فهو سالم غانم ، لكن فاتته المتاجر الرَّابحة ، وأنواع المكاسب الفاخرة.

والسابق بالخيرات همُّه في تحصيل الأرباح ، وشدِّ أحمال التجارات ، لعلمه بمقدار الربح الحاصل ، فيرى خسرانًا أن يدخر شيئًا ممَّا بيده ولا يتجر فيه ، فيجدُ ربحَه يوم يغتبط التجار بأرباح تجارتهم ، فهو كرجل قد علم أنَّ أمامه بلدةً يكسب الدرهم فيها عشرةً إلى سبعمائه وأكثر ، وعنده حاصل ، وله خبرة بطريق ذلك البلد ، وخبرة بالتجارة ، فهو لو أمكنه بيعُ ثيابه وكلّ ما يملك حتَّى يهيئ به تجارةً إلى ذلك البلد لفعل ، فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن ربِّه ، يرى خسرانًا بيِّنًا أن يمرَّ عليه وقتٌ في غير متجر."

ذكرى للقلوب الغافلة

"الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2" (
]سورة الملك[

"أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ "
]سورة النساء[

تأمل معي هذه الآيات من سورة المؤمنون ، يقول الله تعالى:" وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) " ، هذه الآيات تتحدث عن تكوين الإنسان ونشأته ، ثم تنتقل الآيات انتقال مباشرة إلى الموت والآخرة ، " ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)" ، لم يذكر الدنيا ؛ إذ أنها قليلة الشأن ، كما أنها قصيرة فهي كالعدم.!

وما حالاتنا إلا ثلاثٌ * شبابٌ ثُمّ شيبٌ ثُمّ موتٌ
وآخرُ ما يكونُ المرءُ شيخاً * ويتلوه من الأسماء ميتٌ

يقول الله تعالى :" قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ، وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ " ، الموت : مخلوقٌ قهر الله به العباد ، و دلّ به على كماله ، وضعف الخلق، " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ" ذاقه البرّ والكافر والعنيد والفاجر، وكما قال الشاعر:

للموت فينا سهام وهي صائبة * من فاته اليوم سهم لم يفته غدا

وسكون الموت ليس فناءً محضاً ، وليس عدماً صِرفاً ، إنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ، والحيلولة بينهما ، وتبدل حال بانتقال من دارٍ إلى دار ، " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ " ، وقد أحسن من وعظ فقال:

مثّل لنفسك أيها المغرور * يوم القيامة والسماء تمور
وإذا الجنين بأمه متعلقٌ * خوف الجحيم وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف لهوله * كيف المقيم على الذنوب دهور

والموت من أشد الأشياء على الإنسان ، حتى وصفه بعضهم فقال بعضهم :" للموت أشد من ضرب بالسيوف ، ونشر بالمناشير ، وغلي بالقدور."

والموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً ، ولا غنياً ولا فقيراً ، ولا سقيماً ولا صحيحاً ، " وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُون."

تزوّد من الدنيا فإنّك لا تدري * إذا جنّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجر
فكم من صحيحٍ مات من غير علّةٍ * وكم من سقيمٍ عاش حيناً من الدهر

وكم من صغارٍ يُرتجى طولُ عمرهم * وقد أُدخلت أجسادهم ظلمت القبر
وكم من عروسٍ زيّنوها لزوجها * وقد نُسجت أكفانها وهي لا تدري

"اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ " ، القلوب لاهية ، وقست قلوب كثيرٍ من الناس " فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ "، وقليلٌ من الناس هم من أصحاب القلوب المستيقظة ، فهم الغرباء ، فقد طغت الدنيا والمادية على الناس حتى أنستهم الموت ، وكأنّهُ صار عندهم ضرباً من ضروب الخيال ، وكأنهم خالدون في هذه الدنيا ، وكأنهم لن يُحاسبوا ، فصاروا يقتحمون المعاصي والخطايا ، ويتسببون في المصائب والبلايا ، وكأنهم قد افلتوا من يد الموت ، " قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ " ، " قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُم."۔

هو الموت ما منه ملاذٌ ومهربُ * متى حطّ ذا عن نعشه ذاك يركبِ
نؤمّلُ آمالاً ونرجو نتاجها * وعلَّ الردى عمّا نرجّيه أقرب
إلى الله نشكو قسوة في قلوبنا * وفي كل يوم واعظُ الموت يندب

الناس لا تريد الموت ، ولا تُحب ذكر سيرته ، ولكنه سيأتي لا محالة ، يصف الله لحظات الموت فيقول :" وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ "، كل باكٍ سيُبكى ، وكل ناعٍ سيُنعى ، وكل مذكورٍ سيُنسى ، وكل مذخور سيفنى ، ليس غير الله يبقى ، من علا فالله أعلى.

أخي ما بال قلبك ليس ينقى * كأنّك لا تظن الموت حقّا
أيا ابن الذين فنوا وبادوا * أما والله ما بادوا وتبقى

وما أجمل ما قال ابن عمر رضي الله عنه حين أوصى فقال :" إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك."

يُروى أن رجلاً أرسل إلى أحد الصالحين ، فقال له:
الموتُ بابٌ كل الناس داخله * يا ليت شعري بعد الموت ما الدار؟!

فرد عليه :
الدارُ جنات عدنٍ إن عملت بما * يرضي الإله ، وإن خالفت فالنار
هما داران ما للناس غيرهما * فانظر لنفسك ماذا أنت تختارِ

واعلم أن الدنيا سريعة الزوال، وهي معبر وليست دار مقر ، فاجعل الدنيا وسيلة للآخرة لا غاية ، اجعل الدنيا في يدك لا قلبك ، فقد حثّنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزهد والرضا بالقليل ، فقال لنا :" كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " ، فعابر السبيل ليس بمقيم.

يُودُّ المرءُ في الدنيا خلوداً * وهل في هذه الدنيا خلودِ

ومن نزلت بساحته المنايا * فلا أرضٌ تقيه ولا سماءُ

وما أجمل ما قاله ابن رجب في قصيدته في ذم قسوة القلوب ، حيث قال:

أفي دار الخراب تظلّ تبني * وتعمر ما لعمران خلقت
و ما تركت لك الأيام عذراً * لقد وعظتك لكن ما اتعظت
تنادي للرحيل بكل حين * وتُعلنُ إنما المقصود أنت
و تسمعك النداء و أنت لاهٍ * عن الداعي كأنك ما سمعت
و تعلم أنه سفرٌ بعيد * وعن إعداد زادٍ قد غفلت
تنام و طالب الأيام ساعٍ * وراءك لا ينام فكيف نمت
معائب هذه الدنيا كثيرٌ * و أنت على محبتها طبعت
يضيع العمر في لعب ولهوٍ * ولو أعطيت عقلاً ما لعبت
فما بعد الممات سوى جحيم * لعاصٍ أو نعيمٍ إن أطعت
و لست بآمل ردّاً لدنيا * فتعملَ صالحاً فيما تركت
و أول من ألوم اليوم نفسي * فقد فعلت نظائر ما فعلت
علمتَ فدعْ سبيل الجهل واحذر * وصحّح قد علمتَ وما عملتِ
ويا من يجمع الأموال قلْ لي * أيمنعك الردى ما قد جمعت ؟!

ثم ذكر رحمه الله كلام الناس عن الذين ماتوا لهم ، فقال :

تُحدّث عنهم وتقول كانوا * نعم كانوا كما والله كنت
حديثك هم وأنت غدا حديثٌ * لغيرهم فأحسن ما استطعت

وقد قيل في الاستعداد والتحذير:" احذر من أربع غارات :غارة ملك الموت على روحك، وغارة الورثة على أموالك ، وغارة الدود على جسدك ، وغارة الغرماء على حسناتك ".

وجاء في الحديث " اغتنم خمساً قبل خمس " ، وذكر منها " حياتك قبل موتك " ، فإنما أنت يا ابن آدم أيام ، إذا ذهب يوم ذهب بعضك ، واعلم أن وقتك وعمرك رأس مالك ، فلا تضيعه.

وقد سئل صلى الله عليه وسلم :" أي المؤمنين أكيس ؟! " ، فقال :" أكثرهم للموت ذكرى وأحسنهم لما بعده استعداداً أولئك الأكياس " ، والأكياس معناها العاقلون الأذكياء ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول :" أكثروا ذكر هادم اللذات " ، فمن أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، و كان قنوعاً غنياً.

ومن أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، و قناعة القلب ، و نشاط العبادة ، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة : تسويف التوبة ، و عدم القناعة ، و التكاسل في العبادة.

وقال عمر بن عبدالعزيز :" أكثر من ذكر الموت: فإن كنت في ضيق من العيش وسّعه عليك ، وإن كنت في سعةٍ من العيش ضيّقه عليك " ، و تذكر بأن عسكر الموت ينتظرونك فتذكر واستعد.

فإذا أيقن العبد أن الموت أمر حتمي وأنه سيلاقي ربه أدى ذلك إلى أن يكون العبد زاهداً في الدنيا راغباً عنها ، مقبلاً على الآخرة راغباً فيها.

يابن آدم أنت الذي ولدتك أمك باكياً * والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا * في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

إذا علمت قُرب الموت وأنك لن تقدر على الرجوع إلى هذه الدنيا بعد الفوت فعليك بالتوبة والأعمال الصالحة ، يقول تعالى:" وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (11) " ، وقال تعالى:" حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا " ، وقد أحسن من أنشد فقال:

لا ينفع الإنسان في قبره إلا التقى وصالح العمل
يا من بدنياه اشتغل وغرّه طول الأمل
و قد مضى في غفلةٍ حتى دنى منه الأجل
الموت يأتي بغتة و القبر صندوق العمل

فأحسن العمل يا عبد الله ، حتى تفرح بما عملت يداك ، عليك بالآخرة يا عبدالله ، وتذكر أن الله تعالى يقول :" بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) " ، ويقول سبحانه :" وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35." (

الآخرة ، " يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (36) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41) " ، قدّم لحياتك حتى لا تكون ممن قال الله فيه :" يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) " ، ندمٌ حين لا ينفع ندم ، و حسرة لا تنفع شيئا.

فبادر بالتوبة ، " يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) " ، اجعل هدفك تلك الدار التي " حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) " ، يقول تعالى:" تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) " ، وقال سبحانه:" وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) " ، وقال تعالى:" وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57) " ، وقال تعالى:" وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32)" ، وقال تعالى:" وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) ".

رُويَ أن محمد بن سيرين لما حضرته الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ ، فقال :" أبكي لتفريطي في الأيام الخالية ، وقلة عملي للجنة العالية."

تُبْ إلى الله من قبل أن تقول :" يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) " ، تُبْ إلى الله قبل أن يأتي يوم قال الله عنه :" وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29) " ، تُب إلى الله قبل أن يُقال لك :" كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14." (

يقول تعالى:" وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (18." (

واعلم يا عبدالله أنّك إذا ما تبت لله فإنّ الله سيقبلك ، " وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25) " ، وقال تعالى:" أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104." (

الله عز وجل يدعو عباده للتوبة ويحثهم عليها ، ويخبرهم بأن أبوابه مفتوحة ، وأنه يقبل من أقبل إليه ، فيقول تعالى:" قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61." (

وقد أثنى الله على أقوام فقال:" وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136." (

"فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ " ، " أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74) " ، قال تعالى:" وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3." (

يقول الله تعالى مبيناً لنا سعة رحمته وعظمة مغفرته:" وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (110) " ، سبحان الله نقابله بالسوء والعصيان ، ويقابلنا بالتوبة والغفران ، فسبحان الرحمن.

ما أعظم الله ، وما أوسع رحمة الله ، يقول الله تعالى في الحديث القدسي :" يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك شيئا بي لأتيتك بقرابها مغفرة."

فحاسب نفسك قبل أن تحاسب ، حاسب نفسك قبل أن يدركك الموت ، وهو مدركك لا محالة ، " وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا " ، وراجع وانظر لنفسك أين أنت من تعلم دينك ؟ أين أنت من تعلم التوحيد ؟ أين أنت من تعلم السنة ؟ فإن الله سائلك يوم القيامة ، فهل أعددت للسؤال جواباً ؟.

الفصل السادس: التفكر في القرآن (التدبر)

مدخل

"أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"
]سورة محمد[

"أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا "
]سورة النساء[

" ولقد ندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن "
[ابن تيمية]

" من أُوتي القرآن فظنّ أن غيره قد أُوتي خيراً منه فقد ازدرى نعمة الله عليه "
[سعيد الكملي]

كتاب الله عز وجل هو أعظم الكتب ، وهو كلام العظيم خالق الكون سبحانه وتعالى ، يقول الحسن بن علي :" إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم ، فكانوا يتدبرونها بالليل ، ويتفقدونها في النهار " ، وتأمل شدة حرص السلف على الاعتناء بالقرآن ، فقد روي عن إبراهيم بن سعد الزهري قال:" كان أبي يحتبي ، فما يحل حبوته حتى يختم القرآن " ، والسنةُ والأولى أن يختم القرآن في سبعٍ فهو فعل الأكثرين من السلف ، وعليه ألا يختمه في أقل من ثلاث ، ولكن يُحمل هذا على محملٍ حسن ، كبعض الأحوال التي ذكر فيها بعض أهل العلم أنه يُستحبُ فيها الإكثار من التلاوة مثل شهر رمضان، قال ابن قدامة :" ويُكرَه أن يؤخر ختمة القرآن أكثر من أربعين يوماً " ، وقال القرطبي : " والأربعين مُدّة الضعفاء وأولي الاشغال."

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :" فَتَبَارَكَ الَّذِي جعل كَلَامه حَيَاة للقلوب ، وشفاء لما فِي الصُّدُور ، وَبِالْجُمْلَةِ فَلَا شَيْء أَنْفَع للقلب من قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبر والتفكر ؛ فَإِنَّهُ جَامع لجَمِيع منَازِل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين ، وَهُوَ الَّذِي يُورث الْمحبَّة والشوق ، وَالْخَوْف والرجاء والإنابة ، والتوكل وَالرِّضَا والتفويض ، وَالشُّكْر وَالصَّبْر ، وَسَائِر الأحوال الَّتِي بهَا حَيَاة الْقلب وكماله.

وَكَذَلِكَ يزْجر عَن جَمِيع الصِّفَات والأفعال المذمومة وَالَّتِي بهَا فَسَاد الْقلب وهلاكه ، فَلَو علم النَّاس مَا فِي قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبر لاشتغلوا بهَا عَن كل مَا سواهَا ، فَإِذا قَرَأَهُ بتفكر حَتَّى مر بِآيَة وَهُوَ مُحْتَاج إِلَيْهَا فِي شِفَاء قلبه كررها وَلَو مائَة مرّة ، وَلَو لَيْلَة ، فقراءة آيَة بتفكر وتفهم خير من قِرَاءَة ختمة بِغَيْر تدبر وتفهم ، وأنفع للقلب ، وأدعى إِلَى حُصُول الإيمان ، وذوق حلاوة الْقُرْآن ، وَهَذِه كَانَت عَادَة السّلف ، يردد أحدهم الآيَة إِلَى الصَّباح ، وَقد ثَبت عَن النَّبِي أنه قَامَ بِآيَة يُرَدِّدهَا حَتَّى الصَّباح ، وَهِي قَوْله :" إِن تُعَذبهُمْ فَإِنَّهُم عِبَادك ، وَإِن تغْفر لَهُم فَإِنَّك أَنْت الْعَزِيز الْحَكِيم ".

فقراءة الْقُرْآن بالتفكر هِيَ أصل صَلَاح الْقلب ، وَلِهَذَا قَالَ ابْن مَسْعُود :" لا تهزوا الْقُرْآن هَز الشّعْر ، وَلَا تنثروه نثر الدقل ، وقفُوا عِنْد عجائبه ، وحركوا بِهِ الْقُلُوب ، لَا يكن هم أحدكم آخر السُّورَة" ، وروى أبو أيوب عَن أبي جَمْرَة قَالَ:" قلت لِابْنِ عَبَّاس: اني سريع الْقِرَاءَة ، إِنِّي أقرا الْقُرْآن فِي ثَلَاث، قَالَ: لَأن أَقْرَأ سُورَة من الْقُرْآن فِي لَيْلَة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أَقْرَأ الْقُرْآن كَمَا تقْرَأ ".

والتفكر فِي الْقُرْآن نَوْعَانِ: تفكر فِيهِ ليَقَع على مُرَاد الرب تَعَالَى مِنْهُ ، وتفكر فِي مَعَانِي مَا دَعَا عباده إلى التفكر فِيهِ ، فالأول تفكر فِي الدَّلِيل القرآني ، وَالثَّانِي تفكر فِي الدَّلِيل العياني ، والأول فكر فِي آيَاته المسموعة ، وَالثَّانِي تفكر فِي آيَاته المشهودة ، وَلِهَذَا انْزِلْ الله الْقُرْآن ليتدبر ويتفكر فِيهِ وَيعْمل بِهِ ، لَا لمُجَرّد تِلَاوَته مَعَ الإعراض عَنهُ ، قَالَ الْحسن الْبَصْرِيّ :" أُنْزِلْ الْقُرْآن ليعْمَل بِهِ ، فاتخذوا تِلَاوَته عملا " انتهى كلام ابن القيم رحمه الله من كتابه مفتاح دار السعادة.

<u>عادة الإمام أحمد</u>

كان الإمام أحمد رحمه الله يختم القرآن كل أسبوع نظراً من المصحف ، وهذه عادةٌ نفيسة عظيمةُ المنافع لحفظة القرآن وغير الحفظة ، ويكفي منها كثرة الأجور التي يُحصِّلُها من داوم على هذه العادة ! ، فالحرف بحسنة والحسنة بعشرة أمثالها.

فهذه العادة لها فوائد كثيرة ، من أهمها:

1- **الاستكثار من الثواب**

2- **ومنها الامتثال لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول عليه الصلاة والسلام :" اقرؤوا القرآن " ، فأمر بقراءته ، وبيّن لنا فضل ذلك فقال :" فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه " فما أعظمه من فضل ! ، الناس في ذلك الكرب والشدة والأهوال ، فيأتي القرآن يشفع لأصحابه ، فهل هذا فضلٌ يُضيَّع ؟.**

3- **ومنها مُعاهدة المحفوظ ودوام مراجعته وإتقان متشابهاته.**

4- **ومنها شُغل الوقت بما ينفع ، وبالتالي البُعد عن المعاصي وعن ضياع الأوقات ، فالنفس إن لم تشغلها بما ينفعها شغلتك بما يضرك.**

5- **ومنها حفظ العقل ، قال تعالى :" وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا " ، قال عكرمة :" مَنْ قَرَأَ القرآن لم يصر بهذه الحالة."**

6- **ومنها ألا تكون هاجراً للقرآن.**

بلاغة القرآن

"يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا"
قال مقاتل :" يَعْنِي عِلْمَ الْقُرْآنِ "
[البرهان في علوم القرآن - للزركشي]

وفرعٌ من البلاغة القرآنية أنها بلاغةٌ جمعت حقائق ، فمن الناس من هو بليغ لكن كلامه ضربٌ من الخيال ، ومنهم من يذكر الحقائق لكن كلامه جافٌ ، لا بلاغة فيه ، وأما القرآن فقد جمع بين الاثنين ، وبلاغته أكبرُ من ذلك ، ويكفي أنه أعجز العرب الذين هم أهل اللسان ، والذين كانت صناعتهم البلاغة ! ، فالقرآن حقائقٌ وبلاغة ، وإعجازٌ وعلم وفصاحة ، وحججٌ تقبلها العقول السليمة، فالقرآن كلام الله الذي لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته ، ولو جيئ بمثله مدداً ، فتبارك الله رب العالمين الذي وسِع كل شيء علماً.

ونذكر بعض أمثلة البلاغة القرآنية والتي لها أثرٌ بليغٌ في المعنى ، ولها أثرٌ عميق على نفس المتلقي ، يقول الله تعالى:" وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) " ، يقول الزركشي متحدثاً عن أثر حروف الجر في المعاني:" فَاسْتُعْمِلَتْ (عَلَى) فِي جَانِبِ الْحَقِّ ، وَ(فِي) فِي جَانِبِ الْبَاطِلِ ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الْحَقِّ كَأَنَّهُ مُسْتَعْلٍ ، يَرْقُبُ نَظَرُهُ كَيْفَ شَاءَ ، ظَاهِرَةٌ لَهُ الْأَشْيَاءُ ، وَصَاحِبُ الْبَاطِلِ كَأَنَّهُ مُنْغَمِسٌ فِي ظَلَامٍ وَلَا يَدْرِي أَيْنَ تَوَجَّه. ".

وتأمل كذلك قول الله تعالى :" لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا (22) " ، فانتظام العالم السلفي والعلوي دليل على وحدانية الخالق ، وفي الآية إشارةٌ بليغة لطيفة فلو كانت السماوات والأرض تفسدان بالشرك فكيف بالقلوب ؟.

وتأمل قول الله تعالى :" وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (88) " ، فإن هذا كما قال بعض أهل العلم مثل عمل المخلصين ، تراهم في أسرَّتِهم ساكنين وأعمالهم تمرُّ مرَّ السحاب.

وتأمل قول الله تعالى :" إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) " قال ابن زيد :" أي سليم من الشرك ، وأما الذنوب فلا يسلم منها أحد " ، وقال أبوعثمان النيسابوري :" هو القلب الخالي من البدعة ، المطمئن إلى السنة "، وقال بعض العلماء في قول جامع أن السلامة في الآية جاءت مطلقة ، فلم يقل : " سليم من الحسد " ، ولم يقل :" سليم من الكبر " ولم يقل :" سليم من كذا " ، بل جعلها مطلقة لتشمل كل سلامة ، فتشمل السلامة من الشرك والبدعة والحسد والكبر وغيرهما.

أزمة المصطلحات

من تفكر في كلام الناس ، وتفكر وتدبر وتأمل المصطلحات التي تدور من حوله وجد فيها كثيراً من الخطأ والباطل ، فتجد كثيراً من الأمور صارت تُسمَّى بغير مسمياتها وبغير حقيقتها ، نقف مع طرف من ذلك ، وهذا الباب وإن كان في وضعه نظر في هذا الكتاب إلا أن الحوجة إليه مآسة ؛ لتفشي ذلك بين الناس ، ولمركزية هذه لقضية ، إذ أن الألفاظ والمصطلحات له أثرٌ بليغ على النفس.

من تلك المصطلحات التي صارت شائعة بين الناس:

1- مصطلح " متشدد " : وصار - وللأسف الشديد - يطلق على المتمسك بدينه ، المتمسك بالكتاب والسنة، وهذا من زخرف القول وتسمية الأمور بغير مسمياتها حتى يبعث في النفوس النفور ، وحتى يجعل التصور الذهني للمتمسكين بالكتاب والسنة بأنهم متشددون ، وهذا من أخبث الطرق التي أبعد بها أعداء الدين كثيراً من المسلمين عن الكتاب والسنة ، واعلم أن أهل السنة ليس فيهم تشدد ولكن الناس قد ألفوا الميوعة ، كما قال الشيخ مقبل الوادعي رحمه الله.

2- مفهوم " استجابة الدعاء " : فإن كثيراً من الناس صار مفهومه لاستجابة الدعاء هو الحصول على الشيء الذي طلبه فقط ، وهذا قصور وحصر لهذا المفهوم ، فالاستجابة لها صور : فإما أن تُعطى سؤالك كما هو ، وإما أن يُصرف عنك شر بذاك الدعاء ، وإما أن يُدخر لك حسنات وهذا من أعظم الإجابة لحوجة الإنسان للحسنات للنجاة يوم القيامة ، أضف إلى ذلك قصور علم الإنسان ، فربما يدعو الإنسان بما يضره وهو يعتقد أنه نفع له ، فبدلاً من أن يعطيه الله سؤله كما هو يعطيه الحسنات ، وهذا المنعُ هو عين العطاء.

وقد نوهت في مقال لي إلى أنه علينا أن ننظر لموضوع الدعاء من عدة جوانب ، فللأسف كثيرٌ من الناس ينتظر إجابة الدعاء دون أن ينتبه إلى وقوعه في مانع أو أكثر من موانع إجابة الدعاء كالمأكل الحرام ، والمشرب الحرام ، أو كالدعاء بإثم أو قطيعة رحم ، أو العجلة في الدعاء وغيرها من الأمور ، وليرجع للمقال للاستزادة.

3- مصطلح " الظن " : فهذا المصطلح في حقيقته يطلق على الشك واليقين ، فصار يُفهم في هذا الزمان أن كل " ظن " فهو " شك " وهذا خطأ ، فإن العرب كانت تطلق بعض الكلمات على الشيء وضده ، فمثلاً كانوا يطلق البيع على الشراء ، فيقولون مثلاً :" ابتعت سيارة بكذا وكذا " والمقصود اشتريت ، وكذلك كانوا يطلقون على اللديغ سليماً تفاؤلاً ، وهكذا ، ومن ذلك لفظ الظن ، فهو يطلق على اليقين ، ومن ذلك قوله تعالى :" الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46) " ، وكذلك قوله تعالى :" فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) " ، فهذا القول لا يخرج ممن كان في شك ، وإنما يخرج ممن عظم يقينه ، والأمثلة كثيرة ، فتأمل.

4- مفهوم " الأحوط " : فإن كثيراً من الناس جعل الأخذ بالأحوط هو الأخذ بالأشد ، والأحوط - كما قال الشيخ سليمان الرحيلي - هو الأخذ بالدليل ، فانتبه.

5- قوله تعالى :" فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ " في قوله " وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) " ، فكثيرٌ من الناس يفهم أن " لن نقدر عليه " يُعنى بها العجز عن الشيء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، إنما معناها فظن أن لن نضيق عليه ، فالتقدير يطلق على التضييق ، كما قال تعالى :" اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ".

6- الزهد : يفهم كثيرٌ من الناس أن الزهد هو لبس البالي والممزق من الثياب القديمة ، ومفاهيم من هذا القبيل بسبب ما افتعله الصوفية ، وهذا إخراجٌ لهذه الكلمة عن حقيقتها ، فحقيقة الزهد هو ما قاله ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين :" ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن، أو غيره: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك مما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك ، فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه ".

وقال أيضا :" وكان نبينا من أزهد البشر على الإطلاق وله تسع نسوة ، وكان علي بن أبي طالب وعبدالرحمن بن عوف والزبير وعثمان رضي الله عنهم من الزهاد مع ما كان لهم من الأموال "، وقال : " وكان عبدالله بن المبارك من الأئمة الزهاد مع مال كثير ، وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد وكان له رأس مال يقول: لولا هو لتمندل بنا هؤلاء ".

وقال ابن رجب :" قال سفيان الثوري: الزهد في الدُّنيا قِصَرُ الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا بلبس العباء، وقال: كان من دعائهم: اللهم زهِّدنا في الدُّنيا، ووسِّع علينا منها، ولا تزوِها عنا، فترغِّبنا فيها ، وكذا قال الإمام أحمد: الزُّهد في الدُّنيا: قِصَرُ الأمل، وقال مرة: قِصَرُ الأملِ واليأسُ مما في أيدي الناس " انتهى كلام ابن رجب رحمه الله من كتابه جامع العلوم والحكم ، فيمكننا أن نقول باختصار أن الزهد هو عدم التعلق بالدنيا وعدم تربعها على قلب الإنسان ، فلو كان الإنسان ذا مالٍ كثير ولكن الدنيا ليست في قلبه فهو من الزهاد ، ومن كانت الدنيا في قلبه فليس من الزهاد ولو كان أفقر الناس.

7- قال تعالى :" وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا " ، قال ابن كثير :" أي : نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم ".

8- قال تعالى :" فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) " ، والذرة هي النملة الصغيرة.

9- ساعة الجمعة: يفهم بعض الناس من بعض النصوص التي وردت فيها كلمة " ساعة " كقول النبي صلى الله عليه وسلم كما في سنن ابن ماجه :" إن في الجمعة ساعة لا يوافقها رجل مسلم قائم يصلي يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه " وقللها بيده (أي: أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى قصر هذه الساعة) ، فيفهم بعض الناس أنها ساعة بمعنى 60 دقيقة ، والصواب أنها ساعة بمعنى فترة من الزمن.

والألفاظ كثيرة ، وليس هذا موضع بسطها ، ولكن هذه من أهمها ومن أكثرها انتشارا ، ويُرجع في ذلك إلى الكتب التي تناولت هذا الموضوع.

آياتٌ يُساء فهمها

بعض الناس يستشكل فهم بعض الآيات ، فيفهم آيةً ذات مُرادٍ خاص على عمومها ، أو يحملُ لفظةً عربيةً فصيحة على معنى لفظة مماثلةٍ لها في لغته العامية ، أو يفهم أسلوباً عربياً ذا دلالةٍ مُعينة بفهمٍ عصريٍ مخالف ، أو يفهم من لفظةٍ ما معنًى واحد في حين أن لتلك اللفظة أكثر من معنى ويكون المعنى المراد أحد المعاني التي لا غابت عليه ، فهذه كلها من موارد سوء الفهم.

ويجمع ذلك كله أن سبب الفهم الخاطئ إما أن يرجع إلى اللفظ أو يرجع إلى التعامل مع الأسلوب.

من الأمثلة على ذلك قول الله تعالى:" وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ " فيفهم كثير من الناس أن الآية للتخيير ، ولم يقل بذلك أحد من العلماء والمفسرين الذين عليهم مدار التفسير ، بل الآية للتهديد والوعيد كما قال ذلك الطبري وابن كثير والقرطبي والسعدي والعثيمين ومحمد الأمين الشنقيطي وغيرهم ، وهي كقوله تعالى :" اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40) " ، ودليل ذلك باقي الآية :" إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا " ، فلو كانت الآية للتخيير لما توعد مختار الكفر ، وكذلك قول الله تعالى :" لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6) " ليست للتخيير وإنما هي للبراءة ، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه السورة براءة من الشرك.

ويرجع لفهم الآيات ومعرفة معناها الصحيح إلى كتب التفسير المعتمدة.

وكذلك عليك أن تعلم أن الأدلة الشرعية لا تتعارض ، فبعض الناس يسيء فهم بعض النصوص فيضرب بعضها ببعض ، ومثاله أن يجد أمراً ما مثبتاً في آية ومنفي في أخرى ، كنفي الشفاعة في بعض الآيات الشرعية وإثباتها في البعض الآخر ، وليس في ذلك تعارض ، وإنما الشفاعة قسمان شفاعة مثبتة وشفاعة منفية ، فالآيات التي فيها النفي تتحدث عن نوعٍ معينٍ من الشفاعة ، وهي شفاعة منتفية ، والآيات التي فيها الإثبات تتحدث عن شفاعة أخرى ، وهي شفاعة مثبتة ، وهكذا بقية النصوص ، فإن لكثير من الأشياء أكثر من قسم ونوع ، ولكل نص محمل يُحمل عليه ، ويتبين ذلك من النصوص ومن عوامل أخرى.

وحل مثل هذه الإشكالات يكون في استحضار أقسامها وأنواعها ومعانيها.

ومثال آخر أن للنسيان أكثر من معنى ، فمن معانيها الترك ، كقول الله تعالى :" قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى " ، أي تركتها وكذلك اليوم تترك ، ومثل ذلك قول الله تعالى:" وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا " أي فترك الأمر كما قاله بعض العلماء.

ومن معاني النسيان غياب العلم ، وهذا يُنزه الله عنه كما قال تعالى مخبراً عن موسى عليه السلام أنه قال :" لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى " ، فقوله تعالى :"كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى " ، بمعنى الترك ، وقوله تعالى:" وَلَا يَنْسَى " بمعنى عدم العلم ، فلا تعارض بينهما كما يتوهم المتوهم ، والحمدلله رب العالمين.

ومثال آخر قول الله تعالى:" وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ - وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ - فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ ، وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ، مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ ، فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ ، وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ ، وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيم " ، كلمة المحصنة لها أكثر من معنى ، فمن معاني المحصنة الحرة ، ومن معانيها المتزوجة ، والمقصود هنا الحرة ، بدلالة الآية نفسها ، إذ يقول الله تعالى :" وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ " ، فكيف تتزوج وهي أصلاً متزوجة ؟! ، إذن فمعنى المحصنة في الآية هي الحرة ، والحرة إذا زنت فحدها مئة جلدة ، وغير المحصنة (أي من الإماء ممن ليست حرة) إذا زنت فعلى النصف من ذلك ، فالعبد والأمة حدهما خمسون جلدة سواء كانا بكرين أو ثيبين ، وأحكامهما في مسائل - كهذه المسألة - تختلف عن حكم الحر والحرة ، ونحن علينا التسليم لأمر رب العالمين الحكيم العليم سبحانه .

وقد ذكرنا هذا الكلام لأن بعض الناس يستدل بالآية في إنكار حد الرجم لمن زنت وهي حرة متزوجة ، وليس له في الآية حجة لإنكار حد الرجم على الحرة المتزوجة التي زنت ، فإن الآية تتحدث عن المحصنة بمعنى الحرة ، وتتحدث عن الأمة إذا تزوجت ، ولا تتحدث عن حكم الحرة المتزوجة إذا زنت.

هذا بيان مختصر للمراد بهذا الباب ، فليتنبه إليه فإنه هام جداً .

الحجج العقلية في القرآن

الإنسان مأمورٌ باستخدام عقله في نطاق ما أباحه الشرع لا خارجه ، قال تعالى :" وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " ، فالعقلُ لإدراك الشرع لا للتشريع ، إذ العقول لا تصلح كمعيار للتشريع ، فالعقول متفاوتة ، فعقلُ من يُشرِّع ؟ ، وعقل من نُحكِّم ؟ ، فإن كل إنسان يدعو إلى عقله ويُعجَبُ بفكرِه.

والحجج العقلية في القرآن كثير ، وقد تقدم ذكر مثال على الحجج العقلية في القرآن الكريم عند حديثنا عن البعث فليرجع إلى ذلك الباب.

الفصل السابع: التفكر في حال النبي صلى الله عليه وسلم

النبي صلى الله عليه وسلم يرى الجنة والنار

هذا الفصلُ بردُ يقين ، وطردٌ لوساوس الشياطين.

أرأيت لو كنت تعبر طريقاً، وكان قد ذهب بصرك ، وإذا بصارخٍ يصرخ وصوتٌ يعلو أذنيك ، صوت صديقك الصدوق وأخيك الشفوق الذي تعلم يقيناً أنه يريد لك الخير ، ويريد إنقاذك ، يصرخ لك ، يحذرك وينذرك :" احذر ! احترس ! شاحنةٌ قادمة باتجاهك "، كيف كان سيكون موقفك ؟! ، هل ستتردد في الابتعاد عن الطريق ؟! ، هل ستكذب صديقك الذي صادقك وصدقك وما عهدت عليه كذباً قط ؟! ، لا والله لن تكذبه ، ستصدق خبره ، حتى ولو لم ترى عيناك الشاحنة قادمة باتجاهك ، ستصدق خبره وستنقذ نفسك .

هذا مثل حالنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو رسولٌ أرسله الله لنا ، ليخرجنا من الظلمات إلى النور، ومن النيران إلى الجنان ، فإنه صلى الله عليه وسلم حاشاه أن يكذب ، بل هو الذي كان يُلقَّب قبل بعثته بالصادق الأمين ، فإذا كان لا يكذب على الناس ، فكيف يكذب على رب العالمين ؟! ، يقول عبدالله بن سلام رضي الله عنه :" لمَّا قدمَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ المدينةَ، انجَفلَ النَّاسُ قبلَهُ، وقيلَ: قد قدمَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ، قد قدمَ رسولُ اللَّهِ، قد قدمَ رسولُ اللَّهِ ثلاثًا، فَجِئْتُ في النَّاسِ، لأنظرَ، فلمَّا تبيَّنتُ وجهَهُ، عرفتُ أنَّ وجهَهُ ليسَ بوَجهِ كذَّابٍ " ، شهادة ممن كان حبراً من علماء اليهود قبل إسلامه ، ولا الكلام الذس جاء به صلى الله عليه وسلم كلام كذاب ، بل حق مبين ، " وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ " ، صدّقت به الكتب السابقة ، وأخبر عن غيبيات لاحقة ، ورأينا ذلك بأم أعيننا ، كيف لا وهو كتاب ينطق حكمة وحُكْماً ، صدقاً وعلما.

وتأمل لو ذُهِب بك إلى الآخرة ، ورأيت الجنة والنار ، ثم رجعت إلى الدنيا ، كيف سيكون حالك بعد رؤيتك لذلك ؟ ، هل سيهدأ لك بال ؟ ، الذي سيحدث لك أنك ستدعو قومك ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً ، ستلاحق أفراد عائلتك الذين بَعُدُوا عن الدين ، تأمل حال النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول تعالى :" فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) " ، جاء في التفسير الميسر :" فلعلك -أيها الرسول- مُهْلِك نفسك غمًّا وحزنًا على أثر تولِّي قومك وإعراضهم عنك، إن لم يصدِّقوا بهذا القرآن ويعملوا به."

جاء في صحيح مسلم عَنْ جابرٍ - رَضْيَ اللهُ عنه - قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: " مَثَلِي ومَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نارًا، فجعَل الجَنادِبُ والفَراشُ يَقَعْنَ فيها وهو يَذُبُّهنَّ عنها وأنا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عن النَّارِ، وأنتم تَفَلَّتونَ مِنْ يَدِي " ، بعد كل هذا كثيرٌ من الناس أبى إلا أن يدخل تلك النار، وحجتهم :" نحن لا نرى تلك الشاحنة ! " ، أقول لك إذن :" انتظر حتى تصدمك ! ."

"وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُون."

"وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُون."

صاروا لا يؤمنون إلا بما يرون، صارت مصادر المعرفة عندهم مصدر واحد، وهو الرؤية، ولسان حالهم :" أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً " ، هؤلاء هم الذين يقولون يوم القيامة :" وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ " ، أمثال هؤلاء يبدو أنهم لو فقدوا أبصارهم لن يؤمنوا حتى بمن أمامهم، والسبب في ذلك أنهم لا يروه !! واعلم أن مجرد عدم رؤيتك للشيء لا يعني عدم وجوده ! فليتك تفهم.

بعد هذا نفهم معنى الإيمان بالغيب، الذي افتُتِحت به سورة البقرة :"ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ."

وكذلك جاء بعد قوله تعالى في سورة الملك :" وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ " ، قال بعدها :" إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ " ، والإيمان بالغيب مما يتضمنه الاستسلام لله تعالى ، وقد تقدم الحديث عن الاستلام لله تعالى.

ونحن كمؤمنون لا نقول :" أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً " ، بل نقول :" رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ " ، آمنا بآيات ربنا، آمنا بربنا، كفتنا آياته، لو لم يكن منها إلا آيةٌ واحدة لكفت، فكيف بحزمة من الآيات التي ترسخ الإيمان ولا تكسرها معاول الشبهات ، فإنا قد كفتنا الآيات، ولو واصلت هذه المعاول الطرق إلى أن تقوم الساعة ما خدشت إيماننا ، مهما تأتي من شكوك ، ومهما تأتي من شبهات ووساوس فإنها لا تستطيع الصمود أمام نور الحق ، بل مهما طرأ على أهل الإيمان شيءٌ قالوا :" آمنا به كل من عند ربنا "، هذا حال الراسخين في العلم " وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ."

وبعد هذا نفهم عظمة درجة الإحسان " أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك "، هؤلاء هم المحسنون، قامت الآيات في قلوبهم، وأذعنت قلوبهم لربهم، فصاروا يعبدونه كأنهم يرونه، فهم كحال الأعمى والشاحنة في أول القصة ، ابتعد عن الطريق كأنه يراه بسبب الخبر الصادق الذي استقر في قلبه ، فهو وإن كانت عينا رأسه لا تُبصر إلا أنه يُبصر بقلبه ، وبيان المثال أن عابر الطريق هو الإنسان ، والعلم هو البصر ، فمن كان ذا علمٍ فهو بصير ، ومن لم يكن ذا علمٍ فهو أعمى ، " وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا " ، والنذير الصادق هو النبي صلى الله عليه وسلم ، ومخاطر الطريق هي المهلكات والهلكات ومنها جهنم أعاذنا الله منها.

جاء في صحيح البخاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إنَّ للهِ ملائكةً سيَّاحين في الأرض - فُضْلًا عن كُتَّابِ الناسِ يطوفون في الطُّرُقِ ، يلتمسون أهلَ الذِّكرِ ، فإذا وجدوا قومًا يذكرون اللهَ تنادوا : هَلُمُّوا إلى حاجاتِكم ، فيَحفُّونهم بأجنحتِهم إلى السماءِ الدنيا ، فيسألهم ربُّهم ، وهو أعلمُ منهم : ما يقول عبادي ؟ فيقولون : يُسبِّحونك ، ويُكبِّرونك ، ويحمَدونك ، ويمجِّدونك. فيقول هل رأوني ؟ فيقولون : لا واللهِ ما رأوك ، فيقول : كيف لو رأوني ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادةً ، وأشدَّ لك تمجيدًا ، وأكثرَ لك تسبيحًا.

فيقول : فما يسألوني ؟ فيقولون : يسألونك الجنَّةَ ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا واللهِ يا ربِّ ما رأوها ، فيقول : فكيف لو أنهم رَأوها ؟ فيقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حِرصًا ، وأشدَّ لها طلبًا ،

وأعظمَ فيها رغبةً ، قال : فمم يتعوَّذون ؟ فيقولون : من النَّارِ ، فيقولُ اللهُ : هل رأوها ؟ فيقولون : لا واللهِ يا ربِّ ما رَأوها ، فيقول : فكيف لو رأَوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشدّ منها فرارًا ، وأشدَّ لها مخافةً ، فيقول : فأُشهدِكُم أني قد غفرتُ لهم ، فيقولُ ملكٌ من الملائكةِ : فيهم فلانٌ ليس منهم ، إنما جاء لحاجةٍ ! فيقول : هم القومُ لا يَشْقى بهم جليسُهم."

بهذا الكلام يذوق الإنسان برد اليقين، وتنتفي عنه وساوس الشياطين، فلا يلتفت إليها بعد ذلك إليها بوجه، إذ اتضحت له الصورة، وبانت له الحجة، فما للملحد أو الشيطان عليه سبيل.

العلوم التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم دليلٌ على صدقه

يقول الله تعالى سبحانه وتعالى :" وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48) " ، هذه الآية من أدل الآيات على صدق النبي عليه الصلاة والسلام ، إذ أنه كيف لرجلٌ لا يقرأ ولا يكتب أن يأتي بكل هذه العلوم من شتى المجالات ، نظام قضائي متكامل ، نظام اجتماعي وأسري شامل ، ونظام أخلاقي متناسق ، هذا غير علوم الفلك ، وعلم الأجنة.

وأضف إلى ذلك إتيانه بأخبار المتقدمين والأمم السابقة مما لم يكن يعرفه قومه ، بل وأخبرهم بأمور ستحدث في المستقبل وقد حدثت ، كقوله تعالى :" غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ " ، وكتبشير النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته بفتح العديد من البلاد ، فقد بشَّرهم - وهم في غاية الكرب والشدة - في غزوة الأحزاب عندما تكالبت عليهم العرب ، وضربوا عليهم الحصار ، يبشرهم في تلك الحال بفتح الروم والشام والفرس ، ومن يفعل ذلك غير رجل صادق يوحى إليه ؟! ، هذا غير المعجزات الحسية التي شهدها جموع من الناس.

وكون النبي صلى الله عليه وسلم أمياً فهذا ليس قدحاً فيه ، بل هذا دليلٌ على نبوته ، كي لا يدعي الكفار أنه نقل هذه الأمور عن الكتب السابقة ، إذ كونه أمياً لا يتيح له الإطلاع على تلك الكتب ، أضف إلى ذلك ندرة الكتب وصعوبة الحصول عليها في ذلك الزمان ! ، ثم لو افترضنا أنه طالع الكتب فكيف له أن ينتقي فقط ما يصح من تلك الكتب ؟! ، كيف له أن يعرف الصحيح في علوم الفلك فينقله ، ثم يعرف الصحيح في علم الأجنة فينقله ، ثم يعلم الصحيح في علوم الجيولوجيا فينقله ؟ ، إذن لم يتبق إلا الإيمان الجازم بأن هذا ليس قول بشر ، وإنما هو وحيٌ من رب البشر خالق السماوات والأرض وخالق كل شيء سبحانه ، العليم بكل شيء المحيط به.

وأدلة صدق النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة ، ككثرة عبادته وكمال أخلاقه وغير ذلك ، فهذه الأمور الواحد منها دليل قوي ، فكيف بها مجتمعة ؟! ، إنها أدلة قاطعة لا تقبل النقاش ولا التشكيك.

زهده صلى الله عليه وسلم دليلٌ على صدقه

يرى عمر رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم على حصير ليس بينه وبينه شيء ، وتحت رأسه وسادة من جلد حشوها ليف ، فيرأى عمر أثر الحصير على جنب النبي صلى الله عليه وسلم فيبكي ، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم :" ما يبكيك ؟ " ، فيقول عمر :" يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله " ، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم :" أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟! " والحديث رواه البخاري ومسلم ، انظر إلى هذه العبارة الإيمانية المليئة باليقين ، بالله عليك هل هذا كلام يخرج بغير صدقٍ وإيمان ؟ ، فهذا كلام رجل كأنه يرى الآخرة تمتثل أمامه ، بل قد رأى الجنة والنار حقيقةً ، فزهد في الدنيا ، ورغب في الآخرة.

وينام النبي صلى الله عليه وسلم على حصير ، فيقوم وقد أثر على جنبه ، فيقول له الصحابة : " لو اتخذنا لك وطاء " ، فيقول لهم النبي صلى الله عليه وسلم ملخصاً حياته في الدنيا :" ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها " رواه سنن الترمذي.

عاش النبي صلى الله عليه وسلم حياة بسيطة – من الجهة المادية الدنيوية – فلم يكن له قصورٌ شاهقة ، ولا تلك العروش الذهبية المرصعة بالجواهر ، رغم أن الجموع التي حوله من الناس كانت كفيلة بجعله من الأثرياء ، ولو كان يريد الملك والدنيا لنالها ، لكنه الصدق في الدعوة والرسالة وإرادة ما عند الله من خير الآخرة ، والتي هي خير من الدنيا وما فيها.

كان عليه الصلاة والسلام في بعض الأحيان لا يجد حتى الطعام في بيته ، إذ كان يمر الهلال والهلالان والشهر والشهرين ولا يوقد في بيته صلى الله عليه وسلم نار كما عند البخاري ، وما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم النبي إلى المدينة من طعام بُرٍّ ثلاث ليال تباعاً حتى قُبِض.

يجلس بين أصحابه ، ويمشي في الأسواق ، حتى اتخذ الكفار ذلك مطعناً فيه وهو ليس بمطعن ، يقول تعالى :" وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (10." (

إن مما يبين صدق النبي صلى الله عليه وسلم زهده في هذه الدنيا ، ورغبته في الآخرة ، وشتغاله بالعبادة ، وكثرة صيامه وقيامه وصبره على الأذى ، وفي ذلك دليلٌ على وجود الآخرة والثواب والعقاب والجنة والنار ، وفيه دليلٌ كافٍ على صدق النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد كثُر في القُرآن الإشارة إلى مدح الزهد في الدنيا، وإلى ذمّ الرغبة في الدنيا ، وقد طبقاً النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عملياً ، قال تعالى :" بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى " ، وقال تعالى: " تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ " ، وقال مخبراً عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه: " يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَار."

والأحاديث في ذمِّ الدنيا وحقارتها عند الله كثيرةٌ جدًا ، ففي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه أنَّ النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - مرَّ بالسُّوقِ والنَّاسُ كَنَفَيْهِ، فمرَّ بجدي أسكَّ ميِّتٍ، فتناوله، فأخذ بأذنه ، فقال: "أيُّكم يُحبُّ أنَّ هذا له بدرهم؟ " ، فقالوا: ما نحبّ أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: "أتحبُّون أنّه لكم؟ " ، قالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا فيه ؛ لأنَّه أسكُّ ، فكيف وهو ميت؟ فقال: "والله، للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم."

"والله، للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم" عبارة تُبين لك الدنيا على حقيقتها ، وتُبين لك قدرها وقلة شأنها عند الله تعالى.

وخرَّج الترمذي من حديث سهل بن سعد، عن النبيِّ - صلى الله عليه وسلم -، قال: "لو كانتِ الدُّنيا تعدِلُ عندَ الله جناح بعوضةٍ، ما سقى كافرًا منها شربة"ٍ

وعند مسلمٍ عن المستورد الفهري، عن النبيِّ - صلى الله عليه وسلم -، قال: "ما الدُّنيا في الآخرة إلا كما يَجْعَلُ أحدُكم أصبَعَهُ في اليمِّ، فلينظر بماذا ترجع."

والزهد في الدنيا فرعٌ عن الثقة بالله ، قيل لأبي حازم الزاهد: ما مالُك؟ قال: لي مالان لا أخشى معهما الفقر: الثِّقةُ بالله، واليأسُ ممَّا في أيدي الناس. وقيل له: أما تخافُ الفقر ؟ فقال: أنا أخاف الفقر ومولاي له ما في السماوات ، وما في الأرض وما بينهما ، وما تحت الثرى؟.!

وقال الفضيلُ بن عياض: أصلُ الزُّهد الرِّضا عَنِ اللهِ ، وقد حقق النبي صلى الله عليه وسلم أعلى درجات الرضا ، فقد كان راضياً عند أقدار ربه رغم شدة البلاء ، فقريش أغلقت الطريق في وجه الدعوة في مكة، وتعرضت له ولأصحابه بالسخرية والإيذاء، وحوصر مع أصحابه ثلاث سنوات في شِعب أبي طالب، الذي لاقوا فيه الجوع والحرمان، والنَصَب والتعب الشديد ، ومع ذلك كله فرسول الله . صلى الله عليه وسلم . ماض في طريق دينه ودعوته، صابر لأمر ربه ، هذا غير موت أبنائه في حياته.

وفي ابتلاء الأنبياء حكمٌ كثيرة ، منها أنهم قدوة لمن خلفهم ، فهم قادة البشرية ، والبشرية تحتاج إلى قادة تتجلى فيهم المواقف ، فيتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس إذ أنهم يتذكرون ما جرى على الرسل والأنبياء فيصبرون ويرضون تأسياً بهم ، كما أن في تلك الابتلاءات رفعةٌ في درجات الكرامة ، ولو كان الأمر هيناً لنالها كل أحد ، وأضف إلى ذلك أن فيها تخليص القلب مما سوى الله ، فتكون قلوبهم خالصة لله تعالى ، لا تؤثر عليه سواه ، فتقبل وتنيب إلى الله ، ويكون همها وشغلها رضاه سبحانه.

قال ابن حجر في كلامه على الحِكم من ابتلاء المسلمين في غزوة أحد : " قال العلماء: ومنها: أن عادة الرسل أن تُبْتلى وتكون لها العاقبة، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائما دخل في المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب .. ومنها: أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضما للنفس، وكسرا لشماختها، فلما ابتلي المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون .. ومنها أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها ".

ومن الزهد أن يكونَ العبدُ إذا أُصيبَ بمصيبةٍ فِي دُنياه مِنْ ذهاب مالٍ، أو ولدٍ، أو غيرِ ذلك، أرغبَ فِي ثواب ذلك ممَّا ذهبَ منه مِنَ الدُّنيا أن يبقى له، وهذا أيضًا ينشأُ مِنْ كمالِ اليقين ، قال عمَّار: كفى بالموت واعظًا، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلًا.

روي عن ابن عمر أنَّ النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - كان يقول فِي دعائه: "اللهُمَّ اقسم لنا مِنْ خشيتكِ ما تحولُ به بيننا وبين معاصِيكَ ، ومِنْ طاعتك ما تبلِّغُنا به جنَّتك ، ومِنَ اليقين ما تهوِّنُ به علينا مصائبَ الدُّنيا" ، وقال عليٌّ - رضي الله عنه -: من زهد فِي الدُّنيا هانت عليه المصيبات.

وسئل بعضُهم - ولعله الإمام أحمد - عمَّن معه مالٌ: هل يكون زاهدًا؟ قال: إن كان لا يفرح بزيادته ولا يحزن بنقصه فهو زاهد ، أو كما قال. يقول النبي صلى الله عليه وسلم :" ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس."

وقال سفيان الثوري: كان من دعائهم:" اللهم زهِّدنا فِي الدُّنيا، ووسِّع علينا منها، ولا تزوِهَا عنا، فترغِّبنا فيها " . وقال:" الزهد فِي الدنيا قِصَرُ الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا بلبس العباء ."

ووجه هذا أنَّ قِصَر الأملِ يُوجِبُ محبَّةَ لقاء الله، بالخروج من الدنيا ، وطولُ الأمل يقتضِي محبَّةَ البقاءِ فيها، فمن قصُرَ أملُه، فقد كره البقاء فِي الدُّنيا، وهذا نهاية الزُّهد فيها، والإعراض عنها، واستدل ابنُ عيينة لهذا القول بقوله تعالى:" قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " إلى قوله:" وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ " الآية.

وقد قسم كثيرٌ مِنَ السَّلفِ الزُّهدَ أقسامًا: فمنهم من قال: أفضل الزُّهدِ: الزُّهدُ فِي الشِّركِ، وفِي عبادةِ ما عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ، ثمَّ الزُّهدُ فِي الحرام كلِّه من المعاصي، ثمَّ الزُّهدُ فِي الحلال، وهو أقلُّ أقسام الزهد، فالقسمان الأولان من هذا الزهد، كلاهما واجبٌ، والثَّالث: ليسَ بواجبٍ، فإنَّ أعظمَ الواجبات: الزُّهد فِي الشِّركِ، ثم فِي المعاصي كلِّها.

فخلاصة الزُّهد على أنه على ثلاثة وجوه: الأول: أن يُخْلِصَ العمل للهِ - عزَّ وجلَّ - والقول، ولا يُريد بشيء منه الدنيا ، والثاني: تركُ ما لا يصلُحُ، والعمل بما يصلح ، والثالث: الحلال أن يزهدَ فيه وهو تطوُّعٌ، وهو أدناها.

وقال إبراهيم بن أدهم: الزهد ثلاثة أصناف: فزهدٌ فرضٌ، وزهدٌ فضلٌ، وزهدٌ سلامةٌ، فالزهد الفرض: الزهد فِي الحرام، والزهد الفضل: الزهد فِي الحلال، والزهدُ السلامةُ: الزُّهد فِي الشبهات.

وقال أبو سليمان الداراني: اختلفوا علينا فِي الزُّهد بالعراق، فمنهم من قال: الزُّهد فِي ترك لقاءِ النَّاسِ، ومنهم من قال: فِي ترك الشَّهواتِ، ومنهم من قال: فِي ترك الشِّبَعِ، وكلامهم قريبٌ بعضُه مِن بعضٍ، قال: وأنا أذهبُ إلى أنَّ الزُّهدَ فِي ترك ما يشغلُك عن الله - عزّ وجلّ -، وهذا الذي قاله أبو سليمان حسن، وهو يجمعُ جميعَ معانِي الزُّهد وأقسامه وأنواعه.

وانقسم بنو آدم فِي الدنيا إلى قسمين:

أحدهما: من أنكر أن يكون للعباد بعد الدُّنيا دارٌ للثَّواب والعقاب، وهؤلاء هم الَّذينَ قال الله فيهم:" إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " ، وهؤلاء همُّهمُ التمتُّع بالدنيا، واغتنامُ لَذَّاتها قبل الموت، كما قال تعالى:" وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ " ، ومن هؤلاء من كان يأمرُ بالزُّهد في الدُّنيا ، لأنَّه يرى أنَّ الاستكثار منها يُوجِبُ الهمَّ والغمَّ، ويقول: كلَّما كثُرَ التعلُّقُ بها، تألَّمت النَّفسُ بمفارقتها عندَ الموت، فكان هذا غايةَ زُهدهم في الدنيا.

والقسم الثاني: من يُقِرّ بدارٍ بعد الموت للثَّواب والعقاب، وهم المنتسبون إلى شرائع المرسلين، وهم منقسمون إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله.

فالظالم لنفسه: هم الأكثرون منهم، وأكثرهم وقف مع زهرةِ الدُّنيا وزينتِها، فأخذها مِن غير وجهها، واستعملها في غير وجهها، وصارتِ الدُّنيا أكبرَ همِّه، لها يغضب، وبها يرضى، ولها يُوالي، وعليها يُعادي، وهؤلاء هم أهلُ اللَّهو واللَّعب ، والزِّينة والتَّفاخر والتَّكاثر، وكلُّهم لم يعرفِ المقصودَ من الدُّنيا، ولا أنَّها منزلُ سفرٍ يتزوَّدُ منها لِمَا بعدَها مِنْ دارِ الإقامة، وإن كان أحدُهم يُؤمِنُ بذلك إيمانًا مجمَلًا، فهو لا يعرفه مفصَّلًا، ولا ذاقَ ما ذاقَهُ أهلُ المعرفة بالله في الدُّنيا ممَّا هو أنموذَجُ ما أدّخر لهم في الآخرة ، ورحم الله من قال:

قدْ نادَتِ الدُّنْيا على نَفسِها * لَوْ كَانَ في العَالَمِ مَنْ يَسمَعِ
كَمْ وَاثِقٍ بالعُمْرِ أَفْنَيْتُهُ * وجَامِعٍ بَدَّدْتُ ما يَجْمَعِ

والمقتصد منهم أخذَ الدُّنيا مِنْ وجوهها المباحَةِ، وأدَّى واجباتها، وأمسك لنفسه الزَّائِدَ على الواجب، يتوسَّعُ به في التمتُّع بشهواتِ الدُّنيا، وهؤلاءِ قدِ اختُلف في دخولهم في اسم الزَّهادَةِ في الدُّنيا كما سبق ذكره، ولا عقاب عليهم في ذلك، إلَّا أنَّه ينقصُ من درجاتهم من الآخرة بقدر توسُّعهم في الدُّنيا. قال ابن عمر: لا يصيبُ عبدٌ مِنَ الدُّنيا شيئًا إلَّا نقص من درجاته عند الله، وإن كان عليه كريمًا، خرَّجه ابنُ أبي الدُّنيا بإسناد جيد.

وأمَّا السَّابقُ بالخيرات بإذن الله، فهمُ الَّذينَ فهِمُوا المرادَ مِنَ الدُّنيا، وعَمِلُوا بمقتضى ذلك، فعلموا أنَّ الله إنَّما أسكنَ عبادَه في هذه الدَّارِ، ليبلوهم أيُّهم أحسنُ عملا كما قال: "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا " ، وقال:" الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا."

قال تعالى:" إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا " ، ثم بين انقطاعه ونفاده ، فقال:" وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا " ، فلمَّا فهِموا أنَّ هذا هو المقصود مِنَ الدُّنيا، جعلوا همَّهم التزوُّدَ منها للآخرة التي هي دارُ القرار، واكتفوا مِنَ الدُّنيا بما يكتفي به المسافرُ في سفره، كما كان النبيّ - صلى الله عليه وسلم - يقول: "ما لي وللدُّنيا، إنَّما مثلي ومثل الدُّنيا كراكبٍ قالَ في ظلِّ شجرةٍ، ثم راح وتركها."

قال الحسن: ليس مِن حبك للدنيا طلبك ما يصلحك فيها ، ومن زهدك فيها ترك الحاجة يسدها عنك تركها، ومن أحبَّ الدُّنيا وسرَّته ذهب خوفُ الآخرة من قلبه.

وقال سعيد بن جبير:" متاعُ الغرور ما يُلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يُلهك، فليس بمتاع الغرور ولكنه متاعُ بلاغٍ إلى ما هو خيرٌ منه " ، والدنيا دارُ غنى لمن تزوَّد منها.

والزَّاهدون في الدُّنيا بقلوبهم لهم ملاحظُ ومشاهدُ يشهدونها ، فمنهم من يشهدُ كثرةَ التَّعب بالسَّعي في تحصيلها، فهو يزهدُ فيها قصدًا لراحةِ نفسه ، قال الحسن: الزُّهد في الدُّنيا يُريح القلب والبدن.

ومنهم من يخافُ أن ينقصَ حظُّه من الآخرة بأخذِ فضولِ الدنيا.

ومنهم من يخافُ من طُولِ الحساب عليها ، قال بعضهم: من سأل الله الدنيا، فإنَّما يسأل طولَ الوُقوفِ للحساب.

ومنهم من يشهدُ كثرةَ عُيوبِ الدُّنيا، وسرعة تقلُّبها وفنائها، ومزاحمةَ الأراذِلِ في طلبها، كما قيل لبعضهم: ما الذي زهَّدكَ في الدنيا؟ قال: قلَّةُ وفائها، وكثرةُ جفائها، وخِسَّةُ شُركائها.

ومنهم من كان ينظر إلى حقارةِ الدُّنيا عند الله، فيقذرها، كما قال الفضيلُ: لو أن الدُّنيا بحذافيرها عرضت عليَّ حلالًا لا أحاسب بها في الآخرة، لكنت أتقذرها كما يتقذر الرَّجلُ الجيفةَ إذا مرَّ بها أن تصيبَ ثوبه.

ومنهم من كان يخافُ أن تشغلَه عن الاستعدادِ للآخرة والتزوُّدِ لها ، قال الحسن: إن كان أحدهم ليعيش عمره مجهودًا شديدَ الجهد، والمالُ الحلال إلى جنبه، يقال له: ألا تأتي هذا فتُصيب منه؟ فيقول: لا والله لا أفعل، إنِّي أخافُ أن آتيه، فأصيبَ منه، فيكون فسادَ قلبي وعملي.

وبُعِث إلى عمر بن المنكدر بمالٍ، فبكى، واشتدَّ بكاؤه، وقال: خشيت أن تغلب الدُّنيا على قلبي، فلا يكون للآخرة فيه نصيب، فذلك الذي أبكاني، ثم أمر به، فتُصُدِّقَ به على فقراء أهل المدينة.

وخواص هؤلاء يخشى أن يشتغلَ بها عن اللهِ ، قال أبو سليمان:" الزهد ترك ما يشغل عن الله " وقال:" كلُّ ما شغلك عن اللهِ مِنْ أهلٍ ومالٍ وولدٍ، فهو مشؤوم " ، وقال:" ليس الزاهد من ألقى همومَ الدُّنيا، واستراح منها، إنَّما الزَّاهد من زَهِدَ في الدُّنيا، وتعب فيها للآخرة " ، فالزُّهد في الدُّنيا يُرادُ به تفريغُ القلب مِنَ الاشتغال بها، ليتفرَّغ لِطلب الله، ومعرفته، والقرب منه، والأُنس به، والشَّوقِ إلى لقائه، وهذه الأمورُ ليست مِنَ الدُّنيا.

جاء في المسند وسنن ابن ماجه عن زيد بن ثابت، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قال: "من كانت الدُّنيا همَّه، فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقرَه بينَ عينيه، ولم يأته من الدُّنيا إلَّا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيَّتَه، جمعَ الله له أمرَه، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدُّنيا وهي راغمة."

وقال عونُ بنُ عبد الله:" الدُّنيا والآخرةُ في القلب ككفَّتي الميزان بِقَدْرِ ما ترجحُ إحداهُما تخِفُّ الأخرى " ، وقال وهب:" إنَّما الدُّنيا والآخرة كرجلٍ له امرأتانِ: إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى."

وما أحسنَ قول بعض السلف في وصف الدنيا وأهلها:

وما هِيَ إلَّا جِيفةٌ مستحيلةٌ * عليها كلابٌ هَمُّهُنَّ اجتذابُها
فإنْ تَجْتَنبها كنتَ سِلْمًا لأهلها * وإن تجتذبها نازعتك كِلابُها

عَنِ ابن عُمَرَ رَضي الله عَنهُما قَالَ: أَخَذَ رَسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - بِمَنكِبِيَّ، فقال: "كُنْ فِي الدُّنيا كأَنَّكَ غَريبٌ، أو عَابِرُ سَبيلٍ" ، وكانَ ابنُ عُمَر يقولُ:" إذا أَمسيتَ، فلا تَنتَظِر الصَّباح، وإذا أَصبَحْتَ فلا تَنتَظِرِ المساءَ، وخُذْ مِنْ صِحَّتِك لِمَرضِكَ، ومنْ حَياتِكَ لِمَوتِكَ " رواهُ البُخاري.

فهذا الحديث أصلٌ في قِصَر الأمل في الدُّنيا، وأن المؤمنَ لا ينبغي له أن يتَّخذ الدُّنيا وطنًا ومسكنًا، فيطمئنّ فيها ، فإنه راحلٌ عنها لا محالة ، ولكن ينبغي أن يكونَ فيها كأنَّه على جناح سفر: يُهيِّئُ جهازَه للرحيل ، وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: "ما لي ولِلدُّنيا ، إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا كمثل راكِبٍ قالَ في ظِلِّ شجرةٍ ثم راحَ وتركها."

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله أن من وصايا المسيح عليه السَّلامُ لأصحابه أنَّه قال لهم عن الدنيا:" اعبُروها ولا تَعمُروها " ، ورُوي عنه أنه قال:" من ذا الذي يبني على موجِ البحر دارًا ؟ ، تلكُمُ الدُّنيا، فلا تتَّخذوها قرارًا."

وقال بعضُ الحكماء:" عجبتُ ممَّنِ الدُّنيا موليةٌ عنه، والآخرة مقبلةٌ إليه يشتغلُ بالمدبرة، ويُعرِض عن المقبلة."

ومن كان في الدُّنيا كذلك، فلا همَّ له إلَّا في التزوُّد بما ينفعُه عندَ عودِه إلى وطنه، فلا يُنافِسُ أهلَ البلدِ الذي هو غريبٌ بينهم في عزِّهم، ولا يَجْزعُ من الذلِّ عندهم، قال الحسن:" المؤمن في الدُّنيا كالغريب لا يجزع من ذُلها، ولا يُنافِسُ في عِزِّها، له شأنٌ، وللناس شأن."

ولما خُلِق آدمِ عليه السلام أُسكِنَ هو وزوجتُه الجنَّة، ثم أُهبطا منها، ووُعدا الرجوع إليها، وصالح ذرِّيَّتهما، فالمؤمن أبدًا يَحِنُّ إلى وطنه الأوَّل.

فحيَّ على جنَّاتِ عدنٍ فإنَّها * منازِلُكَ الأولى وفيها المُخَيَّم
وأيُّ اغْترابٍ فوقَ غُربتنا التي * لها أضحَت الأَعداءُ فينا تَحَكَّم

قال الحسنُ: بلغني أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لأصحابه: "إنَّما مثلي ومثلُكم ومَثَلُ الدُّنيا، كقوم سلكوا مفازةً غبراءَ، حتَّى إذا لم يَدْرُوا ما سلكوا منها أكثر، أو ما بقي، أنفدُوا الزَّادَ، وحَسَروا الظَّهر، وبقُوا بين ظهراني المفازة لا زادَ ولا حَمُولة، فأيقنوا بالهَلَكة، فبينما هم كذلك، إذ خرج عليهم رجلٌ في حُلَّةٍ يقطُرُ رأسُه، فقالوا: إن هذا قريبُ عهدٍ بريفٍ، وما جاءكم هذا إلَّا من قريبٍ، فلما انتهى إليهم، قال: علام أنتم؟ قالوا: على ما ترى، قال: أرأيتُكم إنْ هديتُكم إلى ماءٍ رِواء، ورياضٍ خُضر، ما تعملون؟ قالوا: لا

نعصيك شيئًا، قال: عُهودَكم ومواثيقَكم بالله، قال: فأَعْطَوهُ عهودَهُم ومواثيقهُم بالله لا يَعصُونَهُ شيئًا، قال: فأوردهم ماءً، ورياضًا خُضرًا، فمكث فيهم ما شاء الله.

ثم قال: يا هؤلاء الرحيلَ، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماءٍ ليس كمائكم، وإلى رياضٍ ليست كرياضِكُم، فقال جُلُّ القوم - وهم أكثرهم -: والله ما وجدنا هذا حتَّى ظننَّا أن لن نَجِدَهُ، وما نصنع بعيشٍ خيرٍ من هذا ؟ وقالت طائفة - وهم أقلُّهم -: ألم تُعطوا هذا الرَّجُلَ عهودكم ومواثيقكم بالله لا تَعصونه شيئًا وقد صدقكم في أوَّل حديثه، فوالله ليصدقنَّكم في آخره، قال: فراح فيمن اتبعه، وتخلَّف بقيتهم، فنذر بهم عدوٌّ، فأصبحوا من بين أسيرٍ وقتيل" ، والحديث وإن لم يثبت إلا أننا ذكرناه من باب الوعظ والفائدة.

وقال الفضيلُ بنُ عياض لرجلٍ:" كم سنة أتت عليك ؟ " ، قال:" ستون سنة " ، قال:" فأنت منذ ستين سنة تسيرُ إلى ربِّك يُوشِكُ أن تَبلُغَ " ، فقال الرجل:" إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون " ، فقال الفضيلُ:" أتعرف تفسيرَه ؟ ، تقول: أنا لله عبد وإليه راجع، فمن عَلِمَ أنه لله عبد، وأنه إليه راجع، فليعلم أنَّه موقوف، ومن علم أنه موقوف، فليعلم أنه مسؤول، ومن عَلِمَ أنَّه مسؤولٌ، فليُعِدَّ للسؤال جوابًا " ، فقال الرجل:" فما الحيلةُ؟ " ، قال:" يسيرة " ، قال:" ما هي؟ " ، قال:" تُحسِنُ فيما بقي يُغفَرُ لك ما مضى ، فإنَّك إن أسأتَ فيما بقي، أُخِذْتَ بما مضى وبما بقي."

ولمّا كان اليقين بالآخرة والزهد في الدنيا متقرراً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يريد الدنيا ، بل كان يسعى إلى الآخرة سعي من يرى الشيء أمامه يريد أخذه بيده ، وذلك من دلائل صدقه صلى الله عليه وسلم.

وحال كثير من الناس كما قال تعالى:" إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) " ، فيأتيه البيان والجواب من الله :" كَلَّا " ، فليس معيار الكرامة والأفضيلة عند الله أن تكون غنياً أو فقيراً ، وإنما المعيار التقوى .

وإن بعض الناس ليغتر برفاه الكفار فيظن بذلك أنهم أفضل من المسلمين ، أو يقول أن حياة العصاة أفضل من الطائعين ، ووالله إن هذا من انقلاب الموازين ومن الضلال المبين ، يقول الله تعالى مبيناً وزن الأموال والأولاد عنده فيقول :" وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ... (37) " ، فالأموال والأولاد ليست المعيار ، ولا بها تقاس الأفضلية عند الله ، بل المنزلة الحقيقية والمكانة الحقيقة تكون بمقدار التقوى كما قال تعالى:" إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " ، وقد نهى الله عز وجل عن الإعجاب بأموال وأولاد الكفار فقال تعالى :" فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُون."

وخلاصة الباب أن زهد النبي صلى الله عليه وسلم وإرادته للآخرة من الأدلة القوية على صدقه صلى الله عليه وسلم ، وعلى وجود الآخرة والقيامة والثواب والعقاب والجنة والنار ، جعلنا الله من أهل الجنة ، وأعاذنا الله من النار.

أمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالصيام دليل على صدقه

من أدلة صدق النبي صلى الله عليه وسلم أمره للناس بالصيام ، إذ هذه العبادة مع المشقة التي تعتري بعض الناس فيها تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم مأمور بأمر الناس بها ، إذ لو أن رجلاً كان يريد التفاف الناس حوله فإنه سيأتيهم بأمور يتمتعون بها لا بأمور تشق عليهم أو تكون سبباً لنفورهم عنه ، فدلّ ذلك على أن النبي صلى الله عليه وسلم عبدٌ مأمور بالبلاغ .

أضف إلى ذلك أن ذلك دليلٌ على صدق النبي صلى الله عليه وسلم من جهة أن الصيام وبقية العبادات لا ترجع إلى شخص النبي صلى الله عليه وسلم بنفعٍ دنيوي من مالٍ أو غير ذلك ، فدلّ ذلك على صدقِ النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى أن هذه عبادات أمر بها الخالق سبحانه وتعالى.

خاتمة

من هذا البحث المتواضع يُخرج بعدة نتائج من أهمها:

1) الله سبحانه وتعالى موجود.

2) الله سبحانه وتعالى هو الخالق.

3) الله سبحانه وتعالى قدير ، وعلى كل شيءٍ قدير، ويترتب على ذلك الإيمان بالمعجزات والبعث والقيامة والجنة والنار وجميع أمور الآخرة.

4) الله سبحانه وتعالى عليم ، وبكل شيءٍ عليم، وعليه فيجب تصديق أخباره ، ويجب العلم بأن ما أمر به هو الحق وهو الذي فيه النفع والمصلحة.

5) الله سبحانه وتعالى حكيم ، وأوامره وأفعاله وأقداره لا تخرج عن الحكمة، ويترتب عليه أن ينقاد العبد لكل أوامر الله ، ويُسلِّم لكل أقداره.

6) الله سبحانه وتعالى واحد ، فلا يستحق العبادة أحد إلا هو سبحانه.

7) يوم القيامة حقٌ لا ريب فيه ، وهو آتٍ، ويترتب على ذلك أن يستعد العبد لذلك اليوم وأن يتزود له.

8) بيان بعض أدلة صدق النبي صلى الله عليه وسلم.

9) بيان شيءٍ من بلاغة القرآن الكريم.

قال ابن القيم رحمه في خاتمة كتابه مفتاح دار السعادة :" وَالله الْمُوفق للصَّوَاب ، وَليكن هَذَا آخر الْكتاب ، وَقد جلبت إِلَيْك فِيهِ نفائس فِي مثلهَا يتنافس الْمُتَنَافسُونَ ، وجلبت عَلَيْك فِيهِ عرائس إِلَى مِثْلهنَّ بَادر الخاطبون ، فَإِن شِئْت اقتبست مِنْهُ معرفَة الْعلم وفضله وَشدَّة الْحَاجة إِلَيْهِ ، وشرفه وَشرف أَهله ، وَعظم موقعه فِي الدَّاريْنِ.

وَإِن شِئْت اقتبست مِنْهُ معرفَة إِثْبَات الصَّانِع بطرق واضحات جليات تلج الْقُلُوب بِغَيْر اسْتِئْذَان وَمَعْرِفَة حكمته فِي خلقه وَأمره ، وَإِن شِئْت اقتبست مِنْهُ معرفَة قدر الشَّرِيعَة وَشدَّة الْحَاجة إِلَيْهَا وَمَعْرِفَة جلالتها وحكمتها ، وَإِن شِئْت اقتبست مِنْهُ معرفَة النُّبُوَّة وَشدَّة الْحَاجة إِلَيْهَا بل وضرورة الْوُجُود إِلَيْهَا ، وَأَنه يَسْتَحِيل من أحكم الْحَاكِمين أَن يخلي الْعَالم عَنْهَا.

وَإِن شِئْت اقتبست مِنْهُ معرفَة مَا فطر الله عَلَيْهِ الْعُقُول من تَحْسِين الْحسن وتقبيح الْقَبِيح ، وَإِن ذَلِك أَمر عَقْلِي فطري بالأدلة والبراهين الَّتِي اشْتَمَل عَلَيْهَا هَذَا الْكتاب فَلَا تُوجد فِي غَيره ، وَإِن شِئْت اقتبست مِنْهُ معرفَة الرَّد على المنجمين الْقَائِلين بِالْأَحْكَامِ بأبلغ طرق الرَّد من نفس صناعتهم وعلمهم وإلزامهم بالألزامات المفحمة الَّتِي لَا جَوَاب لَهُم عَنْهَا ، وإبداء تناقضهم فِي صناعتهم وفضائحهم وكذبهم

على الْخلق وَالْأَمر ، وَإِن شِئْت اقتبست مِنْهُ معرفَة الطِّيرَة والفأل والزجر وَالْفرق بَين صَحِيح ذَلِك وباطله وَمَعْرِفَة مَرَاتِب هَذِه فِي الشَّرِيعَة وَالْقدر.

وَإِن شِئْت اقتبست مِنْهُ أصولاً نافعة جَامِعَة مِمَّا تكمل بِهِ النَّفس البشرية وتنال بهَا سعادتها فِي معاشها ومعادها ، إِلَى غير ذَلِك من الْفَوَائِد الَّتِي مَا كَانَ مِنْهَا صَوَابا فَمن الله وَحده هُوَ المانُّ بِهِ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا من خطأ فَمن مُؤَلفه وَمن الشَّيْطَان وَالله بَرِيء مِنْهُ وَرَسُوله ، وَالله سُبْحَانَهُ الْمَسْؤول والمرغوب إِلَيْهِ المأمول أَن يَجعله خَالِصاً لوجهه ، وَأَن يعيذنا من شرور أَنْفُسنَا وَمن سيئات أَعمالنَا ، وَأَن يوفقنا لما يُحِبهُ ويرضاه إِنَّه قريب مُجيب .

وَالْحَمْد لله رب الْعَالمين ، وَصلى الله على سيدنَا مُحَمَّد وَآله وَصَحبه أَجْمَعِينَ وَسلم تَسْلِيمًا كثيرا " .

تم الفراغ منه - بحمدالله وتوفيقه - في ليلة 15 شعبان من سنة 1445 هـ ، والحمدلله رب العالمين .

الفهرس

المراجع

*قائمة المراجع ليست شاملة لجميع المراجع

1) القرآن الكريم
2) صحيح الترغيب والترهيب
3) تفسير القرطبي
4) سنن الترمذي
5) التمهيد – ابن عبد البر
6) مدارج السالكين – ابن القيم
7) الزهد والرقائق – ابن المبارك
8) الزهد – للإمام أحمد بن حنبل
9) شرح العقيدة الطحاوية – صالح آل الشيخ
10) الفتاوى الكبرى – ابن تيمية
11) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة – ابن حجر العسقلاني
12) تفسير ابن كثير
13) حياة الحيوان – الدميري
14) مفتاح دار السعادة – ابن القيم
15) صحيح البخاري
16) صحيح مسلم
17) التفسير الميسر
18) التفسير المختصر
19) تفسير البغوي
20) شرح الأربعين النووية – ابن عثيمين
21) موسوعة الإعجاز العلمي - شحاتة صقر